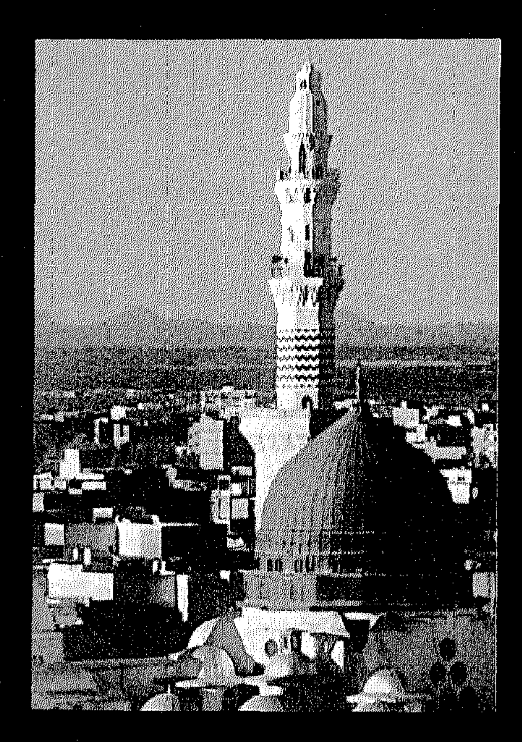
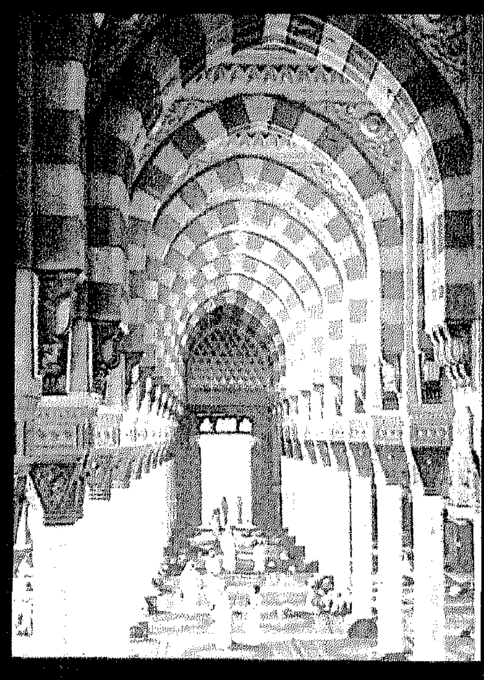
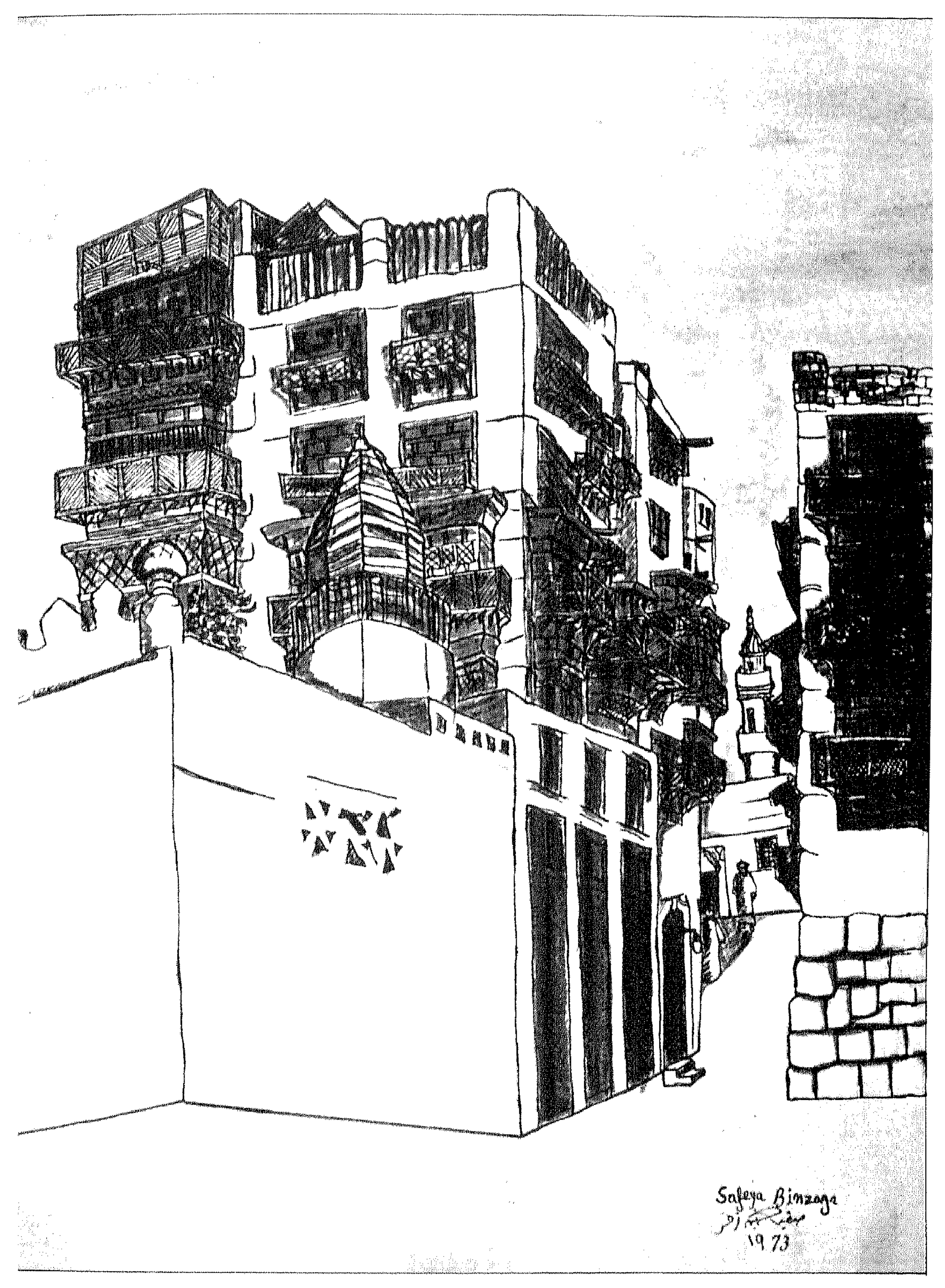
تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الخامسة • العدد ٥٣ • آذار ١٩٨٣ م. الموافق جمادى الآخرة ١٤٠٣ هـ.







البيوت القديمة في جدة
رسم السيدة «صفية بن زخر»، ١٩٧٣

تاريخ العرب والعالم

العدد ٥٣ ــ آذار ١٩٨٣

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير
المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي
قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة
قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر
المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.
التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

البلد	الثمن	البلد	الثمن
لبنان	٦ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للافراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للافراد ١٢٥ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً.
- خارج الوطن العربي: للافراد ٤٠ دولاراً.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً.
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ــ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 5, No. 53, MAR. 1983

ANNUAL SUBSCRIPTION: $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة، ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الالقاب الصفات العلمية فقط ■

التماثيل والدمى المتحركة عند العرب

(الحلقة الأولى)

د. منى
سنجقدار
شعراني

انطلاقا من هذا الاعتقاد نشأت فكرة التماثيل والدمى المتحركة وبدأت تتطور ومشت في ركب الحضارات حتى بات من الصعب جدا التمييز بين عمل قام به انسان عادي واخر انجزه رجل الي.

لم يكن الانسان الاول يعرف بالطبع التماثيل المتحركة بمفهومها الحاضر، لكن معظم المراجع التاريخية تذكر وجود تماثيل او دمى متحركة على هيئة انسان او حيوان تجرها عربات او تحمل على بكر. اما التماثيل ذات المفاصل المتحركة (Statues articulées) والتي تعتبر النواة الاولى للدمى المتحركة (Les marionnettes) والالعاب الميكانيكية (Les jouets mécaniques) والتماثيل الآلية (Les automates) نجدها عند قدماء المصريين وقد لعبت دورا هاما في حياتهم. لقد ساد الاعتقاد بان تلك التماثيل تملك كل القدرات الالهية، انها تنبىء بالحياة والموت، تغفر الذنوب، تشفي المرضى، وكل حركة من حركاتها تعبر عن معنى من معاني الحياة. هذا، وان كل واحد من قدماء المصريين كان اسير الآلهة. انه لا يستطيع القيام باي عمل دون استشارتها. لذلك كان يلجأ في معظم اوقاته الى المعابد حيث يجد التماثيل فيتحاور معها ويتلقى الاجابة بقلب مفعم بالايمان.

اما وسائل الاجابة فمتعددة، من اصوات باطنية الى اصداء رنانة الى قوقعة خفية او الى



الشكل رقم (١١)

في هذا العصر عصر التقدم التقني، عصر الآلات الميكانيكية الاتوماتيكية، عصر الرجل الآلي، لابد لنا من كشف النقاب عن قصة التماثيل والدمى المتحركة ومدى مساهمة العرب في تطورها.

انها قصة طويلة تربط الماضي بالحاضر وتنبىء بالمستقبل. لقد بدأت مع الانسان وعايشته في جميع مراحل حياته وتطوراته الفكرية والصناعية حتى اصبحت وكانها الحلم الوحيد الذي يراود مخيلته والذي يصبو دائما لتحقيقه معتقدا بانه اذا ما استطاع تقليد نفسه كشف عن سر وجوده ومظاهر حياته.

حركة مفصلية؛ جميعها طبعا كانت يقوم بها الكهنة الذين يسيطرون على الشعب. هم الذين يتكلمون في جوف التمثال وهم الذين يحركون اعضاءه بواسطة خيوط رفيعة غير منظورة كما هي الحال في الدمى المتحركة في عصرنا الحاضر.

ان الاشكال رقم (١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ و ٥) تعطي صورة واضحة عن بعض النماذج للتماثيل والدمى المتحركة القديمة العهد والتي لا تزال محفوظة في المتاحف الغربية.

لم تقتصر هيمنة التماثيل المتحركة على قدماء المصريين فحسب بل غزت العالم القديم باسره، من شرقه الى غربه ومن شماله الى جنوبه. يحدثنا المؤرخون عن وجود تماثيل متحركة في كل بقعة من العالم القديم والدليل الوحيد لدينا على صحة اقوالهم هو بعض تلك التماثيل التي وجدت بين الآثار والتي لا تزال محفوظة في المتاحف العامة يبين الشكل رقم (٦) اجزاء تمثال متحرك وجد في المكسيك ان الثقوب الواضحة في الاطراف تعبر عن حركة المفاصل.

اما المؤرخ والتر (Walter Fewkes) الذي عايش هنود الهوبي[1] (Hopi) في الفترة الواقعة ما بين (١٨٩٠ ـ ١٩٠٠) كشف لنا النقاب عن عاداتهم وتقاليدهم القديمة، لقد وصف في كتابه بعض الاحتفالات التي تقام في موسم الربيع، وكان معظمها يعتمد على الدمى المتحركة والتماثيل التي تظهر على اشكال مختلفة. ان الصورة رقم (٧) تظهر بعض مشاهد الاحتفالات على المسرح. (لاحظ وجود الدمى المتحركة في اخر المسرح).

والمعلوم بان كل دمية او تمثال كان يحركها شخص اخر من خلف الستار بواسطة خيوط رفيعة غير منظورة.

كذلك الشكل رقم (٨) فانه يمثل الافعى شعار الشتاء.

ويذكر المؤرخ ايضا، ان الهنود سكان الاسكا كانوا يعتمدون على الاقنعة المتحركة التي يوجد عدد وفير منها في متاحف نيويورك وان معظمها كان يعتمد على حركة العيون (راجع الشكل رقم (٩))، انه يمثل رأس نسر ذي فك متحرك وعيون متحركة.

ان التماثيل المتحركة ظهرت ايضا في مجاهل افريقيا (الشكل رقم (١٠)) اما الشكل رقم (١١) والموجود حاليا في متحف برلين، فهو آت من بلاد الكامرون. ان الطير يتحرك بواسطة خيوط رفيعة تمتد داخل جوف التمثال حيث يدخل العبد رأسه ليتكلم ويجيب على الاسئلة المطروحة عليه.

كذلك، فان المؤرخ كلابروت (Klaproth) ينقلنا الى الشرق الاقصى الى الصين حيث اخذت الدمى المتحركة مكانتها منذ زمن بعيد. ان الشعب الصيني الذى استطاع منذ القدم ان يبرهن وجود القوة المغناطيسية لم يتأخر عن اظهار نظريته الى حيز الوجود بتسيير عربات تخضع لهذه القوة وتحمل تماثيل متحركة.

ان التمثال المتحرك بواسطة العربة المغناطيسية (في الشكل رقم (١٢)) يشير دائما الى الجنوب[2] كيفما توجهت العربة لذلك كانت تلك العربة تتقدم دائما موكب الامبراطور لتحدد وجهة السير.

تأثر قدماء اليونان وفلاسفتهم ايضا بالتماثيل والدمى المتحركة. يحدثنا هوميروس مثلا في الالياذة عن وجود تماثيل متحركة من الذهب تحرس الملك ليلا ونهارا كذلك اريسطو رغم افكاره الفلسفية وترفعه عن عالم الحسيات الى عالم الفكر والخيال، لم يستطع الخروج عن هذا



الشكل رقم (١)

إله الموت
رأس ابن آوى ذو فك متحرك (متحف اللوفر)، «قدماء المصريين»

التأثر. من أقواله: «اذا كانت كل الة تعمل من نفسها، واذا كانت القيثارة تعزف لحنها فان رب العمل لايحتاج الى عامل ولايحتاج السيد لخدمه».

لكن هذا الفن تطور تطورا هائلا مع اليونان الذين اشتهروا بفن النحت. تذكر بعض المراجع الأجنبية بان احد فناني اليونان قدم الى مدرسة النحت (٥٣٠ ــ ٤٦٠ق.م.) تمثالا يجيد حركة الايدي والارجل والعيون حتى ان الشاعر اليوناني اناكريون (Anacréon) صرخ قائلا عندما وقعت عيناه عليه «نعم، سيدي، هل ستتكلم».

هكذا سيطرت فكرة التماثيل المتحركة على العالم القديم بأسره لكنها لم تخضع للحركة الآلية ولا للقوة الميكانيكية لتحريكها بل بقيت بدائية جدا تعتمد في حركتها على البكر والخيوط.

ولم تظهر الحركة الآلية للتماثيل والدمى المتحركة الا في مدرسة الاسكندرية التي ضمت اعظم علماء علم الميكانيكا. نستطيع أن نذكر منهم مؤسسي تلك المدرسة كستبيوس (Chésibios) فيلون البيزنطي (Philon de Byzance) وهيرون الاسكندري (Héron d'Alexandrie) ترك كل عالم من هؤلاء ارثا ثمينا في حقل التماثيل والدمى المتحركة ولكن معظم مقالاتهم وكتبهم ضاعت وحرقت ويرجع الفضل الأكبر في حفظ ما تبقى للعرب الذين ترجموا قسما كبيرا منها.

لقد طور علماء اليونان فكرة التماثيل المتحركة وبعثوا فيها مظاهر الحياة بانشاء مسارح متحركة تعتمد بحركتها على الدواليب ذات الأسنان، قوة الماء، قوة الجاذبية وغيرها من النظريات العلمية التي وضع اسسها اقليدس وارخميدس وغيرهم من العلماء.

قبل ان ننتقل الى تطور التماثيل الآلية على ايد عربية، لا بد لنا من ذكر بعض النماذج اليونانية وفقا للتسلسل التاريخي لكي يتسنى لنا اظهار مدى اسهام العرب في تطور هذا الفن، ومدى تأثير هذا التطور على العالم الغربي.

ظهر اول تمثال متحرك بطريقة ميكانيكية في ساعة كستبيوس المائية التي وصفت في اكثر من مرجع. تظهر الصورة رقم (١٤) شكل الساعة من الخارج والداخل.

كيفية حركة التماثيل

يأتي الماء من حوض مركز داخل الساعة، يصعد في الأنبوب المثبت داخل تمثال (أ) ليجري من عيونه ثم ينصب في حوض صغير (م) ويجري من ثم في أنبوب (ج هـ د) إلى أنبوب أوسع يحوي قطعة من الفلين تطفو على سطح الماء. لقد ثبت في وسط قطعة الفلين قضيب معدني يحمل التمثال (ت) الذي يشير بعصاه للساعة. لما ارتفع مستوى الماء في الأنبوب الخارجي ارتفع بالداخل وارتفع معه التمثال ليشير بسهمه إلى الساعة المحددة. بعد مرور يوم كامل أي ٢٤ ساعة يمتلىء الأنبوب فيفيض من انبوب (هـ و) الملصق به لينصب على دولاب (ك) المؤلف من ستة جيوب فيدور



الشكل رقم (٢)

دمية ذات ارجل متحركة (متحف اللوفر)

الدولاب بفعل ثقل الماء عليه ويدور معه اللولب المركز على عاموده. بفعل دوران اللولب، تدور الدائرة ذات الاسنان لتدير لولبا اخر ودائرة اخرى ايضا ذات اسنان ثبت على عـامودهـا الاسطوانة الكبيـرة التي تحتوي عـلى تقسيم الساعة. تتم دورة هذه الاسطوانة بـ ٣٦٦ يوما.

يتضـح مما تقدم، بأن كستبيوس اعتمد في تحريك تمثـاله على المبـادىء العلمية والقـوى الميكانيكية. لكن حركته هذه إجمالية ولا نستطيع ان نعتبره تمثالا اليا بالمعنى العلمي لأنه لا يحرك اعضاءه من تلقاء نفسه.

فيلون البيزنطي

لقد اهتم فيلون اهتمامـا بالغـا بالتمـاثيل المتحركة واعطاها اشكالا مختلفة من هيئة انسان الى هيئة حيوان ضخم او عصفور صغير. وهنا حاول تطوير الحركة الاجمالية فحرك اجنحـة الطيور وايدي التماثيل. له في هذا المجال كتاب ضخـم (Les pneumatiques) ترجم الى عدة لغات منها العربية، لقد اخترنا منه نمـوذجين فقط.

النموذج الأول الشكل رقم (١٥)

يلاحظ في هـذا الرسم ان الوحش ينحني ليشرب الماء، لكن وجود التمثال الذي امـامه يمنعه من الشرب. لأن التمثال يرتكز على عامود متحرك فاذا ما ادار ظهره للوحش شرب الوحش باطمئنان مع إحداث صوت غريب يشبه زمجرة الاسد.

ان هذه الحيلة تعمل بفعل ضغط الماء في الأنبوب طاردا الهواء فيحدث بذلك صوتا.

هكذا يصف فيلون البيزنطي عدة حيل تحتوي على تماثيل متحركة بفعل قوة ضغط الماء. لكن الحركة تعتمد على تحريك الجسم بكامله. وعندما حاول تحريك اليد ايضا اعطى الحركة للجسم لا للمفصل. لكنه استطاع تطوير حركة اجنحـة العصـافير في مخـطوطته هـذه. يظهـر الشكل رقم (١٦) عصفورا يستطيع رفرفة جناحيه.

هيرون الاسكندري

لهيرون الاسكندري الفضل الاكبر في تطوير حركة التماثيل المتحركة. انه لم يكتف بالتماثيل



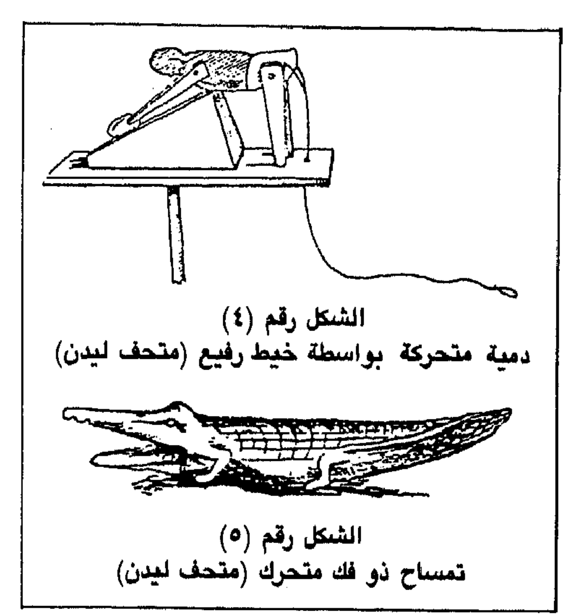
الشكل رقم (٣)
دمية ذات أيد متحركة
(متحف اللوفر)

والدمى، بل انشأ المسارح المتحركة. لقد كتب عدة مؤلفات في هذا المضمار من اهمها (Les pneumatiques) الذي ترجم الى اللغة العربية.

في هذا الكتاب يعتمد هيرون كثيرا على سلفه فيلون ولكنه اعطى حياة اخرى لتماثيله وذلك عندما استطاع بواسطة الحبال والاسطوانة ذات الاسنان ان يحرك مفاصل التمثال. وكذلك فقد استطاع بنفس الواسطة ان يفتح ويغلق ابواب مسارحه المتحركة. ان هذه الحركة الآلية لم تظهر عند فيلون وان هيروت اول من طورها معتمدا بذلك على النظريات العلمية.

لقد اخترنـا احد النمـاذج التي تتميز عن سلفه.

في هذا النموذج، يصف هيرون حركة ذاتية يقوم بها الحدادون الاربعة. اذ ان احدهم يحمل قطعة من الحديد يضعها في النار لتحمى ثم يضعها على السندان فيبدأ الآخرون بطرقها حتى تبرد. فتعاد تحميتها من جديد في حركة ذاتية ايضا (راجع الشكل رقم (١٧)). إن هذا الشكل يعبر بوضوح عن مدى تعقيد عملية تلك الحيلة، لاحظ وجود السلاسل التي تتحـرك بواسـطة الدوافع والتي تتصل مباشرة بارجل الحدادين. اما الحداد رقم (E) فانه يرتكز على عامود يدور بواسطة الحبل الملفوف عليه، وبفعل ضغط وزن



الشكل رقم (٤)
دمية متحركة بواسطة خيط رفيع (متحف ليدن)

الشكل رقم (٥)
تمساح ذو فك متحرك (متحف ليدن)

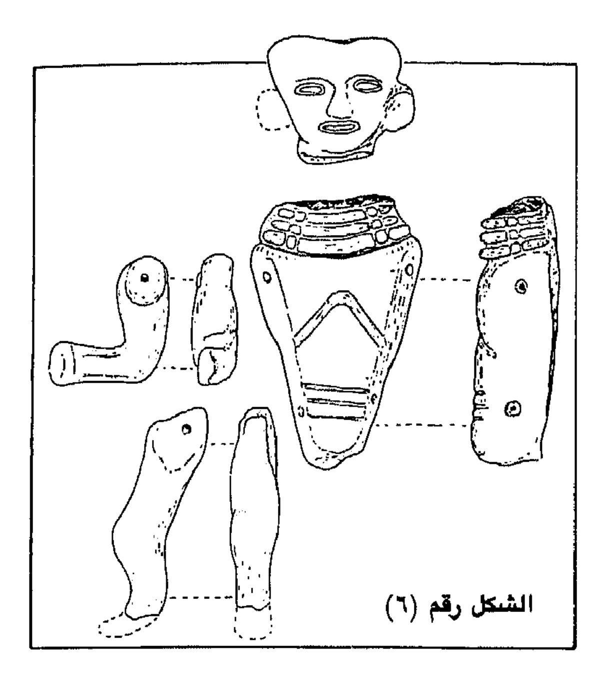
الماء على الدولاب الكبير. لكن ذلك يدل على مدى شوق اليونان لتطبيق نظرياتهم العلمية في اعمالهم اليومية. بعد ان بقيت مدة من الزمن تسبح مع الفلاسفة في عالم الخيال.

- كيفية حركة يد الحداد

يعتمد هيرون في اداء حركة اليد على الدوائر ذات الاسنان التي تدور بفعل الاثقال المتدلية على الحبال المثبتة على البكر، كما انه يعتمد نفس المبدأ عندما يصف كيفية فتح واغلاق ابواب المسارح (راجع الشكل رقم (١٨) و (١٩)).

خلاصة القول

ان التماثيل المتحركة اعتمدت في حركتها بادىء ذي بدء على تحريك الجسم بكامله بواسطة البكر او على تحريك بعض المفاصل بواسطة الخيوط ثم ما لبثت ان تطورت تلك الحركة مع اليونان بحيث يلاحظ من النماذج السابقة بانهم اعتمدوا الحركة الآلية لتماثيلهم مرتكزين بذلك على النظريات العلمية البحتة في علم الميكانيك. من هذه المبادىء نذكر قوة ضغط الماء لطرد الهواء ـ قوة وزن الماء لادارة الدواليب ـ مبدأ الاجسام التي تطفو على سطح الماء ـ مبدأ دوران الدواليب والدوائر ذات الاسنان (Systeme d'engrenage) مبدأ المضخة المائية، كل ذلك اعطى بالطبع حياة جديدة لفن التماثيل المتحركة.



الشكل رقم (٦)

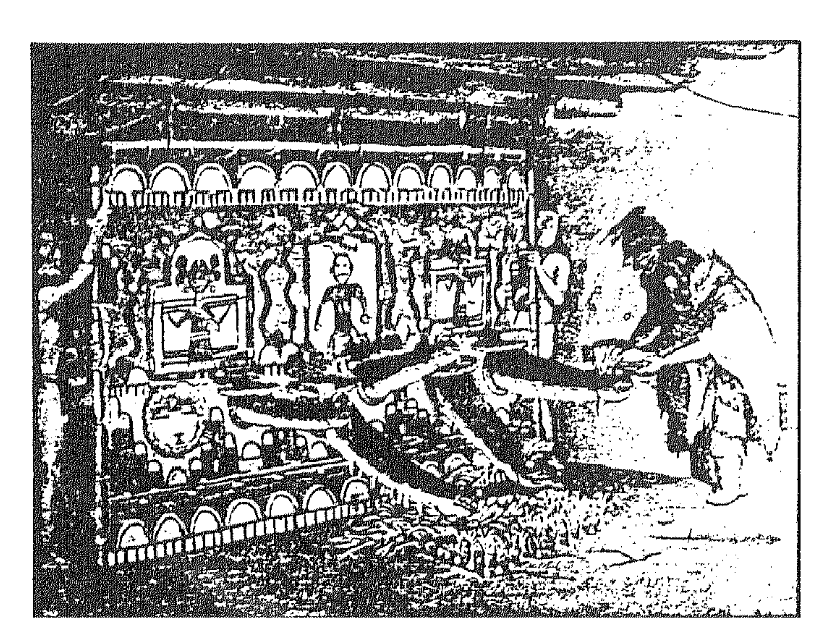
العرب والتماثيل المتحركة

لم يعبث العرب بهذا الارث الثمين الذي تركه لهم اسلافهم بل حافظوا عليه وترجموه الى لغتهم الام لكي يتسنى لكل باحث عربي الاطلاع عليه. لكنهم لم يكتفوا بهذا القدر، شأنهم في جميع العلوم، بل طوروا هذا الفن واحرزوا بتطوره تفوقا ملحوظا.

رغم ان تراثنا العربي ليس حافلا بالمخطوطات المتعددة في وصف التماثيل المتحركة ولكن ما تبقى لنا منه في هذا الحقل يعطينا فكرة واضحة عن مدى تطور هذا الفن عند اجدادنا ومدى تفوقهم على اسلافهم في الحيل الميكانيكية التي اعتمدوها لتحريك تماثيلهم. ان ما انجزه العرب في هذا المضمار يفوق الى حد بعيد ما ورثوه من اليونان والرومان والبيزنطيين. هذا مع العلم ان ما توصل اليه علماؤنا من النظريات العلمية الحديثة في هذا المجال سبقوا فيه علماء الغرب بعدة قرون.

لعبت التماثيل والدمى المتحركة دورا هاما في حياة الملوك العرب، وكان لها الأثر الاكبر في تطوير علم الحيل، لذلك لم يخل قصر من القصور او منزل من منازل الخلفاء من تمثال يتحرك من تلقاء نفسه. هذا وان قصة الف ليلة وليلة مليئة بالاساطير التي تتكلم عن ظهور تماثيل تقوم باعمال الانسان. تحدثنا هذه القصة عن الملك شرفان عندما دخل قصر الملكة ابريزة اذ لفت

الشكل رقم (٧)



نظره صالة واسعة فرشت بالسجاد الخراساني وملئت بالتماثيل التي تحرك اطرافها وتغني.

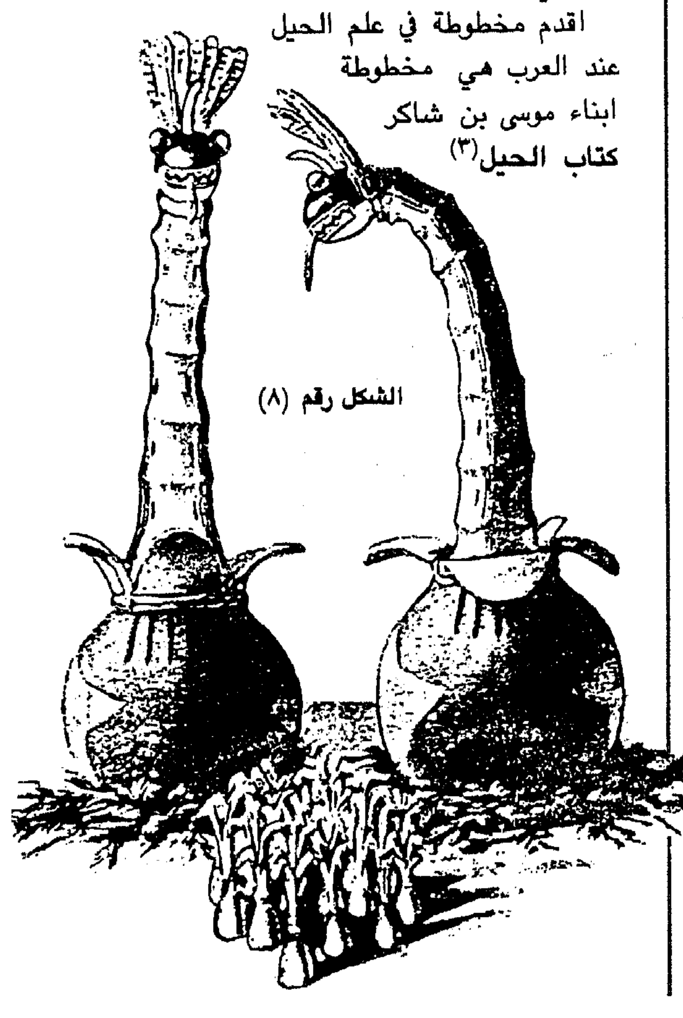
اما كتاب كليلة ودمنة، فانه غالبا ما يحدثنا عن الحصان الطائر ولم يخل من العبارات التي ترمز الى وجود التماثيل المتحركة كالعبارة التالية:

«ان يصنعوا خيلا من نحاس مجوفة عليها تماثيل من الرجال على بكر تجري اذا دفعت مرت سراعا».

وتحدثنا بعض المراجع عن الساعة المائية المهداة من هارون الرشيد الى الملك شارلمان. ان هذه الساعة تحمل اثني عشر تمثالا، عند منتصف النهار اي في الساعة الثانية عشرة تماما يظهر ١٢ خيالا من ١٢ شباكا بصورة تلقائية ليعبروا عن منتصف النهار. كما تحدثنا تلك المراجع ايضا عن ظهور التماثيل المتحركة في بغداد ايام الخلفاء حيث ان هؤلاء كانوا يستقبلون ضيوفهم في سامراء شمالي العاصمة ويعرضون امامهم اعدادا كبيرة من الطيور الميكانيكية ترفرف بجوانحها وتغرد.

ان التماثيل والدمى المتحركة عند العرب ظلت محفوظة بين صفحات الكتب والمجلات، تنتقل من صفحة الى اخرى على ألسنة المؤرخين ولم تستطع الظهور الى حيز الوجود الا في اواخر القرن الرابع عشر لان جميع المخطوطات التي تصفها وصفا حسيا او تصف كيفية عملها ضاعت ولم يبق منها سوى اثنين احدهما لابناء موسى بن شاكر واخرى لبديع الزمان ابن الرزار الجزري.

اقدم مخطوطة في علم الحيل عند العرب هي مخطوطة ابناء موسى بن شاكر **كتاب الحيل**[٣]



الشكل رقم (٨)

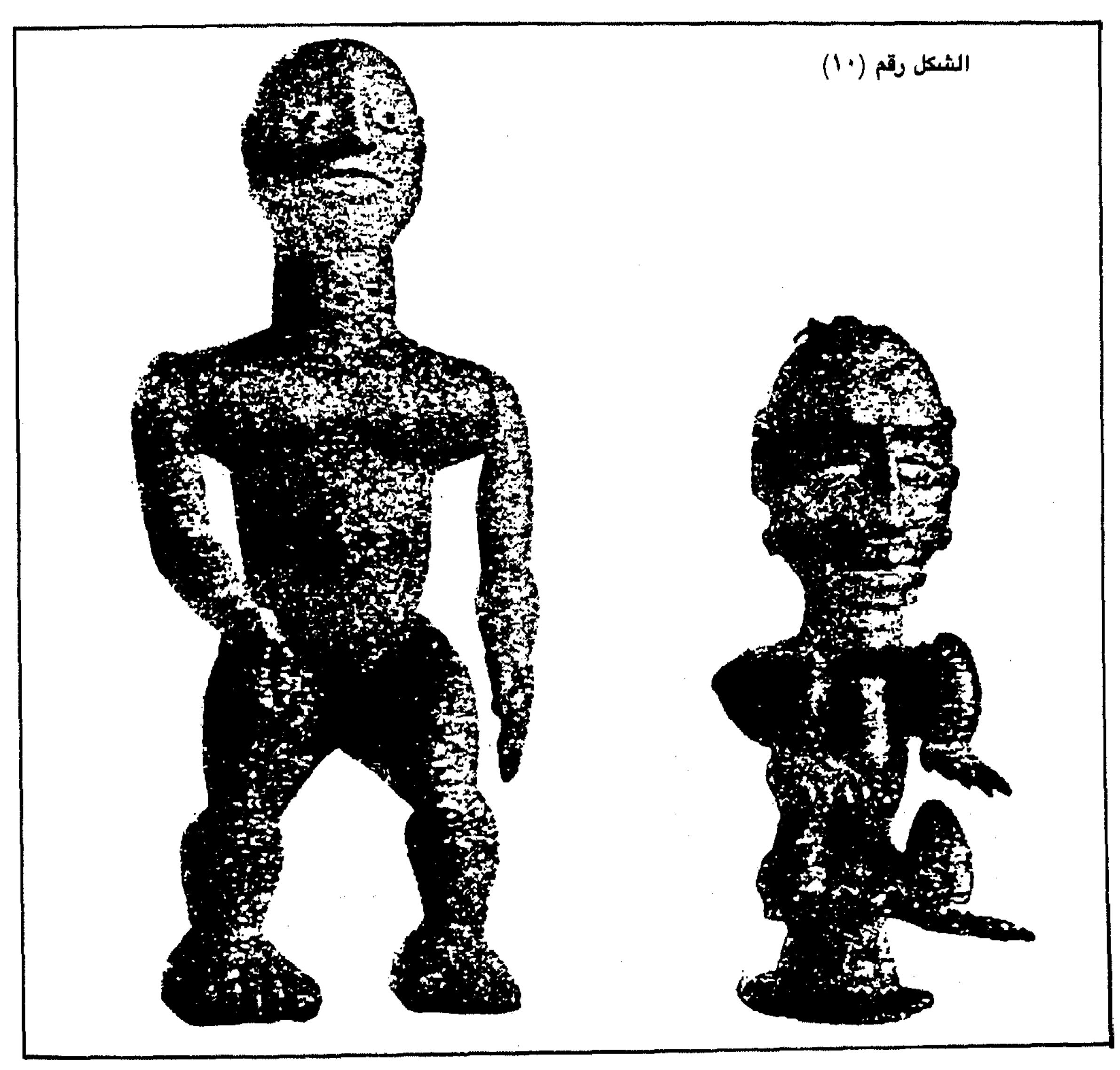
فقد اهتم الاخوة بعرض للاواني التي تستعمل في عصرهم بطريقة فنية وحيل غريبة تدهش الناظر اليها حتى يخيل اليه وكأنه امام مشعوذ ماهر.

اما المخطوطة الثانية، لهؤلاء الاخوة والتي تحتوي على اهم الاسس العلمية الحديثة للتماثيل المتحركة فهي **مخطوطة الآلة التي تزمر بنفسها**[٤]. لم يكتف ابناء موسى بوصف الآلة التي تزمّر بل هناك مقطعان مهمان يصفان التماثيل المتحركة بصورة دقيقة حتى انهم استطاعوا تحريك اصابع التمثال لا يده بالاجمال فحسب كما فعل سلفهم هيرون الاسكندري وهنا يظهر التقدم التقني.

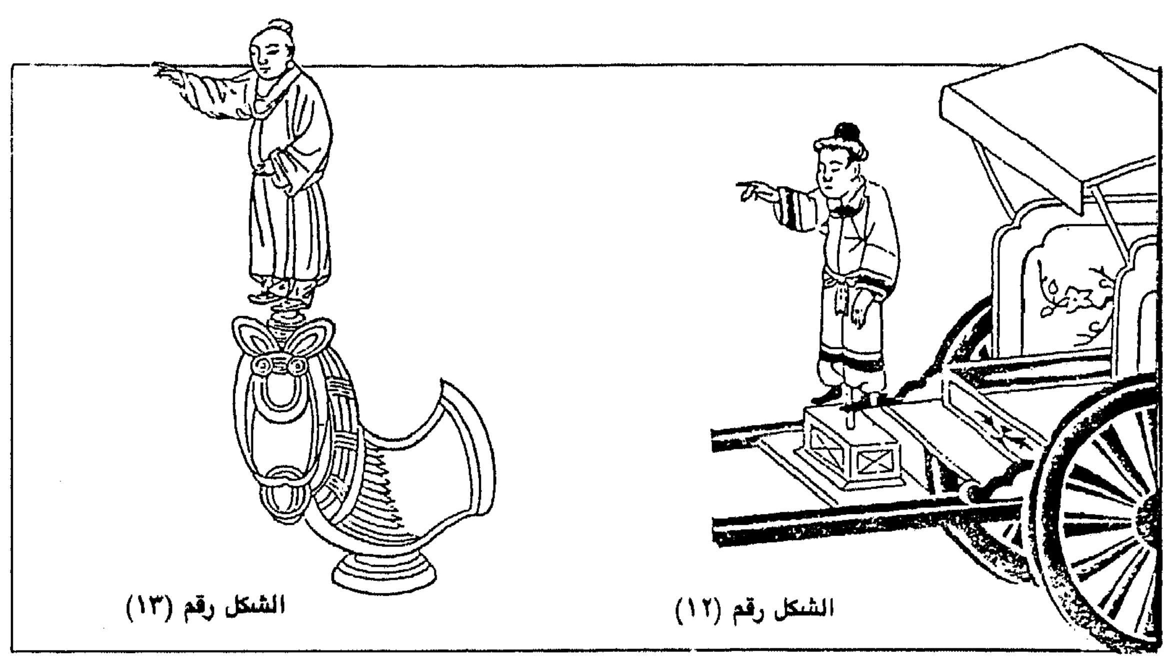
الشكل رقم (٩)

المقطع الأول

«واذا اردنا ان نتخذ ذلك في صورة انسان، فانا نصير هذه الآلة كلها مستورة في داخل بدن تمثال او في موضع اخر ويظهر السرناي وهو مركب في فم التمثال وتجعل تلك المساطر التي على طرفها الابواب وهي التي تسد وتفتح ثقب



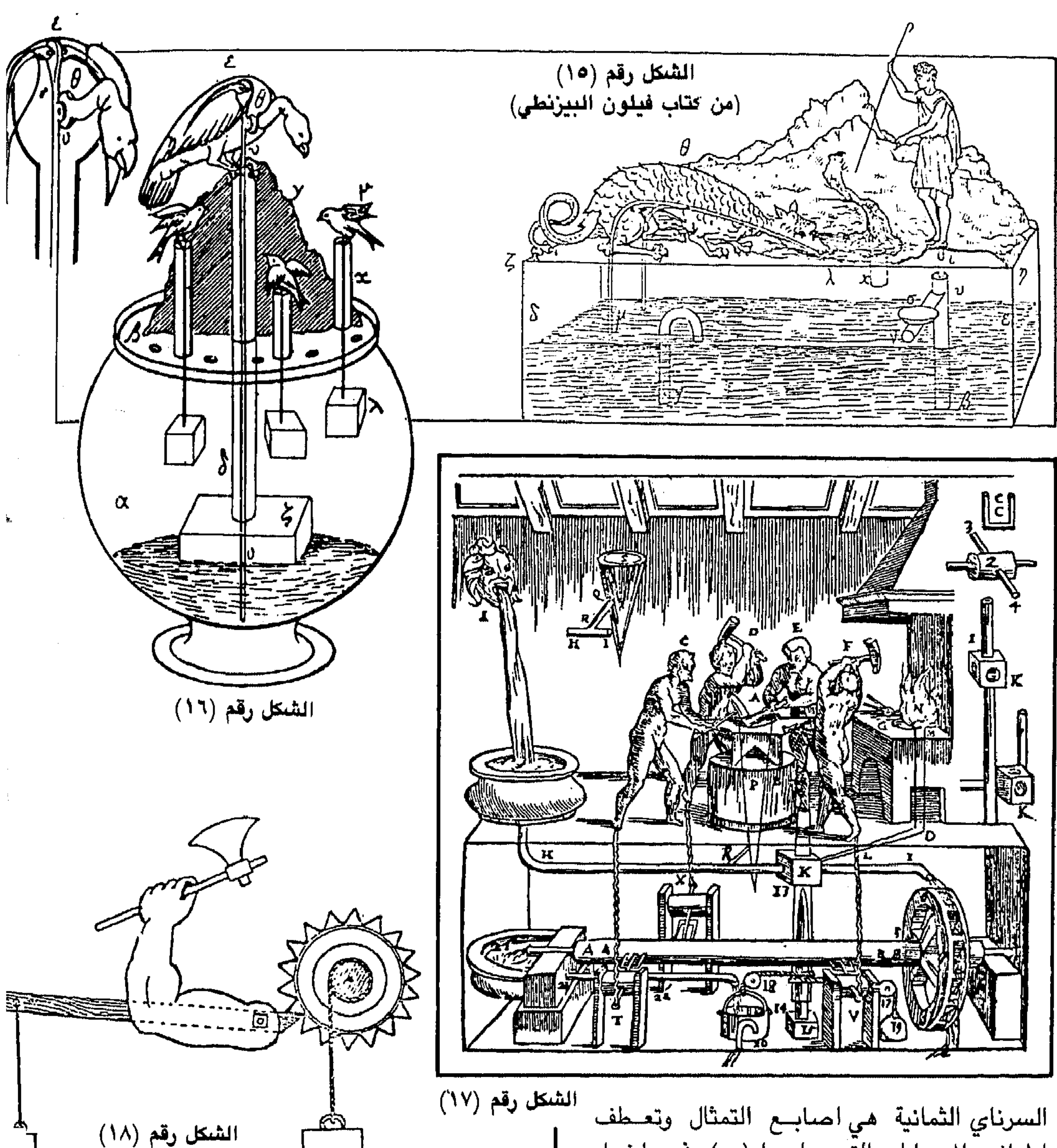
الشكل رقم (١٠)



الشكل رقم (١٢)

الشكل رقم (١٣)

الشكل رقم (١٤)



الشكل رقم (١٥)
(من كتاب فيلون البيزنطي)

الشكل رقم (١٦)

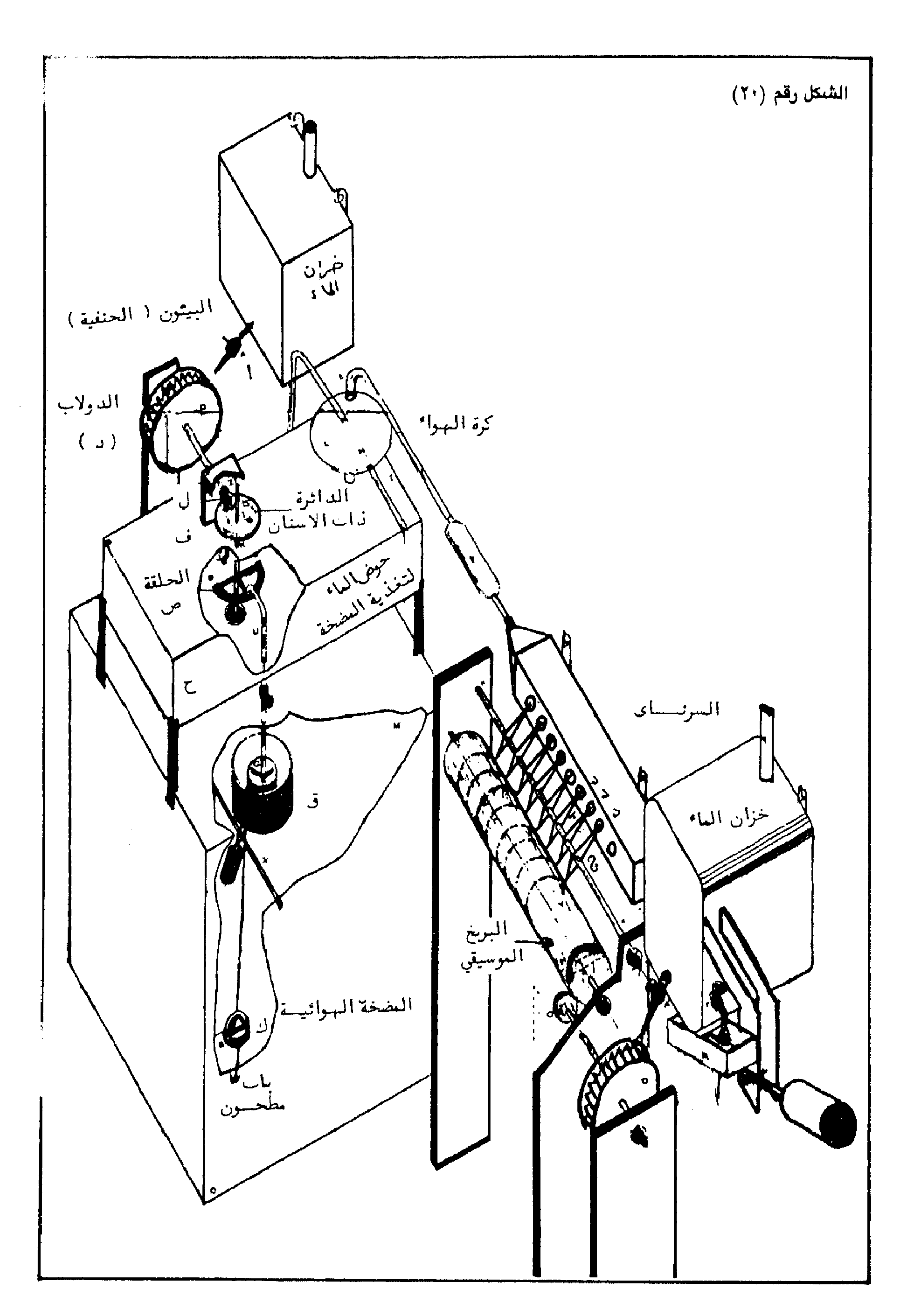
الشكل رقم (١٧)

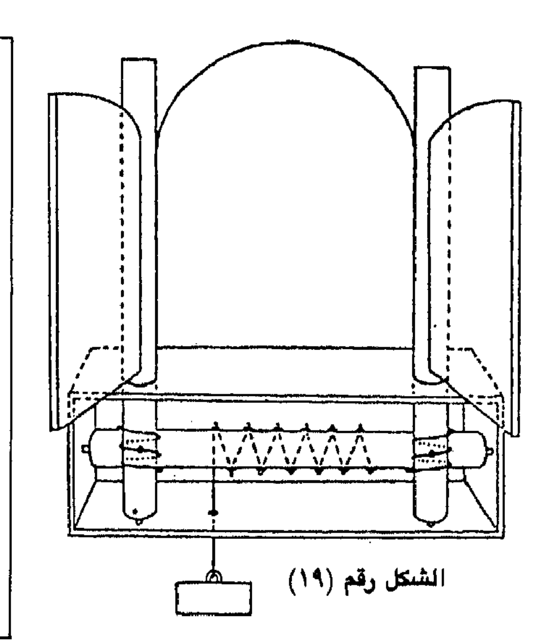
الشكل رقم (١٨)

السرناي الثمانية هي اصابع التمثال وتعطف اطراف المساطر التي عليها (د) في داخل ساعدي التمثال حتى تنتهي الشظايا على بربخ (هـ) داخل التمثال لكي لا يظهر من جميع الآلة الا السرناي فقط واصابع التمثال المشكلة بالاصابع فاذا اطلقنا في الآلة الماء وصيرنا مسكن الريح الى فم التمثال وخرج من الحبة وادى الصوت في السرناي ثم تحركت الاصابع على الرناي كما وصفنا فقد زمر التمثال تلك الالحان التي الفناها كما يزمرها الانسان الزامر ويخفف ايضا ايقاع اللحن ويثقله وينتقل من لحن الى لحن كما وصفنا، وذلك ما أردنا أن نبين».

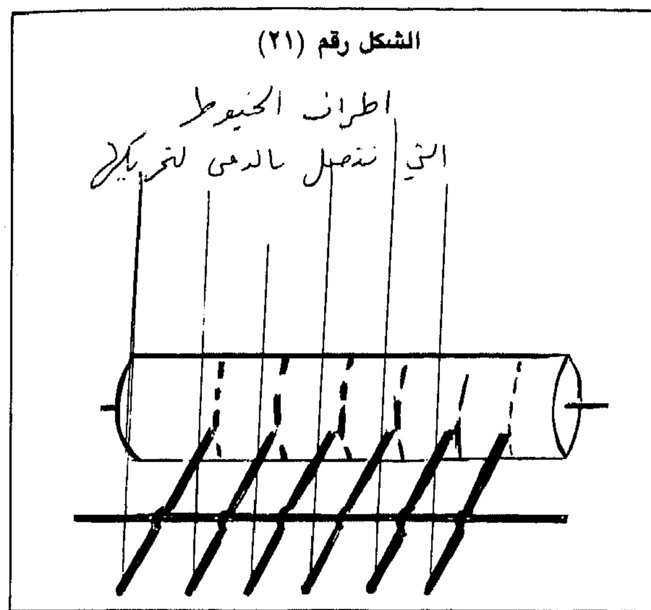
المقطع الثاني

«وعلى هذا المسلك بعينه، قد يستقيم ان نعمل صنما يضرب بالعود او بآلة ذات اوتار كالعازف فيتبع احد الصحنين الآخر ويتبع الزمر للوتر ويتبع الوتر للزمر ويجوز ايضا ان نتخذ تماثيل اصنام ترقص وتتبع هذا الزمر وهذه الاوتار والحيلة في ذلك اجمع كالحيلة في الزمر حتى تدوم النغمة الواحدة من الأوتار مع كل نغمة للزمر اذا انتهت النوبة.


الشكل رقم (٢٠)
خزان الماء
البيثون (الحنفية)
الدولاب
(د)
كرة الهواء
الدائرة
ذات الاسنان
حوض الماء
لتغذية المضخة
الحلقة
ص
ق
السرناى
خزان الماء
البريخ
الموسيقي
المضخة الهوائية
باب
مطحون



الشكل رقم (١٩)



الشكل رقم (٢١)

لقد ترجمنا المقطع الاول بالشكل رقم (٢٠) والمقطع الثاني بالشكل رقم (٢١).

وفي هذين الشكلين يظهر بوضوح التطور التقني الذي توصل اليه ابناء موسى بن شاكر في هذه المخطوطة. لتحديد هذا التطور واهميته لا بد لنا من مقارنة طريقة تحريك التماثيل عند هيرون وعند أبناء موسى.

ــ لقد استعمل هيرون لتحريك أعضاء واطراف تماثيله البربخ ذات الشظايا (Le Cylindre pointe) لكنه لم يستعمل معه المساطر التي تتحرك بواسطة الشظايا كما فعل ابناء موسى، بل اكتفى بالحبل والثقل المتدلي في طرفه.

ــ لقد ثبت هيرون عددا محددا جدا من الشظايا على البربخ واستعملها لتثبت الحبال بينما وزع ابناء موسى عددا كبيرا من هذه الشظايا بطريقة فنية وفقا لترتيب نغمة موسيقية معينة. فاصبحوا بذلك اول من استعمل البربخ الموسيقي الذي هو اساس الموسيقى الميكانيكية والمعروف حاليا بـ (Cylindre musical) والذي يستعمل في جميع العلب والدمى الموسيقية في عصرنا الحاضر.

ــ لقد اعتمد هيرون على الحبال والاثقال لادارة البربخ بينما استعان ابناء موسى بقوة ثقل الماء على الدولاب ذي الزردات الذي يدير البربخ بواسطة الدوائر ذات الاسنان (Systeme d'engrenage) فاصبحت بذلك حركة البربخ حركة دائرية بسرعة مستوية، هنا ايضا تظهر المقدرة التقنية عند هؤلاء الاخوة.

ــ لقد اعطى هيرون ليد الحداد حركة اجمالية اما ابناء موسى بن شاكر فقد اعطوا للزامر حركة مفصلية، اذ ان لكل اصبع حركته المناسبة وفقا لنغمة موسيقية معينة.

مجمل القول، ان ابناء موسى اظهروا في هذه المخطوطة مقدرة فنية وبراعة تقنية فاقوا بها جميع الحضارات التي سبقتهم.

هذا ما انجزه الاخوة الثلاثة في حقل التماثيل والدمى المتحركة في القرن التاسع الميلادي. ●

الهوامش

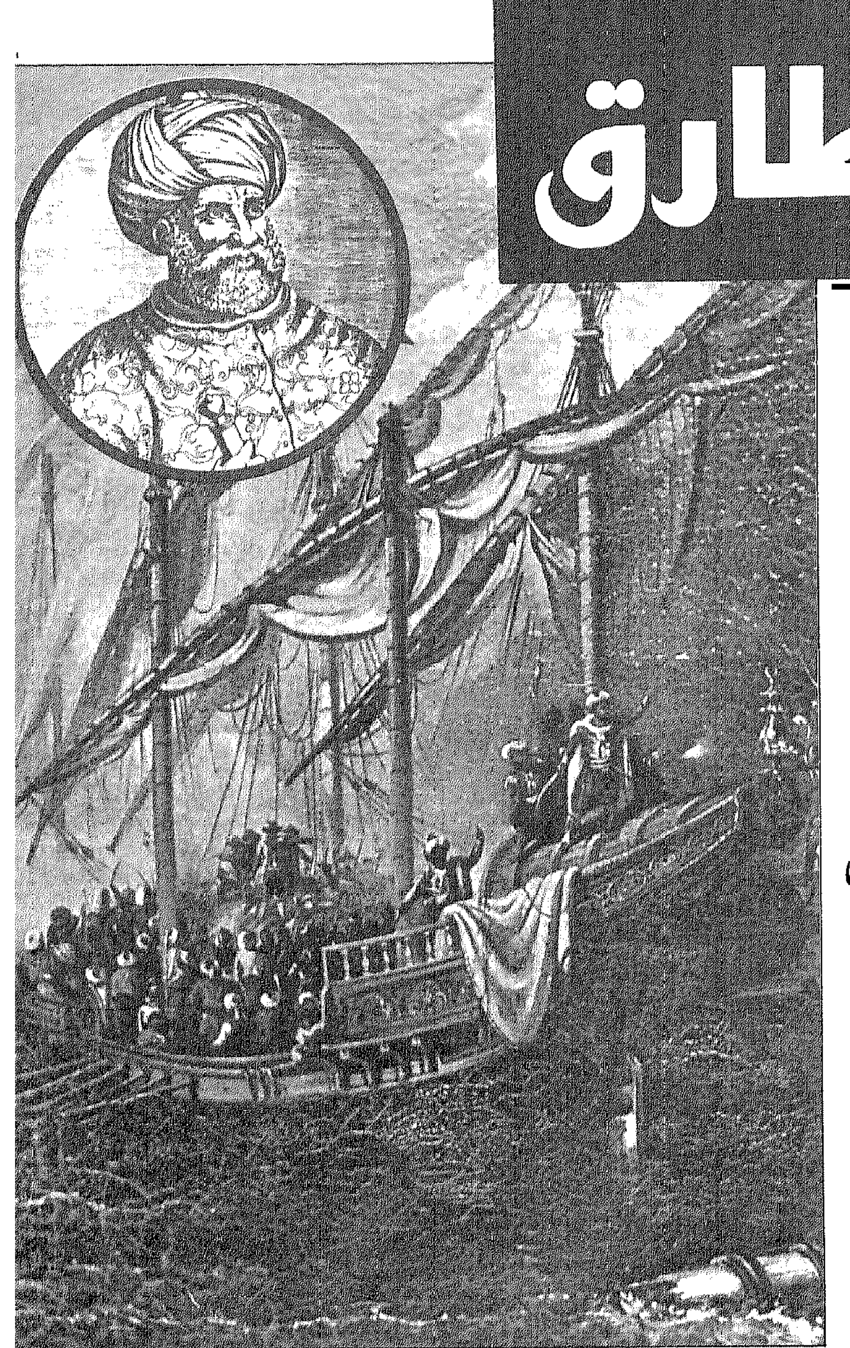
(١) هنود الهوبي (Hopi) سكان بلاد الاريزونا (Arizona) في الولايات المتحدة وهي ليست بالبعيدة عن الكولورادو (Colorado).

(٢) تذكر هنا ان في الخرائط الجغرافية القديمة لبلاد الصين سهمان يظهر الجنوب في اعلى الخارطة والشمال في اسفلها.

(٣) راجع العدد ٤٩، في هذه المجلة.

(٤) راجع العدد ٣٩، من هذه المجلة.

جبل طارق


خير الدين بربروسا.. مزوع المتوسط.

جبل الفتح

معقل إسلامي عبر القرون الوسطى (٩٢-٨٦٦هـ) (٧١١-١٤٦٢م)

الحلقة الثانية والأخيرة

د. أمين توفيق الطيبي

نظرا للنقص الذي نعانيه في المشرق العربي في ميدان الدراسات التاريخية المتعلقة بالمغرب العربي، ورغبة في سد هذا النقص بالنسبة للقارىء الشرقي، فاننا نستأذن «مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي» في ان نقتبس الدراسة القيمة للدكتور أمين توفيق الطيبي في موضوع جبل طارق عن مجلة المركز «مجلة البحوث التاريخية» العدد الأول، يناير ١٩٧٩م وان نعيد نشرها في مجلة «تاريخ العرب والعالم» وذلك تعميما للفائدة واسهاما في توسيع نطاق قراءة الدراسات التاريخية عن المغرب العربي.

جبل طارق في عهد بني مرين وبني الاحمر



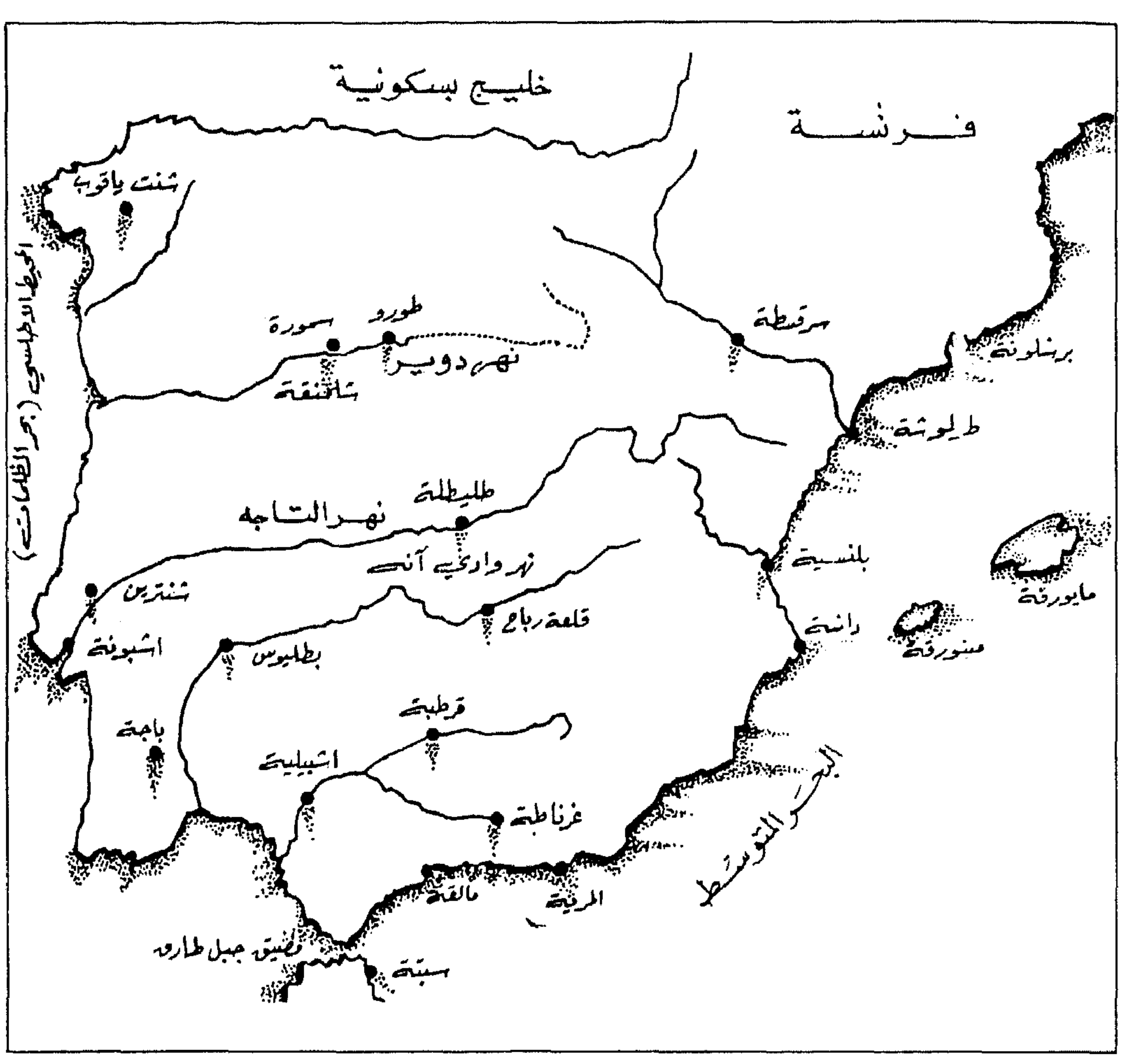
انتهى حكم الموحدين في الاندلس عمليا سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م، وظهر امراء مستقلون هنا وهناك، اهمهم ابن هود الذي تمكن في وقت ما من السيطرة على معظم شرق الاندلس وجنوبها. وفي شهر رجب سنة ٦٢٨هـ/ مايو ١٢٣١م «مَلَكَ ابن هود جبل الفتح والجزيرة الخضراء، ولم يَبْقَ للموحدين بالاندلس امر ولا نهي»(١). وفي هذه الاثناء، اتحدت مملكتا قشتالة وليون، فازداد النصارى قوة، وفي عهد ملكهم فيرناندو/ فرديناند الثالث، سقطت في ايديهم حواضر الاندلس وقواعدها الكبرى. كقرطبة واشبيلية وجيان، كما سقطت بلنسية في يد ملك اراجون جيمس الاول. وفي هذه الفترة الموءسية في تاريخ الاندلس، استقل في جيان بادىء الامر محمد بن يوسف بن نصر الملقب بالاحمر، ثم استولى على غرناطة واتخذها سنة ١٢٣٥م عاصمة له، وهو مؤسس اسرتها الحاكمة المعروفة ببني الاحمر او بني نصر. وكان ابن نصر هذا مضطرا لمداراة فرديناند الثالث للاحتفاظ بمملكته، لا بل وكان يدفع له ضريبة سنوية ويساعده في حروبه حتى ضد المسلمين. وظلت سياسة ملوك بني الاحمر ــ كملوك الطوائف من قبلهم ــ تقوم على ابقاء التوازن بين القوى المتصارعة في الاندلس للاحتفاظ بمملكتهم. فهم تارة يستعينون بسلاطين المغرب ضد النصارى اذا ازداد خطر هؤلاء عليهم، وتارة يستعينون بالنصارى ضد سلاطين المغرب اذا قوي هؤلاء وسيطروا على جزء من الاندلس.

ولما ازداد خطر النصارى على غرناطة اضطر سلطانها محمد الفقيه (حَكَم ٦٧١ ــ ٧٠١هـ/ ١٢٧٣ ــ ١٣٠٢م)، وبضغط من النازحين المسلمين من قشتالة، الى استدعاء السلطان المريني ابي يوسف يعقوب (حَكَم ٦٥٦ ــ ٦٨٥هـ/ ٥٨ ــ ١٢٨٦م). فعبر ابو يوسف بحر الزقاق اربع مرات، وكان جوازه الاول في شوال ٦٧٣هـ/ ابريل ١٢٧٥م، واستولى على الجزيرة الخضراء ثم احرز انتصارا كبيرا على القشتاليين قرب استجّة في ١٥ ربيع اول ٦٧٤هـ/ ٨ سبتمبر ١٢٧٥م. وعلى الاثر تبدل موقف سلطان غرناطة من السلطان المريني بعد ان احتفظ هذا بثغر طريف لاتخاذه قاعدة لنزول قواته، فتحالف مع النصارى ومع امير تلمسان يغمراسن الزياني، ليعمل هذا على اشغال المرينيين والحيلولة دون تدخلهم في شؤون الاندلس(٢).

ومما يُذكر، ان المسلمين اتخذوا جبل طارق اثناء عملياتهم الحربية ضد النصارى محطة لحمام الزاجل لنقل الاخبار على وجه السرعة. «وكان اهل الجزيرة... يحيط بهم العدو برا وبحرا... وانقطعت عنهم المداد وعميت عليهم الانباء الا ما يأتيهم به الحمام من جبل طارق... يحمل اليهم الكتاب ويرد عليه الجواب»(٣).

خلف ابا يوسف ابنه ابو يعقوب يوسف (حكم ٦٨٥ ــ ٧٠٦هـ/ ١٢٨٦ ــ ١٣٠٦م)، وفي عهده ساءت من جديد العلاقات بينه وبين السلطان محمد الفقيه الذي تحالف مع ملك قشتالة دون شانجة (Don Sancho)، وحاصر معه طريف التي اضطرت الى الاستسلام بعد حصار دام اربعة شهور (رمضان ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م) واحتفظ بها ملك قشتالة ولم يُعِدْها لسلطان غرناطة كما كان قد وعده. فعاد سلطان غرناطة الى سياسته المتذبذبة، وتحالف مع أبي يعقوب ولكنهما لم ينجحا في استرداد طريف لانشغال السلطان المريني بمحاربة امير تلمسان.

واثر هجوم مباغت استولى ملك قشتالة فردیناند الرابع على جبل طارق (٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م)، مع انه اضطر الى رفع الحصار الذي كان يضربه على الجزيرة الخضراء. يقول ابن خلدون: «وكان الطاغية قد اخذ جبل الفتح سنة تسع وسبعمائة [١٣٠٩م] وجاورت النصرانية به ثغور الفرضة، وصار شجى في صدرها، واهم المسلمين شأنه»(٤). وكان من نتيجة استيلاء النصارى على جبل طارق بعد استيلائهم على طريف قبل ذلك بعشرين عاما ان ابرم سلطان غرناطة نصر ابو الجيوش (حَكَم ٧٠٨ ــ ٧١٣هـ/ ١٣٠٩ ــ ١٣١٤م) معاهدة مع السلطان المريني ابي الربيع سليمان (حَكَم ٧٠٨ ــ ٧١٠هـ/ ١٣٠٨ ــ ١٣١٠م) تخلى له بموجبها عن الجزيرة الخضراء، في مقابل الحصول



على تعزيزات مغربية. وفي عامي ١٣٢٧م و١٣٣٠م، استولى الفونش الحادي عشر على عدة معاقل غربي غرناطة، ففزع سلطان غرناطة لذلك، وتوجه بنفسه الى فاس للاستغاثة بأبي الحسن المريني، الذي هب لنجدته(٥)، وعن ذلك يحدثنا ابن خلدون فيقول: «فبادر السلطان محمد بن اسماعيل [الرابع] بن الأحمر بزيارة السلطان ابي الحسن في فاس سنة ٧٣٢ [١٣٣٢م] للمفاوضة في امر الجهاد... وشكا اليه حال الجبل واعتراضه شجى في صدور الثغور»(٦). فعقد ابو الحسن لابنه ابي مالك على خمسة الاف من انجاد بني مرين، وانفذهم مع ابن الاحمر لمنازلة جبل الفتح، «فنزل المسلمون بالجزيرة الخضراء، وزحفوا جميعا الى الجبل واحاطوا به ونازلوه، الى ان فتحوه [عنوة] سنة ٧٣٣ [١٣٣٣م] وشرع المسلمون في شحنه بالأقوات... ووصل الطاغية بعد ثلاث [ليال] من فتحه، فاناخ عليه وحاصره، وبرز ابو مالك بعساكره من الجزيرة فنزل بأزائه، وزحف ابن الأحمر فنزل بأزائه ايضا، ثم خاف ابن الأحمر عادية العدو، لقُرب العهد بارتجاع الجبل، وخفة مَنْ به من الحامية والسلاح، فبادر الى لقاء الطاغية... [فاجابه] الى ما سأل من الافراج عن هذا المعقل... وارتحل من فوره، وشرع أبو مالك في تحصين ذلك الثغر»(٧).

وكان استرجاع ابي الحسن المريني لجبل طارق من ايدي الروم بعد تملكهم له عشرين سنة ونيفا (٧٠٩ ــ ٧٣٣هـ/ ١٣٠٩ ــ ١٣٣٣م)، وكان فتحه بعد حصار ستة اشهر(٨). وكان على حد قول ابن خلدون «فتحا

طوّق دولة السلطان ابي الحسن قلادةَ الفخر اخر الايام»(٩).

لم ترضَ بعض العناصر المتنفذة في غرناطة عن عودة بني مرين واستيلائهم على جبل طارق، ونقمت تلك العناصر لذلك على السلطان محمد الرابع لدعوته لبني مرين الى الاندلس، فاغتيل السلطان ونُصب اخوه يوسف الاول مكانه.

وقد اكدت دروس الماضي اهمية غلق مضيق جبل طارق نهائيا، خصوصا وان المرينيين سيطروا الآن على جبل طارق والجزيرة الخضراء معا، واتموا في الوقت ذاته السيطرة على سجلماسة وتلمسان، واصبحوا يتأهبون لمعاودة الجهاد في الاندلس.

وفي خريف عام ١٣٣٩م، هُزم ابن السلطان المريني وقتل في ساحة القتال، الا ان اسطولا مغربيا نجح في العام التالي في تدمير اسطول قشتالي ارجوني مشترك في مضيق جبل طارق، وتمكن السلطان من نقل جيش لا يستهان به من العدوة الى الاندلس، وشرع ــ بمعاونة سلطان غرناطة يوسف الاول ــ في محاصرة ثغر المجاز الثالث طريف في شهر ذي الحجة ٧٤٠هـ/ يونيو ١٣٤٠م. وفي هذه الاثناء كان ملك قشتالة الفونس الحادي عشر يستغيث بالبابا لاعلان حملة صليبية ضد المسلمين، وتقديم العون المالي له، فاستجاب للدعوة فرسان كثيرون من نافارة (نبرّة) وارجون وفرنسا وبلدان شمال اوروبا. كان ذلك بعيد انتصار الاتراك العثمانيين في عدد من المواقع على الروم البيزنطيين وتهديدهم للقسطنطينية واستغاثة امبراطورها كذلك بالبابا ودول غرب اوروبا المسيحية ضد الاتراك.

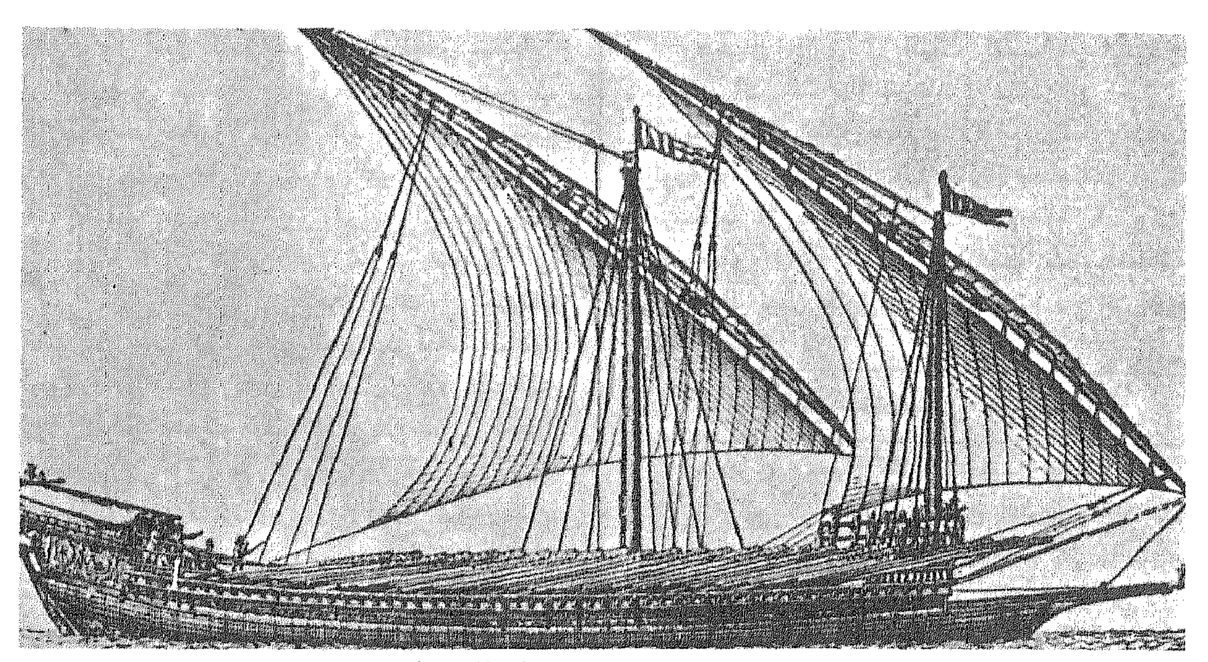
ولما تقدمت قوات النصارى لملاقاة المسلمين المحاصرين لطريف، فك هؤلاء الحصار ولاقوا العدو على ضفاف نهر سلادو (Salado) في ٢٧ ربيع الثاني ٧٤٠هـ/ ٣٠ اكتوبر ١٣٤٠م، واحرز النصارى في موقعة طريف هذه نصرا حاسما واعتبروه مضاهيا للنصر الكبير الذي كان النصارى قد احرزوه قبل قرن ونيف ضد الموحدين في وقعة العقاب (La Navas de Tolosa) سنة ٦٠٩هـ/ ١٣١٢م. وبعد هذه الهزيمة التي مُني بها المرينيون، لم يحاولوا القيام بحملة كبيرة في الاندلس. وينظر المؤرخون الاسبان الى وقعة طريف على انها تمثل نقطة تحول هامة في تاريخ ما يسمونه بحرب الاسترداد (Reconanista)، فان احتفاظهم بجبل طارق اصبح بعد وقعة طريف امرا حيويا، بعد فُقدانهم للجزيرة الخضراء وطريف، للاحتفاظ بخطوط مواصلاتهم بين المغرب والاندلس.

وعاود ملك قشتالة الفونس الحادي عشر حصار جبل طارق حصارا شديدا وكاد ان يستولي عليه، لولا هلاكه بالطاعون، وهو الوباء المعروف في التاريخ باسم (الموت الاسود) والذي اجتاح في منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي منطقة حوض البحر المتوسط وغرب اوروبا محدثا خسائر جسيمة في الارواح ومخلفا اثارا اقتصادية سيئة. ويذكر الفقيه الغرناطي ابن الحسن النُباهي «هلاكَ ملك النصارى المسمى بألفُنس... وهو بظاهر جبل الفتح حاصرا له، وذلك في عاشر المحرم من عام خمسين وسبعمائة [٣١ مارس ١٣٤٩م]»(١١).

وقد بعث الوزير والاديب الغرناطي لسان الدين بن الخطيب برسالة باسم سلطانه [يوسف الاول] الى سلطان فاس ابي عنان فارس، ينقل اليه الخبر السار ومنها «نكث طاغية قشتالة العهد الذي عقده... وامل ان يستولي على جبل الفتح... فضيقه حصارا... ونزل الفرجُ القريب... وطرق الطاغية جند من جنود الله تولى اخذه اخذة رابية... فهلك على الجبل حتف انفه... فتفرقت جموعه واحزابه... ورأينا ان هذه البشارة انتم اولى مَنْ نُتحفه بطيب رياها»(١٢).

وكان السلطان ابو الحسن قد حصن سفح الجبل، بعد استرداد المسلمين له سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م، «بسور محيط من جميع جهاته، حتى لا يطمع عدو في منازلته... فأحاط بمجموعه احاطة الهالة بالهلال»(١٣).

وفي عام ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م، زار جبل طارق الرحالة المعروف ابن بطوطة، وترك لنا في (الرحلة) وصفا شيقا لما كان عليه الجبل انذاك في عهد بني مرين. يقول ابن بطوطة: «واول بلد شاهدته من البلاد الاندلسية جبل الفتح... وتطوفت [صحبة قاضيه] على الجبل، فرأيت عجائب ما بنى به مولانا أبو الحسن... واعد فيه من العُدد... وما زاد على ذلك مولانا



إحدى سفن بربروسا تمخر عباب المتوسط.

[ابو عنان]... ووددت أني كنت ممن رابط به الى نهـاية العمـر»(١٤). ويتحـدث ابن بـطوطة عن تحصينـات الجبـل ممـا احـدثـه السلطان ابو الحسن علي وابنه السلطان ابو عنان فارس، فيقول: «وبقايا السور الذي بناه [طارق] ومن معه باقية الى الآن تسمى بسور العرب، شاهدتها ايام اقامتي به... ولم يكن حينئذ على ما هو الان عليه، فبنى به مولانا ابـو الحسن، رحمة الله عليه، المأثرة العظمى بأعلى الحصن، وكانت قبل ذلك برجا صغيرا تهدم بأحجار المجانيق، فبنى في مكانه، وبنى دار الصناعة، اي صناعة السفن ولم يكن به دار صنعة، وبنى السـور الأعظم المحيط بالتربة الحمراء المعروف اليـوم بنفس الاسم (Red sands)... ثم جدد [ابنه] ابو عنان تحصينه وتحسينه، وزاد بنـاء السور بـطرف الفتـح(١٥) [المعروف اليـوم باسم Entropa Point)]، وهو اعظم اسواره غناء... وبعث اليه العدد الوافرة والاقوات والمرافق العامة»(١٦).

وبلغ من اهتمام السلطان ابي عنان فارس (حَـكَـم ٧٤٩ ــ ٧٥٩هـ/ ١٣٤٨ ــ ١٣٥٨م) بأمور الجبل «ان امر... ببناء شكل [نموذج] يُشبه شكل الجبل المذكور، فمثّل فيـه اشكال اسواره وابراجه وحصنه وابوابه ودار صنعته ومساجده ومخازن عدده واهرية [مخازن] زرعه وصورة الجبل وما اتصل به من التربة الحمراء فصُنع ذلك... فكان شكلا عجيبا اتقنه الصُنّاع اتقانا يعرف قدره من شاهد الجبل وشاهد هذا المثال(١٧).

ولما فر الوزير ابن الخطيب من غرناطة لاجئا من مكائد خصومه الى المغرب عام ٧٧٣هـ/ ١٣٧١م، كـان جبل طارق مـا يزال في ايـدي سلاطين بني مرين، اذ يقول: «وتيسر اللحاق ببلاده [سلطان المغرب] والحصول بجبل الفتح من إيالته والجواز الى سبتة غرة جمادي الأخير من سنة ثلاثة وسبعين وسبعمائة [١٠ ديسمبر ١٣٧١م] في اسطوله»(١٨).

وبعد فرار ابن الخطيب بعامين، انتهز سلطان غرناطة محمـد الغني بالله [محمـد الخامس] نشوب خلافات داخلية حول وراثة العرش في المغـرب، للتدخـل في شؤون المغـرب ولاجـلاء الحـامية المغـربية عن جبـل طارق. وفي عـام ٨١٣هـ/ ١٤١٠م قامت ثورة بالجبل لصالح بني مرين، الا ان سلطان غرناطة ابا الحجاج يوسف [يوسف الثالث] تمكن من استرداده.

وفي سنة ١٤١٥م استولى البرتغاليـون على سبتة، فاصبحت لهم اول قـاعدة في افـريقيا واصبح بامكانهم التوغل في القارة او شن هجوم على جبل طارق عبر بحر الزقاق.

وقد ظل جبل طارق مع ذلك في ايدي سلاطين غرناطة نحو خمسين عاما. الا ان الوضع في غرناطة منذ عام ١٤٣٩م ازداد سوءا بسبب المنازعات المستمرة بين افراد البيت المالك، فقرر ملك قشتالة هنري/ انريق الرابع التدخل وبدأ منذ ربيع ١٤٥٥م في شن غارات مدمرة على اراضي مملكة غرناطة، مؤملا بذلك ان ينهار اقتصاد المملكة، ثم انسحب وعهد لقادة مناطق الحدود بمواصلة الغارات. وكان اهم ما حققه قادة الحدود هؤلاء الاستيلاء على جبل طارق، وكان ذلك في ٢٤ ذي القعدة سنة ٨٦٦هـ/ ٢٠ اغسطس ١٤٦٢م، على يد الدوق جوزمان (Duke Guzman) صاحب مدينة شذونة[١٩].

وباستيلاء النصارى على جبل طارق، تمت لهم السيطرة على ثغور بحر الزقاق الثلاثة (طريف والجزيرة الخضراء وجبل طارق) فحال ذلك دون وصول اية قوات من المغرب لنجدة مملكة غرناطة، مما عجل في سقوطها في ايدي النصارى وفي انتهاء الوجود الاسلامي في الاندلس سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م. كما ان سيطرة الاسبان على مضيق جبل طارق ادت الى نمو التجارة بين موانئها على ساحلي البحر المتوسط والمحيط الاطلسي، ولعب اسطول جنوده دورا هاما في هذه المرحلة في معاونة قشتالة في المجالين الحربي والتجاري، خصوصا في استعمار الاسبان لجزر الخالدات (كناري) والازور وماديرا، التي اصبحت محطات لجلب الذهب من السنغال وساحل افريقيا الغربي، بعد ان كان الذهب يصل منهما قبلا الى غرناطة الاسلامية عن طريق تلمسان[٢٠].

وفي عام ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م شن غزاة البحر المسلمون العاملون تحت امرة امير البحر خير الدين بربروسا غارة على جبل طارق، وكادوا يستولون عليه، ودمروا تحصيناته واستحوذوا على غنائم وفيرة، فعمد الاسبان بعد هذه الغارة، الى تعزيز تحصينات الجبل تحوطا[٢١].

وفي عام ١٠١٩هـ/ ١٦١٠م نقلَ الاميرال دون خوان دي مندوزا (Don juan de mendoza) من ميناء جبل طارق المدجَّنين المسلمين الذي اجلوا نهائيا عن اوطانهم في الأندلس الى ساحل المغرب[٢٢].

وجبل طارق في الوقت الحاضر احدى مستعمرات التاج البريطاني منذ ان استولى البريطانيون عليه عام ١٧٠٤م، اثناء حرب الوراثة الاسبانية، وتم تنازل اسبانيا عنه لبريطانيا في معاهدة اترخت عام ١٧١٣. وكما هو معلوم، فان اسبانيا ما انفكّت تلح بالمطالبة باسترداد جبل طارق، على انه جزء من الاراضي الاسبانية.

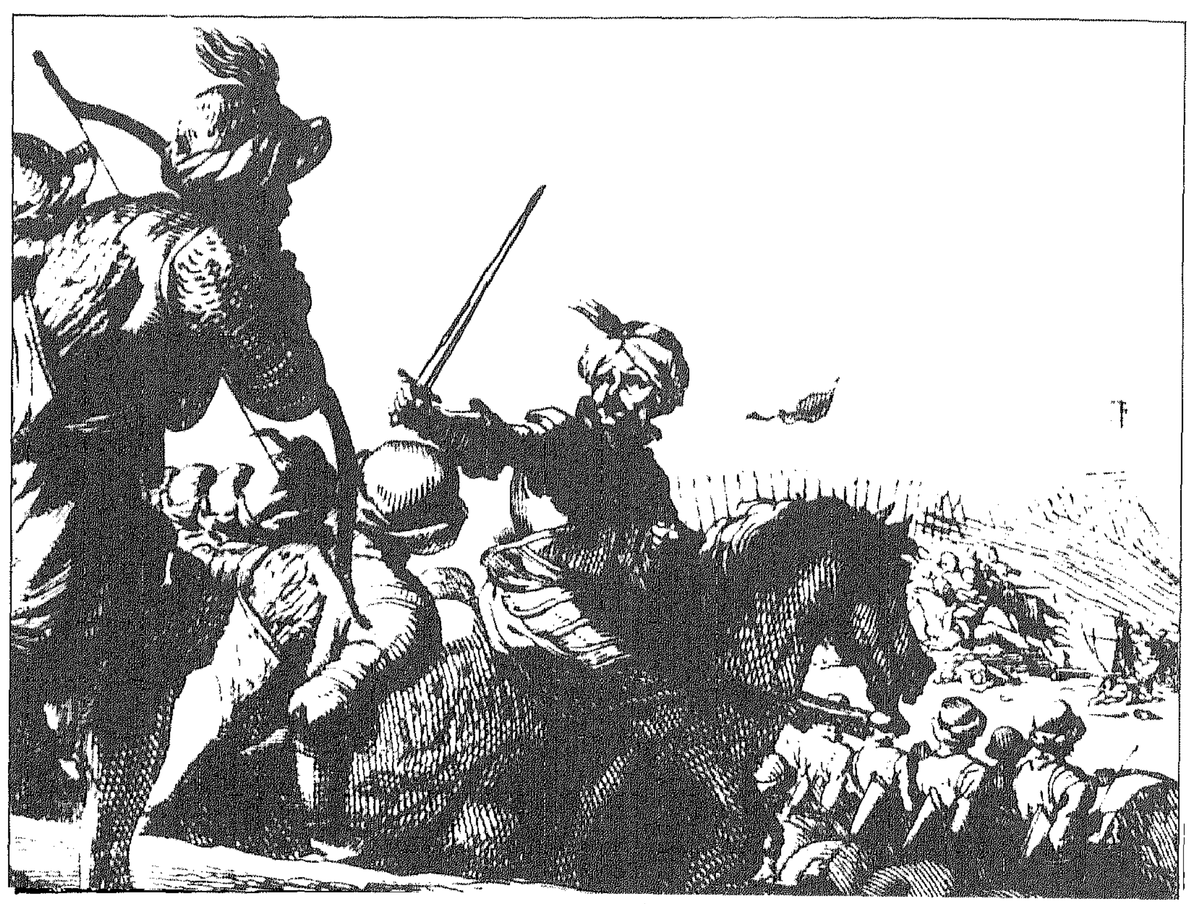
آثار عربية قائمة في جبل طارق

توجد في جبل طارق حاليا بعض الاثار الاسلامية، منها بقايا الحصن العربي (Castle the Moorish)، وهو حصن قائم على السفح الشمالي الغربي من الجبل. ويعتقد الأثريون بان الحصن يعود الى ايام الموحدين (القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي) او حتى الى ايام بني مرين (القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي).

وثمة الحمامات العربية تحت مبنى متحف جبل طارق «وهي عبارة عن صفين من العقود العربية يتكون كل منهما من ثلاثة عقود، وتجمعها قبة منخفضة»[٢٣]. ويرى الاثري الاسباني المعروف توريس بالباس انها من طراز غرناطي شبيه بطراز حمامات قصر الحمراء[٢٤].

اما ما تبقى من «سور العرب» فوق اعلى الصخرة، فيبلغ طوله نحو ١٧٥٠قدما، ويشتمل على ما لا يقل عن ٦٠٠٠ ياردة مكعبة من الحجارة المقتطعة من الجبل[٢٥].

وفي بحث واف[٢٥] نشره هـ.ت. نوريس (H.T. Norris) بعنوان (الاستيطان الاسلامي المبكر في جبل طارق) (The Early Islamic Settement in Gibraltar)، يعتقد الكاتب بأن طارق بن زياد لم يُقِم سوى نقطة رصد او مراقبة صغيرة على احدى قمم الجبل، ثم لم يلبث ان انتقل بعد نحو شهرين من نزوله لملاقاة جيش القوط، ولذلك فان ما تبقى من اثار الحصن والسور يعود الى عهود اسلامية تالية، ويستند نوريس في اعتقاده الى عدة نقاط نوجزها فيما يلي: قِصُر المدة التي امضاها طارق في الجبل، وعدم حاجته لتحصين الجبل بعد انتصاره، قلة عدد جنوده، وكان في حاجة ماسة لهم جميعا في



طارق بن زياد

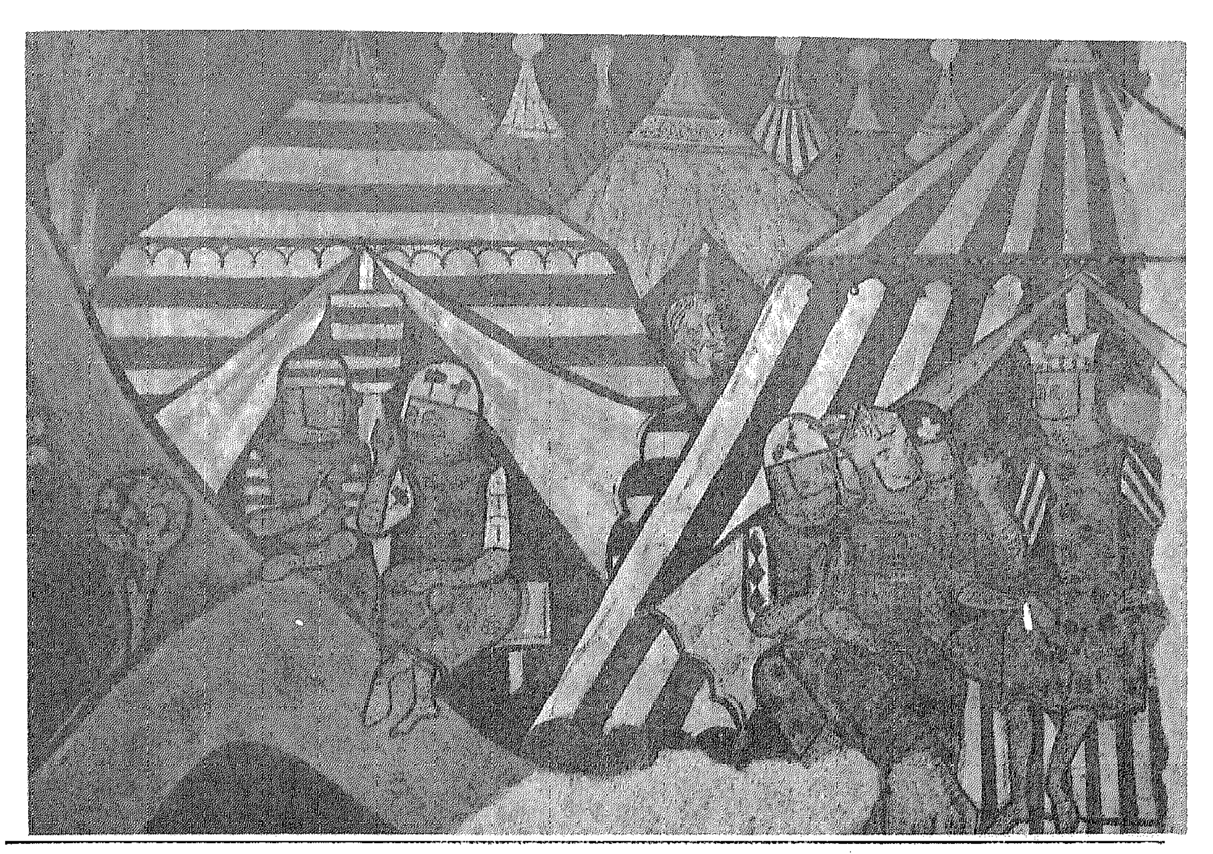
القتال. ثم ان ابن الأثير يقول صراحة «نزل طارق من الجبل الى الصحراء وافتتح الجزيرة الخضراء وغيرها وفارق الحصن الذي في الجبل»[٢٦]. واذا اخذنا في الحسبان انحدار سطح ارض الجبل، وما يحتاج اليه من مواد بناء وعمال ومهندسين، وكذلك التشابه بين مواد بناء السور وبين مواد بناء سور تازا الموحدي، فان كل ذلك يدل على ان الحصن والسور في جبل طارق يعودان الى عهد الموحدين الذين شيدوا مدينة الفتح في مدة ثمانية شهور، وكان يتوفر لديهم الوقت والمهندسون والعمال[٢٧].

وقد قام سلاطين بني مرين بعد استردادهم للجبل من ايدي الاسبان عام ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م باعادة بناء تحصيناته وتقويتها. ولعل ابن بطوطة حينما زار الجبل وشاهد تحصيناته قرب القمة قيل له انها قديمة، وتسميتها بسور العرب انما كانت لمجرد التمييز بينها وبين بقية التحصينات المرينية المستحدثة[٢٨].

ويَخلُص نوريس الى ان كل البينات تشير الى ان جبل طارق لم يُستوطَنْ قبل عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، وانما اقتصر استعماله كقاعدة حربية ومرسى ونقطة لانزال الجنود[٢٩]. ومما يؤيد ذلك، ما أمر به المعتضد بن عباد واليه على الجزيرة الخضراء من تحصين الجبل تحوطا من خطر نزول قوات المرابطين فيه، وكذلك ما عرضه المعتمد بن عباد عى المرابطين من النزول في جبل طارق دون الجزيرة الخضراء.

نقشان عربيان من جبل طارق

يذكر توماس جيمس (Thomas James) (تاريخ المضيق الهرْقْلي (The history of the Herculeam Straits) المنشور عام ١٧٧١م انه عُثر انذاك على نقشين كتابيين عربيين: احدهما فوق الباب الجنوبي للحصن، والثاني في جدار مسجد او رباط قرب برج قلهرة. وقد استعان جيمس باحد المغاربة من طنجة لقراءة



ملك «اراغون» المسيحي يحيط به جنده، يخططون لإحتلال «ميورقه».

الكتابة العربية في النقشين، واورد ترجمة انجليزية لها. ويبدو ان العبارة الاولى في النقش الاول هي: «النصر والتمييز من الله تعالى لمولانا ابي عبد الله امير المسلمين ابن أبي الحجاج يوسف أمير المسلمين ابن مولانا ابي الوليد أبقاه الله». أما بقية عبارة النقش فكتابتها غير مقروءة(٣٠). ويرى الأثري الاسباني المعروف نوريس بالباس ان السلطان المشار اليه هو دون شك سلطان غرناطة يوسف الاول ابو الحجاج بن أبي الوليد بن أبي سعيد فرج (حَكَم ٧٣٣ ــ ٧٥٥هـ/ ١٣٣٣ ــ ١٣٥٤م)(٣١).

وتدل اسماء سلاطين بني الاحمر الواردة في النقش الاول على مدى أثر غرناطة في عهد بني الاحمر على المنشآت العسكرية والمدنية في جبل طارق منذ ان استرده المسلمون من الاسبان سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م(٣٢).

اما النقش الثاني، وهو اقدم من الاول بكثير، كما يستدل من كتابة حروفه، فيشتمل على عبارة دينية تتعذر قراءتها، وقد اورد جيمس في كتابه ترجمة انجليزية لجزء منها وفي اخرها ترد عبارة لعلها: ولله العاقبة الباقية(٣٣).

والنقش الثاني اقدم نقش عربي يُعثر عليه حتى الآن في جبل طارق. ويُحتمل ان يكون المسجد او الرباط الذي وُجد النقش في جداره من بناء عبد المؤمن بن علي ايضا. ولعل السلطان المريني الذي احدث تغييرات كبيرة على تحصينات جبل طارق في منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي احتفظ بالمسجد او الرباط دون مساس صونا لحرمته(٣٤).

الهوامش

(١) ابن ابي زرع: روض القرطاس ٢٧٥.
(٢) دائرة المعارف الاسلامية (EL)، الطبعة الاولى، المجلد الاول، ص ٤٦٤.
(٣) السلاوي: الاستقصا ٣/٥١: ابن ابي زرع: روض القرطاس ٣٣٠.
(٤) ابن خلدون: العبر ٧/٥٣٠.
(٥) اوكلاهن (O.Callaghan): تاريخ اسبانيا في العصر الوسيط (بالانجليزية)، ص ٤٠٣، ٤٠٩.
(٦) ابن خلدون: العبر ٧/٥٣٠؛ السلاوي: الاستقصا ٣/١٢١.

(٧) السلاوي: الاستقصا ٣/ ١٢١ ــ ١٢٢.
(٨) ابن بطوطة: الرحلة ٦٥١.
(٩) ابن خلدون: العبر ٧/ ٥٣٠.
(١٠) اوكلاهن (OCallaghan): تاريخ اسبانيا في العصر الوسيط ٤١٢ ــ ٤١٣.
(١١) ابن الحسن الباهي: المرتبة العليا (تاريخ قضاء الاندلس)، ص ١٥٦.
(١٢) المقري: نفح الطيب ٦/ ١٧٨.
(١٣) نفس المصدر ٦/ ١٤٠ ــ ١٤١، نقلا عن (المسند) لابن مرزوق؛ السلاوي: الاستقصا ٣/ ١٢٣.
(١٤) ابن بطوطة: الرحلة ٦٥١.
(١٥) يقول المراكشي إن لجبل الفتح طرفا خارجا «في البحر يسمى طرف الفتح، وعنده يلتقي البحران [البحر الشامي وبحر الزقاق] بجزيرة الاندلس». (المعجب، ص ٣٦٨).
(١٦) ابن بطوطة: الرحلة ٦٥١ ــ ٦٥٢.
(١٧) نفس المصدر، ص ٦٥٢، ٦٥٣.
(١٨) ابن الخطيب: اعمال الأعلام ٣١٨.
(١٩) دائرة المعارف الاسلامية (EL2) الطبعة طبعت بالانجليزية، المجلد الثاني، ص ٣٥٣.
(٢٠) هايفيد (Highfieid): اسبانيا في القرن الخامس عشر(بالانجليزية)، ص ٢٠، ٤٨ ــ ٤٩.
(٢١) دائرة المعارف الاسلامية (EL2)، الطبعة الثانية (بالانجليزية)، المجلد الثاني، ص ٣٥٣.
(٢٢) نفس المصدر والصفحة.
(٢٣) عنان: الآثار الاندلسية الباقية... ص ٢٩٢.
(٢٤) نفس المصدر والصفحة.
(٢٥) نوريس (Norris): (الاستيطان الاسلامي المبكر في جبل طارق)، مقالة نشرت في (مجلة المعهد الانثروبولوجي الملكي)، مجلد ٩١ (جزء ١) لعام ١٩٦١، ص ٤٣.
(٢٦) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ٤/ ١٢٢.
(٢٧) نوريس: الاستيطان الاسلامي المبكر في جبل طارق، ٤٣.
(٢٨) نفس المصدر، ٤٤.
(٢٩) نفس المصدر، ٥٠.
(٣٠) نفس المصدر ٤٤.
(٣١) نفس المصدر ٤٦.
(٣٢) نفس المصدر ٤٦.
(٣٣) نفس المصدر ٤٦.
(٣٤) نفس المصدر ٤٨.



قيمة الدنيا

□ مر أمير المؤمنين الرشيد بشيخ الطريقة «الجنيد» وهو يتعبد في مغارة له، فوقف عليه وسلم ثم قال له: عظني. قال: ان لك في نفسك عظة! قال زد. قال: أرأيت يا أمير المؤمنين اذا سرت في صحراء قاحلة في يوم شديد الحر وانقطع عنك الماء وبلغ بك الظمأ مبلغه ويئست من وصوله اليك، فماذا تعطي لمن يأتيك بجرعة منه؟ قال: كنت أعطيه نصف ملكي. قال: أرأيت يا أمير المؤمنين اذا انحبس فيك البول واشتد الداء وعز الدواء وأوشكت النفس أن تزهق، فماذا كنت تعطي لمن يصرفه عنك؟ قال: كنت أعطيه ملكي كله وهو قليل. قال: فازهد في ملك نصفه يساوي جرعة، وهو كله لا يساوي بولة... فبكى الرشيد حتى اخضلت لحيته وراح يمرغ وجهه في التراب ويرفع يديه الى السماء وهو يقول: اللهم اغفر لي! قال الأصمعي فمررت به ومعي غلام لي صغير عرفه فنظر اليه وكذب عينيه ثم سألني: يا أبت، أليس هذا جبار الأرض الذي تخضع له الرقاب! فمم يبكي ولمن يتضرع؟ فقلت: يا بني، انه جبار الأرض يتضرع الى جبار السماء.

* * *

● قيام الحرب بالصدفة ممكن.. فلا أحد يذهب إلى الحرب مفتوح العينين.

(همرشولد)

العلاقة بين التراث الحضاري الإسلامي ونمو المدينة العربية

دارة الملك عبد العزيز

اصدر المعهد العربي لانماء المدن وفي طباعة راقية واخراج انيق وورق جميل مصقول وصور ملونة من المدن العربية كتابا نفيسا بعنوان:

«أبحاث من ندوة المدينة العربية: خصائصها وتراثها الحضاري الاسلامي».

ويقع الكتاب في جزئين ومجلدين: الجزء الاول (المجلد الاول) ويشمل الابحاث العربية والجزء الثاني (المجلد الثاني) ويتناول الأبحاث الملقاة باللغة الانجليزية وهي ابحاث مختارة من التي قدمت الى «ندوة المدينة العربية: خصائصها وتراثها الحضاري الاسلامي»، والتي كانت باكورة نشاطات المعهد العربي لانماء المدن حيث قام المعهد بتنظيمها بالاشتراك مع الامانة العامة لمنظمة المدن العربية.

والكتاب يحمل نفس العنوان الذي انعقدت الندوة تحته ندوة المدينة العربية: خصائصها وتراثها الحضاري الاسلامي.

ولقد اجتذبت الندوة اليها المئات من المختصين المهتمين بدراسة المدينة العربية في انحاء الوطن العربي وفي خارج الوطن العربي... وقد حاضر فيها علماء اختصاصيون من خيرة العلماء والاساتذة والمهندسين والمخططين الذين قدموا الى الندوة من قارات مختلفة في العالم وعبروا عن رغبتهم الملحة في الاهتمام بالمدينة العربية والحفاظ على خصائصها وتراثها الحضاري الاسلامي الخالد. نظرا لاهمية هذا الكتاب واهمية الابحاث التي نشرت فيه، فاننا نستأذن «المعهد العربي لانماء المدن» في أن نقتبس الدراسة القيمة «لدارة الملك عبد العزيز» عن العلاقة بين التراث الحضاري الاسلامي وعن المدينة وان نعيد نشرها في مجلة «تاريخ العرب والعالم» وذلك تعميما للفائدة واسهاما في توسيع نطاق قراءة ابحاث قيمة من هذا النوع.



ليست كل المدن العربية والإسلامية ينقصها التخطيط ولكن هناك مدناً نمت بعد الإسلام بصورة طبيعية وربما كانت هذه المدن أكثر من المدن التي خطط لتأسيسها. فلو نظرنا الى المدن العربية الإسلامية التي ظهرت للدنيا لما وجدنا اختلافاً في تخطيطها. فقد تشابهت هذه المدن في تخطيطها وتكوينها والى زمن قريب كان يصعب على الناظر الى صورها أن يفرق بينها. وقد تضافرت عدة عوامل أدت الى ظهور المدن الإسلامية وازدهارها منها الديني والعسكري والسياسي والاقتصادي.

تخطيط المدن العربية

ولكننا نجد نوعين لتخطيط المدينة. النوع الأول، وهو المدينة الدائرية، والثاني هو المدينة ذات المحاور المتعامدة ومع أن النوعين مختلفان شكلاً الا أن عناصرهما ومكوناتهما من ناحية التخطيط لا تختلف، فقد كان المسلمون يبدأون ببناية المسجد الجامع في وسط المدينة سواء الدائرية التخطيط أو ذات المحاور المتعامدة، وبعد بناء الجامع الذي يجتمعون فيه لأداء عبادة الصلاة الجماعية فيه كصلاة الجمعة والأعياد. ولم يكن المسجد يؤدي لهذه الوظيفة فقط ولكنه كان — منذ أن بنى النبي ﷺ مسجده بالمدينة المنورة — مركزاً سياسياً واجتماعياً وحضارياً فقد كان عليه الصلاة والسلام يلتقي فيه برجاله وسفرائه. وكثيراً ماكانت المحاكم تعقد في المسجد — وكان المسجد مركزاً حضارياً لدراسة القرآن وحفظه والجامع كان من المراكز المهمة للحركة الفكرية كما كان في مساجد الكوفة والفسطاط والقاهرة.

بعد بناء الجامع يأتي دور السوق في المدينة وهي المركز التجاري الرئيسي حيث يلتقي فيه التجار والحرفيون ومنه يحصل السكان على حاجياتهم وقد كانت السوق مقسمة الى عدة

أقسام، فنجد أن أصحاب الحرفة الواحدة والتجارة الواحدة مجتمعون في قسم واحد من السوق وذلك كنتيجة لتأثير اللجان المهنية ــ فقد كان أصحاب المهن المتشابهة منتمين الى لجنة خاصة تنظم نشاطاتهم ومعاملاتهم وكان من تأثير هذه اللجان المهنية تقارب ذوي المهنة الواحدة وتكتلهم ليسهل الاتصال ببعضهم وجمع الضرائب منهم في وقت واحد ــ وكان هذا التقارب والتكتل يفيد أصحاب المهنة الواحدة. فقد كان يفيدهم في مجال البيع والمنافسة فيما بينهم لتحسين مستوى حرفتهم وقد أصبحت ظاهرة التقريب بين أصحاب الحرفة الواحدة أساساً لتخطيط الأسواق والمناطق التجارية لفائدتها الاقتصادية العظيمة.

بعد السوق نجد **المنطقة السكنية** وكانت المنطقة السكنية تحيط بالسوق وتتصل به بواسطة الشوارع الرئيسية في المدينة وكانت الشوارع في داخل المنطقة السكنية ضيقة وملتوية وذلك لعدة أسباب منها:

ــ كان للنظام الاجتماعي القبلي أثر كبير فقد كان أفراد القبيلة الواحدة يسكنون في جهة واحدة من المدينة أي لهم مساحة خاصة بهم في المدينة وكانت تجمع بينهم روابط قوية ففضلوا السكن قريباً من بعضهم فكانوا يشيدون دورهم متجاورة متلاصقة فنمت المدينة بذلك بطريقة غير نظامية.

ــ كان ضيق الشوارع يعطي للمدينة شكلاً محتشداً مما يساعدهم في الدفاع عن مدينتهم وأنفسهم ضد الغارات الخارجية.

ــ كانت تلك الشوارع تستعمل كمسالك للإنسان وممرات للحيوانات.

ــ جعلت تلك الشوارع ضيقة لتكون محمية من أشعة الشمس المحرقة في المناطق الصحراوية. مما يؤيد ذلك هو تغطية بعض أجزاء الشوارع عن قصد بواسطة تلاقي الشرفات المتقابلة ــ وكانت هناك ظاهرة أخرى في المدينة وهي ظاهرة الأزقة غير السالكة أو المقفلة ويمكن تبريرها بسهولة حصر الغزاة اذا ما تعرضت المدينة لهجمات خارجية. وربما يبرر ذلك أيضاً صفة الشوارع الملتوية المتعرجة والضيقة.

وكما أسلفنا فقد كان هناك نوعان من التخطيط يغلبان على المدن العربية الإسلامية ولكننا نجد أن الخطة الدائرية تغلب على المدن الإسلامية وذلك لأن الشكل الدائري يتناسب والأفكار الدينية الإسلامية، وذلك لأن الشكل الدائري يسهل الدفاع عن المدينة ويكون مركز المدينة على أبعاد متساوية بالنسبة لأبراج المراقبة الموجودة في سور المدينة.

وكان للإسلام أثر كبير على معظم المدن العربية سواء التي كانت موجودة قبل الإسلام أو التي جدت بعد ظهوره.

المدن الإسلامية

بعد ظهور الإسلام وانتشاره بدأ المسلمون في بناء المدن في زمن مبكر اذ ما كادوا يفتحون العراق ومصر ويصلون الى تونس من زمن عمر بن الخطاب حتى وضعوا أسساً لأربع مدن واستمروا في بناء المدن حتى العهود الإسلامية المتأخرة.

وقد كان الهدف والدافع الأول لبناء المدن الإسلامية هو الغاية الحربية في الدرجة الأولى وذلك لاقامة الجند وانزال الجاليات العربية المشتركة في الفتح. ولما استقر الحكم الإسلامي أصبحت المدينة اما حاضرة أو مركزاً للتجارة. وقد احتفظ العرب حتى بعد نزولهم في المدن وممارستهم الحياة المدنية بالتنظيم القبلي وظلوا ينتسبون الى القبيلة لا الى المدينة ولهذا كانت المدن تقسم عند تخطيطها الى أحياء خاصة تسمى الخطط أو القطائع ينزل في كل خطة أو قطيعة قبيلة من القبائل. وسنتعرض فيما يلي لبعض المدن العربية الإسلامية الأولى.

الكوفة

الكوفة هي المدينة الإسلامية الثانية بعد البصرة التي أسست في العراق بعد الفتح العربي، وقد أسسها القائد سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه، عام ١٧ هجرية بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وهي تقع في الجانب الغربي من نهر الفرات وكان السبب الرئيسي لتأسيسها أن تكون قاعدة عسكرية للقسم الأوسط من العراق ولتكون دار هجرة وعاصمة

للمسلمين بدل المدائن. وكانت الكوفة منذ انشائها موطن المجاهدين العرب ومركز القوة الإسلامية كما رسم لها حين أنشائها ثم نمت بعد ذلك وكثر فيها العمران وازدهرت ازدهاراً كبيراً ووصلت الى أوج عظمتها في العصر الأموي. وأخذت الكوفة دورها الكبير في الحياة الإسلامية مما أدى الى ازدهارها وتناولتها أحداث الحياة المتلاحقة واحدة تلو الأخرى في بداية نشأتها. ثم تضاءلت وتحولت الى قرية بسيطة بعد أن كثر الوافدون عليها فأصبحت مركزاً للدسائس والمؤامرات الثورية الى نهاية العصر الأموي ويبدو أنه حين انتصرت الدعوة العباسية اتخذها العباسيون قاعدة لملكهم وان لم يقيموا فيها ومن المحتمل أنهم أحسوا أنها مركز للعلويين مما جر عليها الخراب.

وتعتبر الكوفة بصورة عامة ثغراً من ثغور البادية ومحلاً لتبادل التجارة بين الفرس من جهة والبدو من جهة أخرى كما كانت جسراً للاتصال بين الجماعات والقبائل العربية المنتشرة في البادية وأهل المدن والقرى التي تجاورها.

وقد بدىء بتخطيط الكوفة وتأسيسها بعد الفتح العربي للعراق وحاجة المسلمين الى الاستقرار. وكان قد استقر رأيهم في بادىء الأمر على المدائن عاصمة الدولة الساسانية لكن العرب قد فطروا على حب الصحراء ذات الفضاء الواسع والهواء النقي. وكانت المدائن محاطة بالمياه والمستنقعات مما يجعلها عرضة لأخطار الفيضانات وانتشار الحشرات ثم أن المدائن قريبة من الحدود الفارسية وبعيدة عن مركز الخلافة مما يهدد أمن المسلمين وسلامتهم. ثم أن احتلال هذا المكان المتوسط للعراق يضمن للمسلمين السيطرة على طول نهر الفرات وذلك لقربه من البادية المجاورة للصحراء وكذلك اتصاله بالطرق الرئيسية من جميع الاتجاهات علاوة على خلو المنطقة من العوارض الطبيعية التي تسهل للمسلمين الهجوم والانسحاب والتنقل في أثناء القتال بحرية كاملة.

وأرض الكوفة عبارة عن سهول عالية فوق مستوى سطح البحر بحوالي ٢٢ متراً وبذلك لا تهددها الفيضانات. وحيث أن موقعها بجانب النهر فتربتها خصبة صالحة للزراعة.

وكان بذلك موقعها منيعاً مأموناً بعيداً عن الأخطار فتحدها الصحراء من الغرب ويحدها نهر الفرات من الشرق حيث يمكن قطع الطرق على الأعداء القادمين من النهر وعرقلة تقدمهم. يضاف الى هذا كله وفرة المياه في نهر الفرات ووجود الأرض الخصبة الصالحة للزراعة والسكن وهذا كله مما جعل المدينة تنشأ وتنمو بسرعة وكان من الممكن استغلال الأراضي البعيدة عن النهر في حالة توسع المدينة وانتشار العمران وامتداده وذلك لأن المياه الجوفية ليست بعيدة عن سطح الأرض مما يسهل حفر الآبار واستغلال المياه للشرب أو الزراعة.

فالكوفة بذلك تقع في مكان حيوي يتوسط العراق ويمكن منها فرض السيطرة على طول منطقة نهر الفرات من الناحية الحربية ويجعلها ممراً هاماً في طريق القوافل التجارية ومحطة في طريق الحج الى مكة ويساعد موقعها هذا على أن تكون مركزاً للتجارة وسوقاً نشطة للتبادل التجاري. ومما يزيد من أهمية موقع الكوفة أنها منذ انشائها كانت ملتقى عدة طرق رئيسية وهامة وذلك لوقوعها على نهر الفرات من ناحية ومن ناحية أخرى توسطها للعراق. وكانت هذه الطرق تلتقي جميعاً في مركز المدينة وتتفرع من المدينة الى جهات أخرى.

ومن ناحية تخطيط مدينة الكوفة وبنائها فقد كانت على غرار مدينة البصرة التي سبقتها في التخطيط بعامين أو ثلاثة وكان المسجد الجامع ودار الامارة أول أبنيتها.

وقد التزم المشرفون على تخطيط مدينة الكوفة ببيان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، الذي أرسله لسعد بن أبي وقاص لما ينبغي أن تكون عليه سكك الكوفة وطرقها وأزقتها حينما شرع سعد في تخطيط مدينة الكوفة فأمر عمر بن الخطاب أن تكون كل قطيعة أربعين ذراعاً وبين كل قطيعتين طريق عرضه عشرون ذراعاً.

وأما الأزقة فقد أمر عمر أن يكون كل منها سبعة أذرع. وبعد أن تم ذلك نزلت كل قبيلة في الموضع الذي خصص لها فنجد مثلاً أن أهل اليمن نزلوا في الجانب الشرقي من المسجد وقد كان الجانب الشرقي هذا خير المواضع في مدينة الكوفة لأنه يقع بين نهر الفرات والمسجد ولأن

أهل اليمن كانوا أكثر تعداداً من أي قبيلة أخرى فقد كان هذا الموضع ملائماً ومنطقياً لنزولهم. وخصص المشرفون على تخطيط المدينة قطائع فرعية دون القطائع الرئيسية في المساحة ولكنها تلاقيها من أطراف مختلفة وقد خطت وراء صحن المسجد وذلك لنزول المحاربين والقواد حتى عودتهم من الفتوح.

وأما بالنسبة لسكك مدينة الكوفة فقد راعى المشرفون في تخطيطها وتنظيمها أن يكون عرض السكة الواحدة خمسين ذراعاً من أذرع اليد وكانت تتخلل هذه السكك بعض الأزقة والدروب وكان بعض هذه السكك تنار أثناء الليل بالمشاعل.

وفي الواقع فان تخطيط مدينة الكوفة لم يقتصر على المسجد الجامع وحده بل خطت مساجد أخرى صغيرة للقبائل حسب مواضعها من التخطيط وذلك لتيسير العبادة على المصلين ولاجتماع المسلمين في صلاة الجمعة في المسجد الجامع وبذلك أصبحت كل خطة من خطط المدينة تشتمل على مسجد — وقد تهدمت جميع هذه المساجد القبلية ولم يبق الا مسجد السهلة الذي ما زال قائماً الى اليوم.

هذا وقد اشتملت بعض الأحياء القبلية بعد تخطيطها على بيع وأديرة لأهل الذمة الذين كانوا يعيشون في كنف الدولة الإسلامية وذلك لتمكينهم من أداء شعائرهم الدينية تحت كفالة الدولة.

كما كانت تتخلل هذه الخطط أيضاً بعض الحمامات التي كان يقصدها الناس.

ذلك ماكان من أمر تخطيط مدينة الكوفة تخطيطاً شاملاً لأبنيتها وقطائعها وسككها وأسواقها ومساجدها ومقابرها وأديرتها [illegible]. ولننتقل الى مدينة أخرى من المدن الإسلامية.

مدينة بغداد — أو المدينة المدورة

في العهود الإسلامية المبكرة كان للعاصمة أهمية عظيمة من الناحيتين الإدارية والتنظيمية وذلك مما منح العواصم الإسلامية التي أصبحت بعد ذلك مراكز حضارية وعسكرية في آن واحد القوة والسيطرة وقد كانت هذه العواصم ذات ارتباطات وثيقة الصلة بالأسر الحاكمة التي تتابعت في حكم الدولة الإسلامية وذلك أمر بديهي لطبيعة الأسر العربية المسلمة الحاكمة كما يتعلق بالظروف السياسية التي جاءت فيها هذه الأسر الى الحكم.

وحينما تم النصر للعباسيين كان موضع اختيار عاصمة جديدة لهم من الأمور المهمة التي شغلت بال أبي العباس السفاح في أول عهد الدولة العباسية وقد تنقل أبو العباس السفاح بين عدة مراكز ولكنه كثيراً ما غير هذه المراكز لعدة أسباب وكان لقصر مدة خلافته الأثر الكبير في عدم حسم هذه القضية حسماً ناجزاً. ولما استخلف أبو جعفر المنصور انتقل أول الأمر الى منطقة الكوفة وبنى هناك مدينة الهاشمية ولكنه بعد أكثر من ثماني سنوات شرع في بناء مدينة بغداد المدورة — وأبو جعفر المنصور هو الذي أوجد المدينة المدورة كفكرة في أول الأمر ثم نفذها فأصبحت حقيقة واقعة تشهد بعظمة الدولة العباسية.

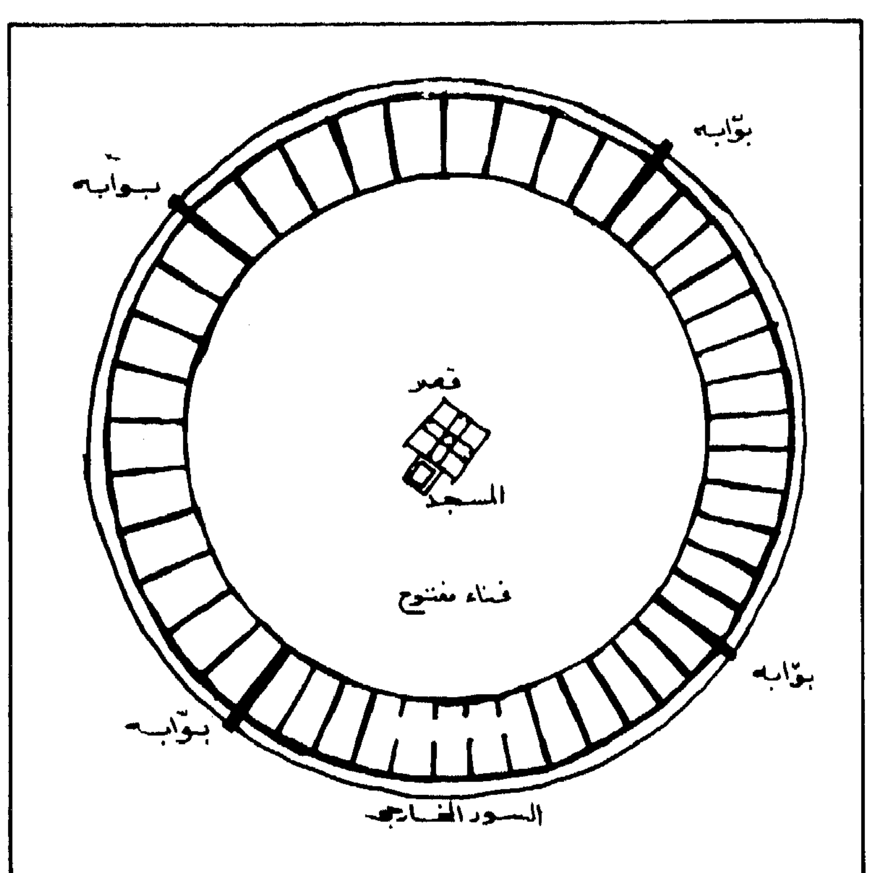
والسبب الذي حدا بالمنصور الى ايجاد بغداد هو ثورة الراوندية التي خشي المنصور من أن تتطور وتتضاعف وربما توقد ثورة كبيرة تذهب باستقرار دولته وأمنها وتؤدي بحياته وخلافته.

وتروي لنا المصادر التاريخية أن المنصور قد قسم مدينته عند بدء تخطيطها الى أربعة أقسام أناط المنصور الاشراف على قسم منها الى ثلاثة من رجاله أولهم قائد وثانيهم مولى وثالثهم مهندس وهكذا يتبين أن أربعة من المهندسين اشتركوا في بناء مدينة بغداد.

وقد بدىء في بناء المدينة المدورة عام ١٤٥هـ وهو أصح التواريخ التي أوردتها لنا المراجع التاريخية. وللمدينة عدة أقسام ومعالم:

— **الخندق**: كانت له سدتان وظيفتهما حماية السور وجدران المدينة من تسرب مياه الخندق اليها. ويحاذي السدة من الخارج السور الخارجي. وكان هذا السور أقل سمكاً وارتفاعاً من السور الثاني الذي يليه وله أربعة أبواب. وحسب رواية اليعقوبي أن المسافة بين كل باب والباب الذي يليه هي خمسة آلاف ذراع. ومن هذه الرواية يمكننا أن نحدد مساحة المدينة، لأنه لما كانت المسافة بين جميع الأبواب الأربعة متساوية فان محيط المدينة المدورة يكون عشرين

بغداد (القرن الثامن الميلادي)
اقتباس من العمارة
الاسلامية (كرزويل)



ألف ذراع وهو طول السور الخارجي ولما كان الذراع حوالي نصف متر فيكون محيط المدينة المدورة عشرة آلاف متر وهو طول السور الخارجي وبذلك تكون مساحة المدينة المدورة (٧٩٤٥٤٥٧) متراً مربعاً أي أن مساحتها حوالي ثمانية كيلومترات مربعة ــ وهناك روايات كثيرة عن مساحة المدينة.

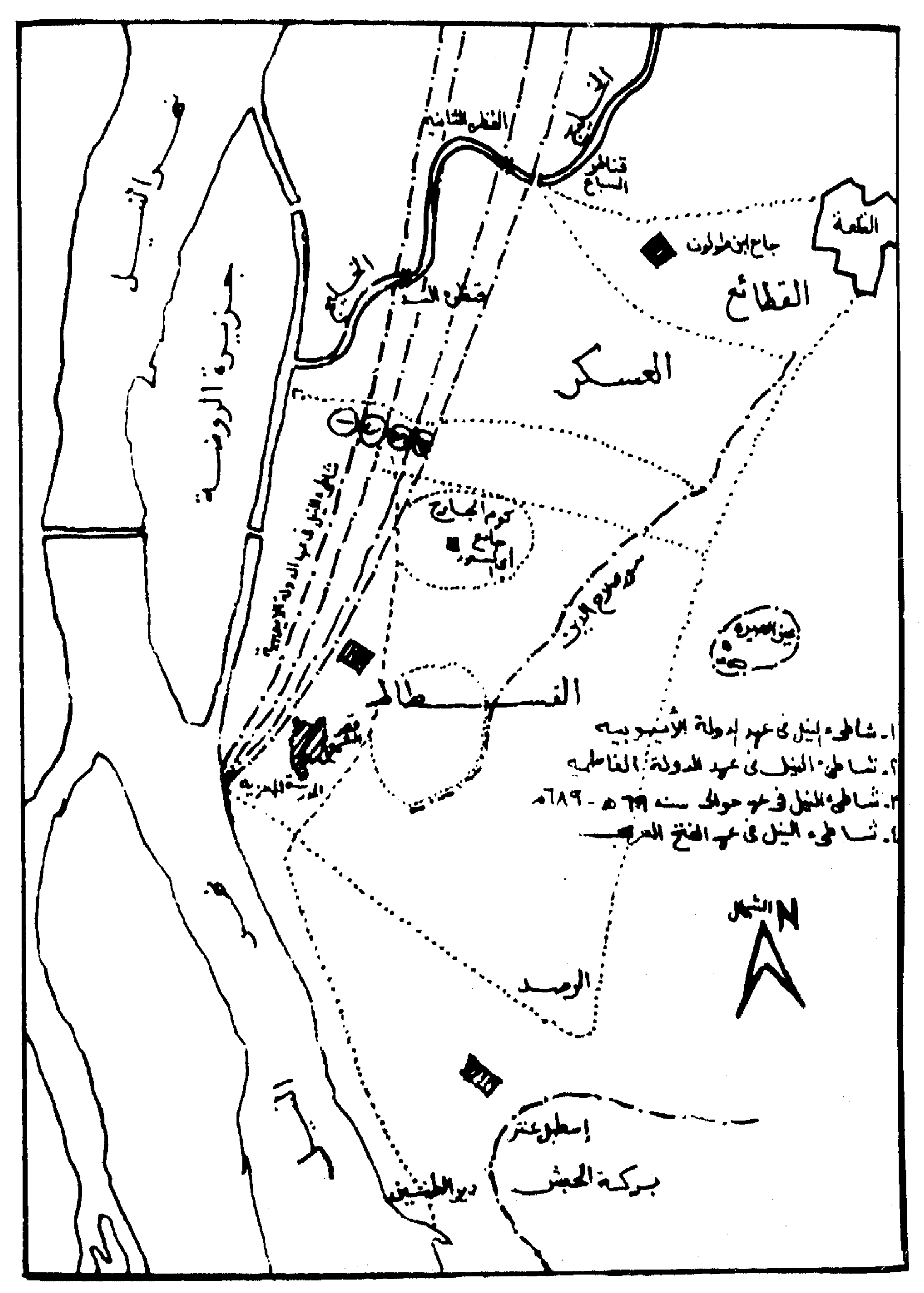
أما أبواب المدينة المدورة فسماها المنصور: باب الكوفة، باب البصرة، باب خراسان، باب الشام.

ولهذه الأبواب ظاهرة معمارية فريدة هي أزورار مداخلها وهذا الطراز من الداخل يخفي وراءه أسلوباً عسكرياً يلاحظ فيه أن الغزاة بعد اقتحامهم البوابة يضطرون الى الانحراف الى اليسار للعبور من مدخل ثان وبذلك يتعرضون للسهام الموجهة اليهم ونستطيع القول أن المدخل المزور المستعمل في أبواب مدينة بغداد هو أقدم مثال للمدخل المزور.

وكان السور الخارجي والسور الذي يليه (السور الأعظم) يفصلهما مسافة خالية تسمى (الفصيل) وفائدة هذه المسافة تنحصر في الدفاع عن المدينة ــ وقد منع المنصور السكن في هذا الفصيل.

ــ **السور الأعظم**: هناك اختلاف في المصادر العربية لتحديد أبعاد هذا السور ولكن بناة المدينة حرصوا على جعل هذا السور بناء قوياً وضخماً حتى يستوفي بذلك شروط الدفاع والاستحكام وقد جعلوا له أبراجاً عظيمة وكان عند مدخل هذا السور دهليز عليه بابان من الحديد وكان فوق البوابة الرئيسية في هذا السور قبة عظيمة عالية ومذهبة وكانت مداخل هذا السور أبواب حديد عددها ثمانية أبواب يوجد بابان منها في كل مدخل من المداخل.

ــ **الفصيل الداخلي**: ينتهي الداخل بعد دهليز السور الأعظم الى رحبة مربعة ــ ويوجد طريقان واحد عن **يمينها** والثاني على يسارها. وهذا الفصيل مار بجميع الأبواب وعرضه حوالي (٢٥) ذراعاً ويؤدي بعد ذلك من الرحبة المربعة الى الطاقات وعدد الطاقات ثلاث وخمسون طاقة وهي غير طاقات المدخل. وفي رواية للخطيب يذكر



تخطيط الفسطاط والعسكر والقطائع

فيها عرض الطاقات بخمسة عشر ذراعاً وطولها من أول الرحبة الى الطاقات الصغرى مائة ذراع. وتمتد المنطقة السكنية خلف الطاقات من جهتي اليمين واليسار. والمنطقة السكنية تتضمن السكك والشوارع والدور وتنقسم إلى أربعة أقسام كل قسم منها يؤلف ربع دائرة وهي المنطقة السكنية الوحيدة للناس في المدينة وتقع هذه المنطقة السكنية بين الجدار الضخم للسور الأعظم والجدار المحيط بالمنطقة المركزية وكانت سكك المدينة تعرف بقواد المنصور ومواليه وبسكان كل سكة ــ وكانت الطاقات الموجودة بالمدينة بمثابة الأسواق لبغداد حتى عام ١٥٧هـ حينما انتقلت الأسواق الى خارج المدينة.

ــ **الرحبة العظمى**: يؤدي الدهليز العظيم الموجود عليه بابان من الحديد الى الرحبة العظمى. وتقع هذه الرحبة في وسط المدينة ويمكن لنا أن نسميها قلب المدينة وكان في هذه الرحبة قصر المنصور والمسجد الجامع ودار للحرس وسقيفتان أحداهما لصاحب الشرطة والأخرى لصاحب الحرس وكذلك توجد بها منازل أولاد المنصور الصغار والدواوين. ومن الجدير بالذكر أن المنصور كان لا يسمح لأحد من أتباعه أو حاشيته بالدخول الى الرحبة العظمى وهو راكب.

ــ **قصر المنصور (قصر باب الذهب)**: كان المسلمون قبل بناء بغداد اذا اختطوا مدينة بدأوا بالمسجد الجامع أولاً، أما في بغداد فان المنصور جعل قصره في وسطها وقصر باب الذهب عبارة عن مربع طول كل ضلع من أضلاعه الأربعة أربعمائه ذراع وفي صدر القصر ايوان طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون وفوق هذا الايوان مجلس آخر له نفس الأبعاد وفوق المجلس القبة الخضراء. وكان على رأس القبة الخضراء صورة فارس في يده رمح.

ــ **مسجد المنصور**: يعتبر مسجد المنصور أول مسجد شيد على أرض بغداد ويعد تخطيطه نموذجاً لتخطيط الجوامع التي بنيت بعد ذلك في بغداد ومن المؤسف أن معالم هذا المسجد قد زالت منذ سنين كثيرة. وقد بني المسجد ملاصقاً للجدار الشمالي الشرقي من قصر باب الذهب، وتم تنفيذ بناء المسجد على يد الخليفة المنصور عام ١٤٥هـ وكان عبارة عن مربع متساوي الأضلاع طول كل ضلع من أضلاعه حوالي مائتي ذراع وقد بني المسجد باللبن والطين وكانت أعمدته من الخشب أما قبلته فاحتاجت الى أن تحرف الى باب البصرة قليلاً ونشأ هذا الانحراف نتيجة لبناء المسجد ملاصقاً للقصر الذي كان غير مستقيم على القبلة.

هذا مايمكن قوله عن مدينة بغداد المدورة وعن تخطيطها وأقسامها الهامة المختلفة والتي بناها أبو جعفر المنصور لتكون عاصمة للعباسيين وحاضرة لهم.

القاهرة (قاهرة المعز)

ويرجع تاريخ قاهرة المعز الى ثلاث مراحل متتابعة أولها الشكل العسكري في زمن عمرو بن العاص (الفسطاط) ثم العسكر في عهد الأخشيديين ثم احتلال الفاطميين لها بقيادة جوهر الصقلي في زمن المعز لدين الله الفاطمي. ومنذ ذلك العهد بقيت بتسميتها قاهرة المعز أو القاهرة. **والفسطاط** مدينة الفتح العربي الإسلامي التي أنشأها عمرو بن العاص بعد أن فتح مصر ــ وأنشئت الفسطاط خارج مصر في الجهة الشرقية للنيل وقد اختط عمرو بن العاص الفسطاط عام ٢١هـ وبنى مسجدها الجامع ودار الإمارة المعروفة بدار الرمل وجعل الأسواق محيطة بالمسجد وقسم أرضها كالكوفة والبصرة خططاً للقبائل.

ويذكر المقريزي أن الذين تولوا تخطيط الفسطاط ثلاثة من العرب يرأسهم معاوية ابن حديج وكانت خطط الفسطاط كثيرة منها خطة أهل الراية وخطة لخم ومذحج وبني وائل وبني سبأ وغيرهم وسميت كل خطة بأسماء من نزلها من القبائل.

وقد شذت الفسطاط في تخطيطها عن البصرة والكوفة من ناحية بناء دار خاصة للإمارة فليس صحيحاً ماذكره اليعقوبي من أن عمرو بن العاص كان قد بنى داراً خصصها للإمارة بل أن عمرو بن العاص بنى لنفسه داراً اتخذها مقراً لحكمه وقد ذكر الدكتور أحمد فكري في مؤلفه «مساجد القاهرة ومدارسها» مامفاده أن ولاة مصر في أول الأمر لم يكن لهم مقر رسمي

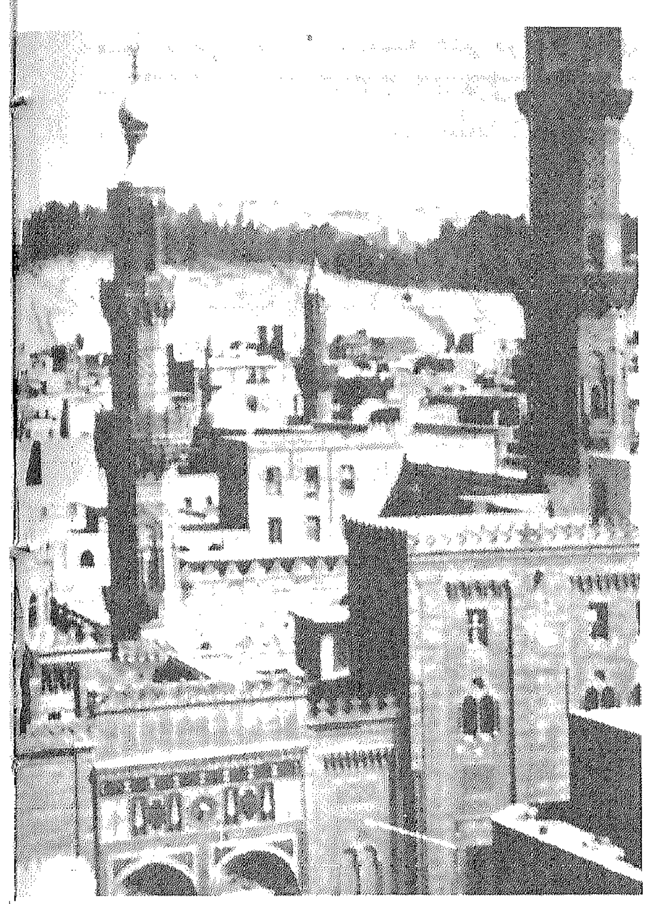
ولا دار للإمارة واتخذ عمرو بن العاص الدار التي أقامها لسكنه بالقرب من المسجد الجامع مقراً للحكم وصار الأمر هكذا بعده فكل وال من بعده كان يتخذ الدار التي يسكنها مقراً للإمارة واستمر الحال كذلك الى نهاية العصر الأموي.

وأخذت الفسطاط شكلاً منظماً شيئاً فشيئاً والتف العمران في شكل نصف دائري حول مسجد عمرو بن العاص. وبعد استتباب الأمر وانتظام العمران والتفافه حول مركز العمران السياسي والقيادي الا وهو المسجد ومع هذا الانتصار جاءت حرية اختيار الموقع الأنسب استراتيجياً والتمشي مع معطيات البيئة ولذلك جاءت **العسكر** والفسطاط بالقرب من مجرى النيل وعلى امتداد هذا المجرى وفي شكل دائري متكامل.

والجدير بالذكر أن **قطائع** أحمد بن طولون والمسجد المشهور الذي يحمل اسمه التفت في زمن تلا عصر أوج الفسطاط في شكل نسيج عمراني محدود ومنفصل عن الفسطاط وان كانت تعتبر حياً من أحياء الفسطاط الا أنه مهد لشكل القصر الحصين الذي ظهر واضحاً في الفترات التي تلت ذلك.

لتسمية **القاهرة** تفسيرات عديدة من أهمها أنها سميت نسبة لكونها حصناً يحصن القيادة السياسية وقتها والعبرة من اختيار ذلك الحصن هي احترام قيمة التضاريس والأهمية الاستراتيجية للموقع من حيث أنها أشرفت على الفسطاط والعسكر والقطائع والأودية الملاصقة للحصن.

ونستطيع القول أن القاهرة اسم لحصن وليست مدينة عمرانية النسيج وبذلك فان عاصمة مصر منذ الفتح العربي الإسلامي تكونت بشكل عمراني فريد اذ أنها عبارة عن مدن وحصون لقصور حكامها متلاصقة — وكان أساس هذا التسلسل في انشاء تلك المدن هو اختيار الموقع المناسب عمرانياً شيئاً فشيئاً. يبدأ بالمستوي ثم المتدرج ثم الشاهق، وكلما ارتفع موقع العمران ظهرت الحاجة الى ضخ مياه الشرب من النيل ومن الآبار وظهرت دراسات تحمل أسماء عديدة في هذا الموضوع منها مقياس النيل وعدة أماكن أظهرت تطور علم

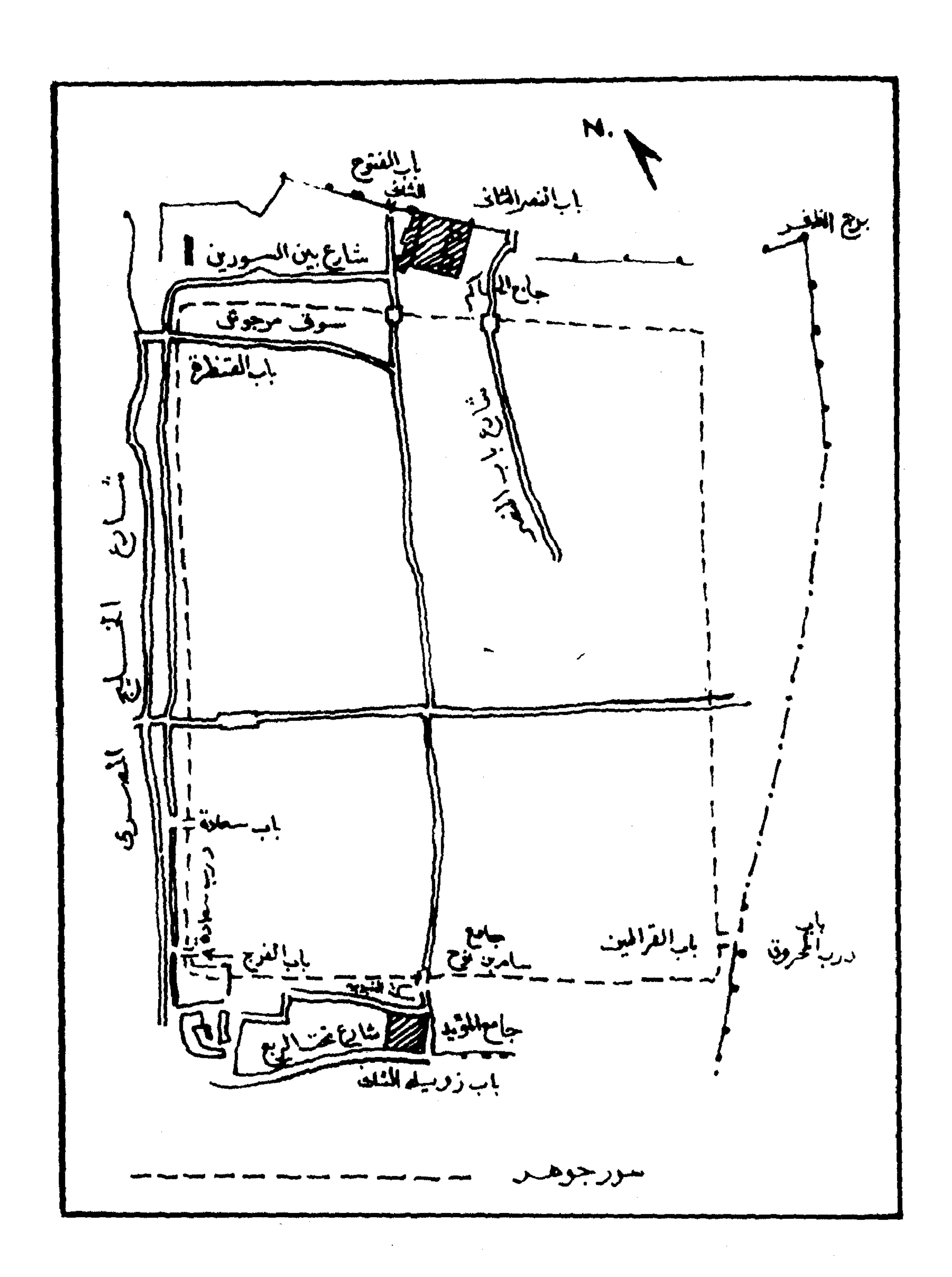


جامع الأزهر — القاهرة

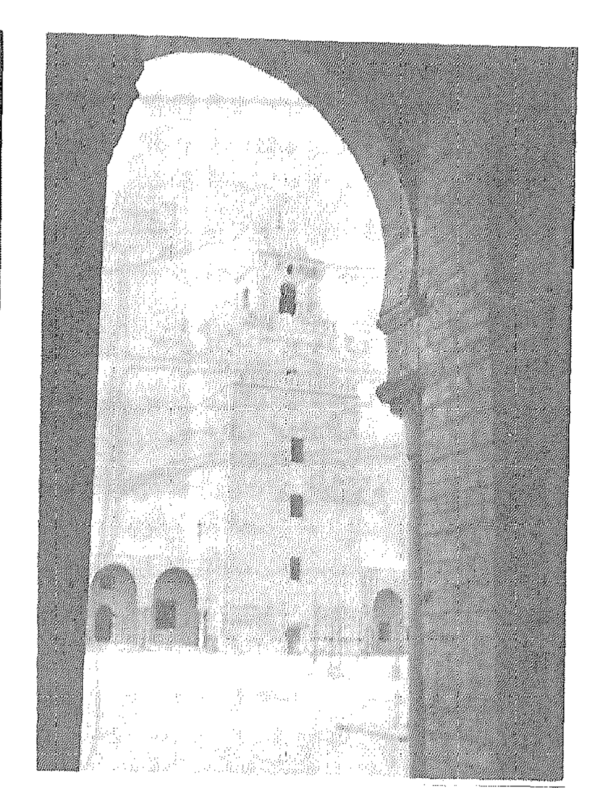
تخطيط المدن والبحث العلمي لتوفير مياه الشرب لسكان تلك العصور.

القيروان

أما مدينة القيروان فقد اختطها القائد عقبة بن نافع في تونس بشمال أفريقية عام٥٠هـ وكان أول ما اختط فيها هو دار الامارة والمسجد الجامع ولم يحدث فيه بناء وكان يصلي فيه وهو كذلك وبعد تحديد محراب المسجد اقتدى به الناس وبعد بناء المساجد والمساكن شد الناس اليها المطايا من كل بلد وعظم قدرها وكانت دار الامارة لها في قبلة المسجد وذلك قبل أن يخربها ابراهيم بن الأغلب. وكانت القيروان في وسط الصحراء بعيدة عن العمران وكانت بذلك آمنة من هجوم الأعداء ولم يمنعها انعزالها هذا من أن تنمو وتكبر. واذا كان عقبة بن نافع قد عزل عنها فترة من الزمن الا أنها استعادت عظمتها بعودته عام ٦١هـ وظلت ما يقرب من أربعمائة عام على رأس مدن أفريقية والمغرب وكان لها



القاهرة الفاطمية



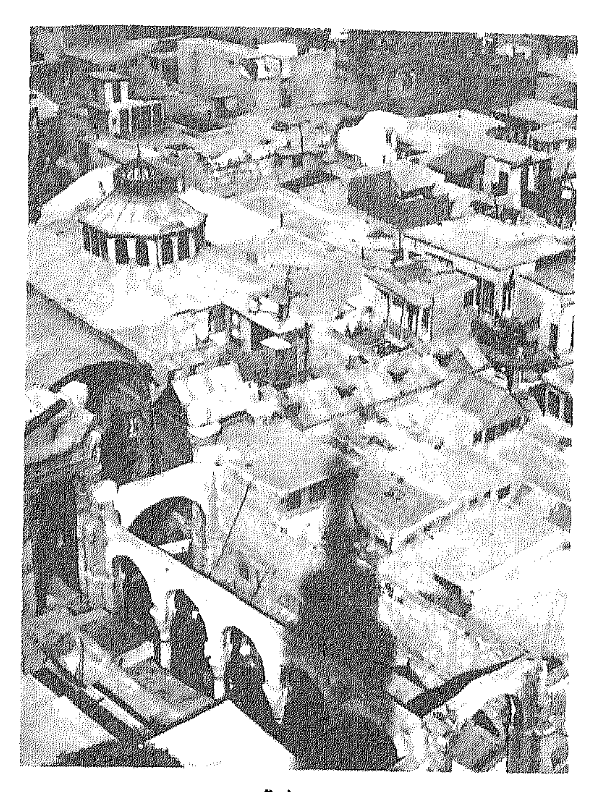
القيروان

سور له أربعة عشر باباً. وكانت سوقها متصلة بالمسجد من جهة القبلة وممتدة الى باب يعرف باسم باب الربيع وذكر البكري أنه كان لهذه السوق سطح متصلة به جميع المتاجر والصناعات وان هذا السطح قد تعرض لبعض التهدم. وأمر هشام بن عبد الملك بترميمه عام ١٠٥هـ.

وتختلف القيروان أيضاً عن المدن العربية في أن كل قبيلة نزلت بها لم تكن تختص بمكان معين من المدينة ربما لأن فتحها جاء متأخراً وربما لعدم حرص القبائل التي اشتركت في فتحها على أن تظل بمعزل عن القبائل الأخرى في سكنها كما حدث في المدن السابقة.

خاتمة

من كل ما تقدم يمكننا ملاحظة أن تخطيط المدن في العصور الإسلامية كان يختلف من مكان لآخر تبعاً للظروف والملابسات التي مر بها تاريخ البلاد التي اختطت بها هذه المدن ولا يتسع المجال لدراسة تخطيط كل مدينة على حدة وبالتفصيل، ولكن هذه المدن عند تخطيطها تبدأ على أي حال بتخطيط المسجد الجامع ودار



دمشق

الامارة ولم يشذ عن ذلك سوى الفسطاط حيث لم يكن بها دار للامارة بل كانت دار الوالي تقوم بهذه المهمة وهذا من أهم أجزاء النسيج العمراني الإسلامي الأول ويليه بعد ذلك السوق والمسكن والطرق والسكك.

ومما تقدم نجد أن هذا التشابه والتطابق بين المدن العربية والإسلامية الأولى مبرراته بسيطة وسهلة الاستنتاج والاستنباط. انها كلمة واحدة.. هي الإسلام. نعم الإسلام دين ودولة وشريعة ومنهاج وقاعدة وحكم وعلى الرغم من اختلاف المناخ من بلد لآخر واختلاف ألوان الشعوب ولغاتها الا أنها كانت تستقي من ماء واحد هو القرآن الكريم. تطبقه في حياتها وعملها فأخذت دورها القيادي للبشرية في الحضارة فكانت نهضتها الفكرية والعلمية وكان للمسلمين دور حضاري رائد في تشييد المدن وبناء الدور والمساجد والمكتبات على ضفاف دجلة والنيل وفي أقصى المغرب والأندلس حيث كانت في أوج القوة والازدهار وما من ريب في أن التقدم العمراني في مختلف أرجاء العالم الإسلامي إذ ذاك مظهر قوي لوعي الأمة الإسلامية وتطورها وتقدمها. ●

ورقة من تاريخ الاستشراق في المانيا

إرنست ترمپ

١٨٢٨ - ١٨٨٥

آنا ماري شيمل

ترجمة أحمد شركس

رسالة بخط ارنست ترمب، مؤرخة ٢٤ يناير ١٨٧٠، وهي محفوظة في مكتبة الجامعة في توبغن Md760,1079

رغم أن الاستشراق الالماني هو اكثر التيارات الاستشراقية الاوروبية جدية في معالجة موضوعات الشرق، ومن بينها موضوعات الاسلام والحضارة العربية، الا اننا نلحظ غيابا شبه كامل للاهتمام العربي بانجازاته. وقد يكون مرد ذلك الى قلة الملمين باللغة الالمانية من الباحثين العرب. ومع كل التحفظ الذي ينبغي ان نواجه به حركة الاستشراق عموما والاهداف السياسية لبعض اتجاهاتها في خدمة مخططات استعمارية وتوسعية، تبقى مهمة الاطلاع على النتاج الاستشراقي وأعلامه مهمة أساسية للباحث العربي، ان من ناحية تقنية البحث وأدواته او مضامينه، او نقد هذه المضامين.

وفيما يلي ننشر مقالة لأنا ماري شيمل، ترجمة أحمد شركس، اقتبسناها عن مجلة «فكر وفن» الالمانية والتي كانت تصدر باللغة العربية، عدد ١٨، ١٩٧١.

آنا ماري شيمل:

ولدت في ٧ نيسان عام ١٩٢٢ في مدينة ايرفورت الالمانية، نالت الدكتوراه في الفلسفة وتدرس في جامعة هارفرد، اختصاصها التصوف الاسلامي ولا سيما العربي والايراني والتركي والباكستاني، تكتب بشكل بسيط ولعامة الناس، ولها عدة ترجمات من اللغة العربية إلى الألمانية.

الحركة الألمانية الاستشراقية وسيرة حياته



تحفل الحركة الألمانية للدراسات الشرقية بأعلام كبار يعتبر أرنست ترمب أحد أقطابهم. لقد برع هذا العلامة في العديد من اللغات، وخلف آثاراً لم تقتصر في مضمونها على العربية وغيرها من اللغات السامية، بل شملت إلى جانب ذلك العديد من اللغات الأخرى. فترك لنا، دراسات وافرة في لغات الهند الحية، أو هي، وبتعبير أكثر دقة، لغات ذلك الجزء من شبه القارة الهندية الذي يعرف اليوم بباكستان الغربية. ولعل في إعادة نشر كتابين، من مجموعة مؤلفاته مؤخراً، أحدهما في نحو لغة الباشتو (Paschto) والآخر في نحو اللغة السندية، ما يدل على قيمة هذين المرجعين لدارس تينك اللغتين بالغتي الصعوبة. بل وعسى أن يكون في ذلك اشارة الى عدم ظهور ما يجاريهما جودة وأصالة على الرغم من مرور قرن من الزمان ونيف على نشرهما لأول مرة.

ويجد المرء، في حياة المترجم له، تفاصيل وطرائف هي غاية في الغرابة. ولد أرنست في اليوم الثالث عشر من شهر آذار لسنة ثمان وعشرين وثمانمائة وألف للميلاد، في قرية ايلسفلد (Ilsfeld) في مقاطعة (Württemberg) الشمالية، لأب مزارع امتهن النجارة. واتسم الوسط الذي نشأ فيه على وجه العموم بالعوز والفاقة. لم يكن ذلك حال قريته فحسب، بل حال القرى والمدن المجاورة أيضاً، مما حدا بقطاع كبير من السكان إلى الهجرة سعياً وراء الرزق. هذا وما زالت جماعات منهم تقطن جنوب روسيا، بلاد القوقاز على وجه التعيين، وما برحت فئة تعيش في ولاية تكساس الأميركية حتى يومنا هذا. وانعكست في شخصية أرنست سجيتان، امتاز بهما سكان جنوب غرب ألمانيا عموماً منذ عدة قرون، ألا وهما سجية الجلد وصفة التقوى. ولعل السجية الأخيرة قد نشأت وتطورت عن اعتناقهم للمذهب اللوثري والتي كانت تبلغ بهم حد التزمت أحياناً. بدأ أرنست حياته الدراسية في الرابعة من عمره. وظهرت بوادر ولعه الشديد



هيغل

باللغات واهتمامه بها، أول ما ظهرت، حين انبرى يحلل لغة بعض غجر كان قد صادفهم. بعد أن أنهى مرحلة الدراسة الثانوية، في سن السابعة عشرة، أرسل إلى جامعة توبينغن (Tübingen). ولما اتفقت رغبته وميوله، حينذاك، مع رغبة والديه وميولهما في أن يصبح الإبن قسيساً، التحق أرنست بكلية اللاهوت المعروفة بـ «شتيفت» (Stift). ولقد كانت تلك الكلية تتمتع بشهرة واسعة، اذ كانت مركز الاشعاع الثقافي، والمعقل الروحي للمذهب البروتسنتي في ذلك الجزء من البلاد. ومن نافلة القول أن نذكر هنا، أنه ولعدة عقود سبقت التحاق صاحبنا بتلك الكلية، فقط، كان كل من الفيلسوف الكبير هيجل (Hegel) والشاعر الملهم هولدرلين (Hölderlin) ينتظمان فيها. ونظراً لتعلق العبرية باللاهوت، شرع أرنست بدراستها، علماً بأنه كان قد أتقن اللاتينية واليونانية قبل مجيئه إلى هذه الكلية. راح بعد ذلك يدرس السنسكريتية واللغات السامية على يد كل من البروفسور روت (Roth) والبروفسور ايفالد (Ewald).

بيد أن عملية القمع والارهاب، التي مارستها حكومات الولايات الألمانية المختلفة ضد «دعاة

الحرية» عام ١٨٤٨، أدت إلى زج الكثيرين من المثقفين، أساتذة وطلاباً، في السجون، فقد انخرطت الطليعة المثقفة في هذه الحركة منذ عام ١٨٣٠ محاولة العمل على تغيير الأوضاع الألمانية، هادفة توحيد البلاد التي راحت تنقسم حينها إلى ممالك وإيالات ومقاطعات صغيرة وهكذا فما إن حلت سنة ١٨٤٨ حتى تكللت الجهود بأول اجتماع لمجلس الأمة الألماني. الا أنه سرعان ما انقلبت الحكومة وراحت تقوم بحركة قمع واسعة ضد «دعاة الحرية»، وانطلقت تزج بأتباعها في السجون. لم يستثن أرنست، بطبيعة الحال، من بين هؤلاء فألقي به في السجن لفترة من الزمن، انقطع خلالها عن الدراسة، لم يلبث حتى استأنفها وعمل على انهائها بعد الافراج عنه.

توجه العلامة الشاب، بعد أن أقام فترة وجيزة في بازل (Basel) الى لندن. ولما كان قد حصل هناك على وظيفة مساعد أمين مكتبة في «مركز الهند الشرقية» (East India House)، فقد تسنت له من خلال عمله هذا فرصة اثراء ثقافته بقضايا اللغات الهندية الحية وآدابها. ولم يفكر أرنست بالرجوع الى المانيا في تلك الأثناء، وذلك نظراً لما كانت تبعث عليه الحالة السياسية من الشعور بالقرف واليأس. وما أن عرضت عليه «الجمعية الكنسية للتبشير» (Church Mission Society) أمر الذهاب الى الهند للقيام بتأليف معاجم وكتب نحو في لغاتها الحية، حتى استجاب غير متردد. وقد شجعه على ذلك الوعد الذي قطعته الحكومة البريطانية على نفسها بنشر كل ما يقوم بتأليفه. ولا ريب بأن مثل هذا العرض ومثل ذلك الوعد ليدل على المكانة التي بلغها أرنست في ذلك العهد المبكر من حياته.

في الهند

تختلف الروايات حول تاريخ ارتحاله لأول مرة الى الهند. بيد أن سنة ١٨٥٤ هي أكثر السنوات قبولاً لدينا. نزل بادىء الأمر مدينة بومباي (Bombay). توجه بعدها الى كراتشي (Karachi) حيث مكث فيها عدة شهور. وفي مدة تدعو في قصرها الى العجب، أتقن أرنست اللغة السندية، تلك اللغة التي تتميز بالصعوبة المتناهية. كما أتقن في الوقت عينه اللغة الفارسية. وسرعان ما طبقت شهرته آفاق الأوساط السندية والبريطانية. فمنحه الفنستون (Elphinston) حاكم بومباي لقب مواطن شرف، كما رسم قسيساً للكنيسة الانجليكانية وذلك اعترافاً بفضله، اذ أنه قام وقتذاك بترجمة «كتاب المراسيم الدينية العامة» (Common Prayer Book) من الانجليزية الى الفارسية. الا أن الحال لم يلبث على ما هو عليه طويلاً، ودبت فيه علة خطيرة، علها الملاريا، فنقل على أثرها الى بيت المقدس، بفلسطين، للمعالجة. أقام أثناء وجوده في هذه المدينة بصحبة علم رائد من أعلام الاستشراق في القرن الماضي ألا وهو القنصل الألماني في ذلك الحين هناك جيورج روزن (Georg Rosen) (الذي قام بترجمة مجلدين من عمل جلال الدين الرومي «المثنوي المعنوي» الى الألمانية لأول مرة). كما انكب يعمل على تعميق درايته باللغة العربية. هذا وقد أتيح له هناك التعرف على شابة ظريفة هي باولين لندر (Pauline Linder) والتي راحت تشاركه حياته الزوجية منذ شهر تشرين الأول لسنة ١٨٥٦.

عاد أرنست، بعد قضاء فترة النقاهة وشهر العسل، قافلاً الى كراتشي تصحبه عروسه. وهناك وفي شهر أيلول من العام التالي للزواج (١٨٥٧)، من الباري عليهما بمولود ذكر، بيد أن الأم الشابة لم تلبث سوى ثلاثة أيام عقبت الميلاد حتى فارقت الحياة. وربما كان طقس كراتشي الرديء وراء هذا الحادث الأليم، أو عساه أن يكون أيضاً، الفزع والتوتر العصبي اللذان ألما بها مغبة وصول أنباء الثورة والاضطرابات العسكرية في الهند الشمالية، وعلى أثر ذلك لم يجد صاحبنا مخرجاً لمحنته سوى السفر إلى اوروبا يسعى لتوفير ظروف ملائمة للوليد. لم يمض عليه في سبيل ذلك طويلاً إذ واتته فرصة التعرف على آنسة تنحدر من أسرة كريمة، من مدينة شتوتجرت (Stuttgart) فتزوج منها، وكان قد بلغ من العمر ثلاثين عاماً.

قفل أرنست وعروسه الجديدة عائدين الى كراتشي. ثم قصدا من هنالك هدفهما المرسوم ألا وهو بيشاور (Peshawar) بالقرب من الحدود الأفغانية. كانت رحلتهما هذه عبارة عن مغامرة

شاقة كادت أن تودي بحياتهما. فلقد كان عليهما أن يبحرا خلال ذلك، لمدة ثلاثة وعشرين يوماً، في نهر «اندوس» (أو نهر السند) (Indus). وأن يركبا، ولثلاثة أيام، عربة تجرها الجاموس، الى لاهور (Lahore) ثم أنهما قد نقلا على محفة تناوب حملها اثنان وعشرون من الخدم الى أن وصلا بيشاور قاطعين بذلك خمسمائة كيلومتراً.

استقبل البريطانيون، والسكان المحليون، الباتان (Pathan)، صاحبنا وزوجته استقبالاً حاراً. وانبرى أرنست، في الحال يدرس لغة الباشتو (Pashto)، والتي لا تقل صعوبة عن اللغة السندية بشيء، فأتقنها بسرعة مدهشة بل انه راح يمارس الوعظ والإرشاد بها بأقرب فرصة ممكنة. وعلى الرغم من معاودة اصابته بين الفترة والأخرى بحمى الغب، لم يأل جهداً في محاولته البحث عن لغة حية جديدة. فما ان أتيحت له فرصة لقاء ثلاثة أشخاص من أهالي «كافرستان» حتى تعلق بهم واعتبرهم «عينات ممثلة لدراسة لغة أهالي تلك المنطقة». (لقد تغير اسم منطقتهم من كافرستان الى نورستان فيما بعد). انبرى صاحبنا يهيىء لهم الظروف الملائمة ويعمل على اغرائهم بالبقاء عنده مدة كافية تتسنى له خلالها دراسة لغتهم. ويصف لنا أرنست الموقف فيقول: «لقد كنت أحتفظ بهم ثلاث أو أربع ساعات كل يوم، مقدماً لهم بين الفترة والأخرى وجبات من الحلوى عاملاً على تسليتهم كي لا ينفد صبرهم». ويضيف قائلاً: «ان ظنه قد خاب» فيما يتعلق بمظهرهم. فقد توسم فيهم امتشاق القوام وبياض الوجه وملاحته، فوجدهم داكني البشرة، «رغم الحمرة التي راحت تكسو وجوههم والتي ان عادت الى أمر فانما عادت الى الخمر المعتق الذي راحوا يحتسونه». وحري بنا أن نشير هنا، الى أن توسم أرنست ما توسمه ارتكز على ما كان يشيع بين الناس من أن أهل «نورستان» ينحدرون من اليونانيين الذين صاحبوا الاسكندر الأكبر حين قدم هذه البلاد. ثم انطلق بعد ذلك يدرس لغة البراهوي (Brahui)، تلك اللغة التي تتكلمها أقلية تعيش في «بلوتشتان» ولقد نشر بحثاً قيماً في هذه اللغة عام ١٨٨٠. (ليس لهذه اللغة صلة بالإيرانية أو بلغات شمال الهند، كما هو الحال بالنسبة للباشتو والسندي، ولكنها تتصل بلغات جنوب الهند الغير آرية). كما أنه درس لغة ونحو كل من «الكشميري» و«النيبالي». هذا ولا زال كتابه في نحو اللغة الأخيرة مخطوطاً.

اضطر أرنست، على أثر معاودة المرض له، الى مغادرة بيشاور، مما خلف اللوعة والأسى في النفوس. ولما عادت له صحته، عكف في شتوتجارت (Stuttgart) يدرس المواد التي كان قد جمعها خلال وجوده في الباكستان. كان ذلك ما بين سنتي ١٨٦٠ ــ ١٨٦٣. ثم أخذ يعمل قسيساً في قرية فولينغن (Pfullingen)، التي تقع على مقربة من القرية التي شهدت مسقط رأسه، ما بين عامي ١٨٦٤ ــ ١٨٧٠. هذا ولم يتوقف خلال ذلك عن متابعة بحثه العلمي بل راح ينشر الكتب والمقالات العديدة، باللغتين الألمانية والإنجليزية. لم يكن أمر تعيين صاحبنا كأستاذ للغات الشرقية في جامعة توبينغن (Tübingen) التي نال منها درجة الدكتوراه، بمستهجن؛ بيد أنه ولما كان شريط الذكريات في أذهان زملائه في تلك الجامعة، ما انفك يسجل نشاط أرنست السياسي خلال ثورة ١٨٤٨، لهذا السبب بل ولأسباب أخرى نجهلها، فقد حيل دون بلوغه ذلك الهدف. فبقي هذا العلامة الأوروبي، علامة اللغات السامية واللغات الهندية الحية، يعمل قسيساً في تلك الأبرشية المتواضعة. ومع ذلك فيمكن القول بأن أرنست، ورغم كل الصعوبات، قد نعم خلال تلك الفترة، بحياة عائلية هنيئة.

وفي عام ١٨٧٠ عادت الحكومة البريطانية تعرب عن اهتمامها بخبرته، فطلبت منه العودة الى الهند ليقوم بترجمة كتاب السيك المقدس «آدي گرانت» (Adi Granth) نظراً لما تتمتع به تلك الديانة من أهمية سياسية في حياة الهند. وما أن شرع في مهمته الجديدة حتى أدرك استحالة الاضطلاع بها دونما مساعدة من متكلمي تلك اللغة، فهي لغة معقدة عويصة. التفت الى جهابذة السيك ينشد امدادهم له، بمعرفتهم ولكن ظنه سرعان ما خاب بهم. فهم، على حد قوله «لم يستطيعوا أن يزودوني الا بتفسيرات تقليدية أثبتت مقارنتها بالنصوص المختلفة تناقضها وفسادها، بل انهم قد عجزوا،

في كثير من المناسبات، عن تقديم أي شرح أو تفسير». فلم يجد بداً حينها من التعويل على نفسه. فراح يعد بطاقات مفهرسة للكلمات وللقواعد النحوية القديمة ويقوم بدراستها وتمحيصها. كل ذلك بطبيعة الحال بهدف التمكن من دراسة واستيعاب ذلك الكتاب المقدس، والذي يزيد حجمه على حجم القرآن الكريم بعدة أضعاف. هذا ولعله من الطريف أن نذكر، في هذه العجالة، بأن السيك لم يأبهوا لعمل أرنست لا ولم يقدروه حق قدره، بل وعلى النقيض من ذلك فانهم ما انفكوا يذكرون «سوء التصرف والإثم الكبير الذي كان يرتكبه بالتدخين بحضرة الكتاب المقدس»! غير أن السلطات في لاهور، ولا عجب، قد قدرت تلك الجهود حق قدرها. وعمل البريطانيون قصارى جهدهم لإقناعه بالبقاء.

لقد تكبد أرنست في تحليل خطوط كتاب السيك المقدس جهداً أعياه وأضعف عينيه، فلم يقو على البقاء في تلك البلاد. فلهذه الأسباب الصحية وبسبب حنينه الى الوطن، الذي راح يتأجج، قفل أرنست عائداً الى المانيا في سنة ١٨٧٢. وهناك عمل على انجاز ترجمة الكتاب، آنف الذكر، فنشر في مجلد ضخم عام ١٨٧٧. كما ألحقه بعدة دراسات عن ديانة السيك.

في التدريس

لم يبارح أمل الحصول على كرسي الأستاذية في جامعة توبينغن مخيلة صاحبنا. ولعل ما جاء في رسالة له مؤرخة في ١٨٧٣/١/٢٤ ما يعكس المرارة التي كان يعانيها وهو ما زال في سن الخامسة والأربعين، فهو يقول: «ولما كنت أعلم بأن الجهود كلها تبذل في سبيل اظهاري أمام الملأ بالعجز، فسأرفق بطلب استخدامي قائمة بالمؤلفات التي تمت طباعتها؛ كمثل كتاب قواعد السندية وكتاب قواعد الأفغانية... الخ؛ رغم مخالفة ذلك لطبيعتي».

بعد أن عمل أرنست كمحاضر (Privatdozent) في قسم اللغات السامية في جامعة توبينغن، ولفترة قصيرة، في أواخر العام المذكور سالفاً، انتقل الى جامعة ميونخ ليشغل كرسي الأستاذية في قسم اللغات السامية فيها.

وأمل وقتذاك أن يتمكن من القيام بأعمال نافعة في كل من اللغة العربية والأثيوبية وسواهما. وهكذا فقد نشر، أثناء وجوده في ميونخ، «مقدمة لدراسة قواعد اللغة العربية». كما حقق وترجم «أجرومية» محمد بن داوود الى الألمانية، وكان ذلك عام ١٨٧٦. ويعد عمله هذا محاولة ممتازة حقيقة بالتقدير، رغم النقد الذي وجهه له، في حينه، الأستاذ فلايشر (H.L.Fleisher)، علامة اللغة العربية. (وقد ندر أن يفلت بحث في هذا الحقل من نقد الأستاذ المذكور، وذلك لبراعته وتفوقه فيه). كما قام أرنست بدراسة «كتاب المفصل» للزمخشري دراسة وافية، ظهرت في مقالتين طويلتين مفعمتين بالتعليقات والشروح، حري بدارس نحو العربية عدم اغفال الإطلاع عليها. كما راح ولعه بالأثيوبية يتبدى، وقد استمرأ لهجتها على وجه الخصوص. ففي خلال أقصر وقت بات يتقنها ويميز أدق دقائق اللحن فيها. ومن الطريف أن نذكر هنا، بأن تجربته انحصرت في هذا المجال، بدراسة رجل أثيوبي، كانت قد أحضرته احدى البعثات الدينية الى أوروبا. هذا وقد تمخضت تلك التجربة عن عدة مقالات تعالج الأبعاد المختلفة لتلك اللغة كتبها ما بين عامي ١٧٨٧ ــ ١٨٨١.

بيد أنه، ولما كان لكل أجل كتاب، ولكل طاقة حدود، لم يعد بمقدور أرنست أن يتحمل المزيد. فدراسة لغات شبه القارة الهندية العويصة، وقضاء ردح من الزمان يصارع صعوبات المناخ أثناء اقاماته المتقطعة فيها، ودأبه الحثيث على دراسة لغات أخرى كالعربية التي تتصف بتعقيدها وصعوبتها... كل ذلك عمل على ارهاق قوى صاحبنا واعياء صحته. فلم تلبث عيناه، التي قرأت وتفحصت الآلاف العديدة من الصفحات المختلفة، بما كنته بين ثناياها من غامض الخطوط ومعقدها، لم تلبث هاتان العينان حتى تردت في حمأة جحيم الظلمة، فحرم المسكين من نعمة البصر وحرم من القدرة على القراءة والكتابة، عدته وعتاده في الحياة. هذا ولم تفتأ الطامة الكبرى أن حلت حين راحت تلك الظلمة الدامسة تزحف الى عقله الجبار فتشله. وينتقل، على أثر ذلك، الى أحد المستشفيات يمضيها أياماً حزينة حتى يوافيه الأجل المحتوم. وهكذا يعود

wichtig für die richtige Auffassung der passiven Construction, wie wir gleich sehen werden.

Wie das فاعِل so ist auch das نائِبُ الفاعِل doppelter Art, entweder مُظْهَر (ein offenbares Nomen), oder مُضْمَر (ein Pronomen); das leztere kann wieder مُنْفَصِل (absolutes Pronomen), oder مُتَّصِل (angehängt) sein, und als solches wieder بارِز (offenbar,. wie in ضُرِبْتُ), oder مُسْتَتِر (verborgen, wie in ضُرِبَ).

Aus dem Bemerkten ergeben sich im einzelnen folgende Regeln:

I. Die passive Construction ist im Arabischen nur da anwendbar, wo der Thäter nicht genannt wird, z. B. ضُرِبَ زَيْدٌ, „Zaid wurde geschlagen".

Dadurch unterscheidet sich das Arabische speciell von seiner Schwestersprache, dem Aethiopischen, welches sich die Möglichkeit bewahrt hat, bei der passiven Construction auch das active Subject durch Hilfe von Praepositionen (wie **በ**, **እምነ፡** etc.) einzufügen, z. B.: **አሜሃ፡ ተፈጸመ፡ ዘተብህለ፡ በኤርምያስ፡ ነቢይ፡**, „da wurde erfüllt, was gesagt worden war durch Jeremias, den Propheten" (Matth. 2, 17). Auch das Hebräische ist in dieser Hinsicht noch freier und kann das handelnde Subject, wo es nöthig ist, vermittelst einer Praeposition (לְ, stärker noch durch מִן) dem passiven Saze unterordnen, z. B.: מֵיְהוָה מִצְעֲדֵי גֶבֶר כּוֹנָנוּ, „von Jehovah werden die Schritte eines Mannes richtig gestellt" (Ps. 37, 23), während im Syrischen diese Construction (mit Hilfe

صحيفة عن مقالة ارنست ترمب عن النحو العربي:
Beitrage Zur arabischen, Sitzungsberichte der Kgl. Bayerischen Akademie der Wissenschaften, Philos.-philol. Classe, 5. Mai 1877.

أرنست، بعد تطوافه الكبير في عالم اللغات، وبعد حياة لم يكن للإستقرار فيها مكان، يعود الى دار الخلود، الى منزل السلام الدائم يوم عيد الفصح المجيد الذي وافق في الخامس من شهر نيسان لعام خمس وثمانين وثمانماية وألف للميلاد، بالغاً من العمر سبعاً وخمسين سنة.

مؤلفاته

اننا اليوم لنقف عاجزين عن الإحاطة بكل ما خلفه هذا المستشرق الكبير من آثار، وذلك لغزارته وتعدد جوانبه. لقد اهتم باللغات كلغات، وليس كآداب، وراح يسبر غور قطاع هام في عالم هذه اللغات، ألا وهو عالم شبه القارة الهندية، فعبد طريقه ومهد سبيله أمام اللاحقين من العلماء والذين راحوا يقتفون آثاره ويتبعون خطاه.

ونحن ان حاولنا استعراض جزء من أعمال هذا اللغوي العظيم، فانه يمكن القول بادىء ذي بدء، ان عشقه للسندية وتعلقه بها قد فاق تعلقه وولعه بسواها من اللغات الحية. لقد انطلق، كما تشير كتاباته، يتتبع آثارها في طول البلاد وعرضها. فهو يذكر، مثلاً، هضبة مكلي (Makli Hill) التي تقع بالقرب من العاصمة القديمة للسند، والتي تبعد مسافة ستين ميلاً عن كراتشي قائلاً: «لعل المعابد والأضرحة في هضبة مكلى أروع ما يمكن مشاهدته من الآثار في بلاد السند والهند. (ونحن هنا لا يسعنا الا أن نوافقه على ذلك، اذ أن هذه المقبرة، والتي تبلغ مساحتها عدة أميال مربعة، عبارة عن آية من جمال الهندسة المعمارية الإسلامية وكنز رائع من كنوزها، بنيت أضرحتها ما بين عامي ١٥٠٠ ـ ١٧٥٠).

يعتبر «كتاب القراءة السندية» باكورة انتاج أرنست في هذه اللغة. وقد استعمل الحروف العربية والسنسكريتية في كتابته. ولا نعتقد أن هذا الكتاب قد نال تقدير أهل السند، وذلك لما يتضمنه من نصوص في اللاهوت المسيحي. فهو قد كتبه أصلاً ليستعمله المبشرون الذين يرغبون في الذهاب الى تلك الديار.

نشر بعد ذلك مقالات عديدة في «قواعد اللغة السندية». راح يقارن في هذه المقالات اللغة السندية باللغات الحية الأخرى التي تطورت عن البراكريت.

وفي أواخر عام ١٨٧٢ نشر كتابه الهام «قواعد اللغة السندية» والذي ألحت الحاجة اليه، فأعيد طبعه مؤخراً. ولما كان أرنست قد عاش البيئة السندية بأبعادها المختلفة، وعايش الناس على اختلاف مستوياتهم، فقد تسنى له التعرف على آدابهم الشعبية، وبالذات أغانيهم وأساطيرهم. وتمخضت معرفته وجهوده في هذا المضمار عن اثني عشر مجلد، ما برحت مخطوطة، لتلك الآداب. ويعتقد أرنست، كما يعتقد الرحالة البريطاني الشهير السير ريتشارد برتن (Richard Burton)، بأن السندية تملك أكبر مجموعة شعرية شعبية أصيلة بين لغات الهند، «ان حادي العيس في فيافي الصحراء، والزوج المكلوم الذي راح يقف وراء محراثه، ذلك المحراث الذي ان هو الا غصن شجرة انحنى طرفه، ليحفظا عن ظهر قلب أبياتاً وأبياتاً من ذلك الشعر، ينشدانها بين الفينة والأخرى عملاً على قطع ساعات النهار. ان استمرار وشيوع هذا النوع من الأدب الشعبي بين هؤلاء الناس، حتى يومنا هذا، ومنذ عهود هي غاية في القدم، أمر ساعد عليه تجوال أولئك المنشدين والشعراء القبليين عبر البلاد». الا أن أرنست نفسه، لم يستسغ قصائد ذلك التراث الهائل. فهو يقول، «ان الناس لا يحسنون سوى ترداد القوافي والتلاعب بالكلمات حتى ولو كان ذلك على حساب الاتساق المنطقي للأبيات»! هذا ولم يمقت في حياته أمراً كما مقت ذلك النثر «الجاف الممض» الذي جاء في أعمال المفكرين الدينيين من أمثال مخدوم محمد هاشم، الذي ما عتمت شهرة ترجمته لأجزاء من القرآن الكريم الى اللغة السندية ولأول مرة، في مطلع القرن الثامن عشر، تعم الأوساط السندية. انه كلغوي رفض تكرار استعمال الألفاظ العربية والفارسية في هذه النصوص. الا أن سعادته كانت تبلغ الذروة حين كان يصدف قصائد سندية خالصة.

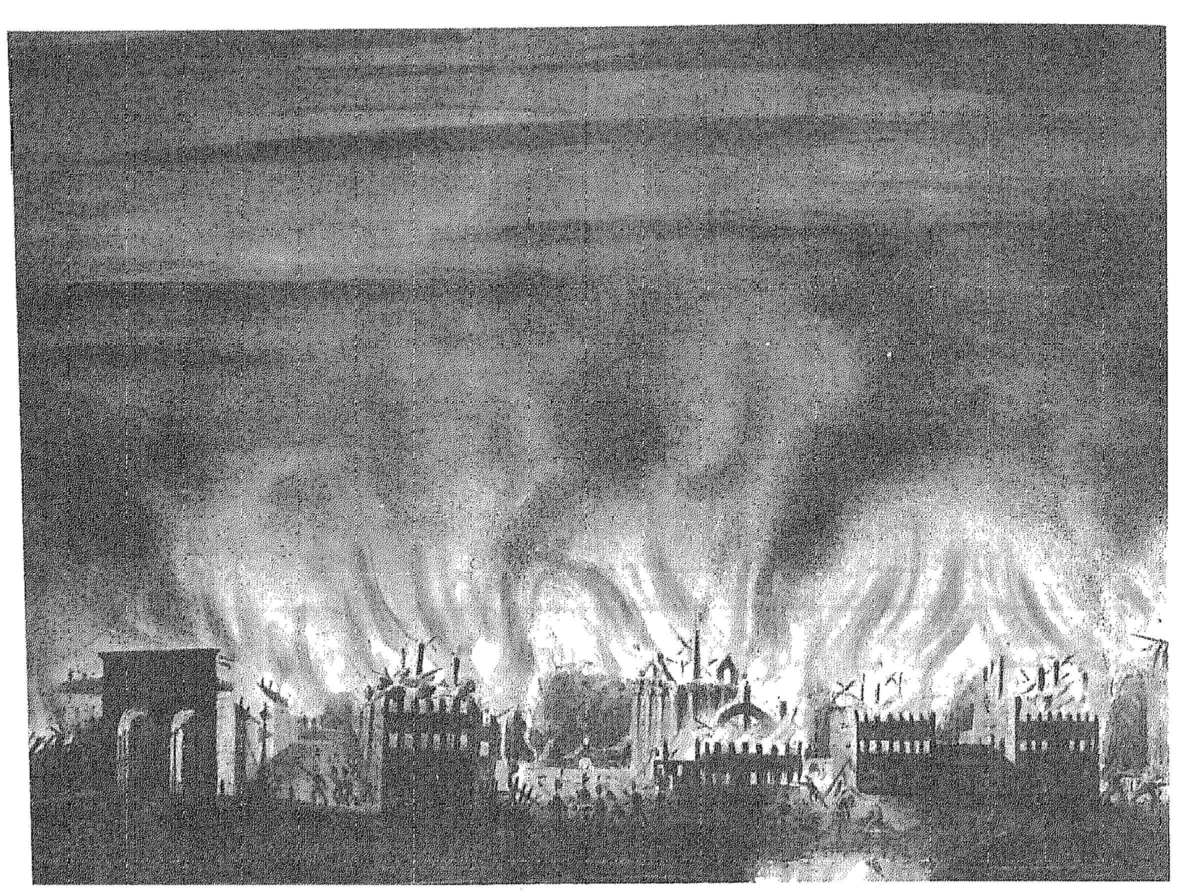
ويعتبر تحقيق «الأعمال الشعرية» لشاه عبد اللطيف، الإنجاز الرئيسي لأرنست في حقل الدراسات السندية. (ان أعمال هذا المتصوف الكبير وشاعر القرن الثامن عشر ما زالت

تستهوي أفئدة الناس في مختلف بقاع تلك الديار). ولقد اختار صاحبنا بادئ ذي بدء احدى حكايات هذا العمل الضخم، ألا وهي حكاية «سورات»، وراح يقدم للقارئ الألماني تحليلاً لها، نشرته احدى المجلات العلمية الألمانية. هذا ويبقى أمر اختياره لهذه الحكاية بالذات، والتي هي أقل أجزاء مجموعة «الرسالو» (Risalo) بهجة، كما أن نصها قد تشوه وتقطعت أوصاله مما يصعب علينا فهمه. ثم أنه وكتوطئة لتحقيق هذا العمل، والذي اكتملت طباعته في ليبزيك عام ١٨٦٦، فقد ترجم «سر سورات» الى الألمانية. وكان ذلك في سنة ١٨٦٢.
ولقد استعمل أرنست، في اخراج هذا الكتاب الى حيز الطباعة، الحروف الهجائية العربية بعد أن أجرى تعديلات طفيفة عليها. غير أن استعمال هذه الحروف بما أجراه عليها أرنست من تعديلات، اتفقت وفهمه اللغوي، ليجعل أمر قراءة السندية أكثر صعوبة على الفرد السندي المعاصر، علماً بأن حروف الهجاء العربية كان قد شاع استعمالها رسمياً منذ عام ١٨٥٢ في البلاد. ومع هذا فاننا لنتفق مع أرنست «بأن المرء الذي يجهد في قراءة أعمال شاه عبد اللطيف (في أي صورة كانت) سيجد جزاءه متعة يحظى بها بقراءة النصوص الجميلة المنتشرة في كل مكان». انه لمن الطريف أن نجد أرنست هنا، وقد أعرب عن استمرائه لشعر شاه عبد اللطيف. فهو في مناسبات أخرى راح يعمم ويصدر الأحكام بأن التناقض والتتابع المخطوء هي من صفات شعر السند. كما أنه اعتقد جازماً بأن ظاهرة التصوف ان هي الا تشويه لحقيقة الإسلام الحنيف متأثراً بعوامل هندية!

واذا ماكان لأرنست الحق كل الحق بأن يقول كل مايريد، فان ذلك لا يعنى بحال أن نوافقه على كل مايقول. فمما لا ريب فيه لدينا، هو أنه في أحكامه لم يخرج عن منطق ونظرة أولئك المبشرين البروتستنتيين الضيقة، والذين كانوا يرغبون عن أي شكل من أشكال التصوف. فكيف يكون الحال اذن حين راحوا يصدفونه وقد تطور الى أشكال وأنماط شعرية محملة بالرمزية، في ذلك الجزء الشرقي من ديار الإسلام؟ يضاف الى هذا حقيقة أن الالمام بتاريخ ظاهرة التصوف أمر لم يكن شائعاً في عهد صاحبنا. لا ولم يكن استخراج ودراسة المصادر الأولية قد جرى بعد. وماكان قد حقق حتى عهده لم يكن ليمت الى المصادر المتقدمة من تاريخ التصوف بصلة، مما حال دون الدراية بآراء الكثيرين من أعلام التصوف الأولين؛ أمثال الجنيد وتابعيه، كما حال دون التمكن من سبر غور التجربة الصوفية. وثمة حقيقة يجب ألا تغيب عن بالنا ألا وهي عدم تبحر أرنست نفسه في دراسة القرآن الكريم أو تمكنه من إدراك معانيه. فهذه الأسباب مجتمعة كفيلة بأن تبرر لصاحبنا عجزه وترديه في مرارة الحيرة كلما كان يصدف آية قرآنية أو نصاً شعرياً تكتنفه الاستعارات والتشبيهات القرآنية. ولم يقف عجزه عند فهم القرآن الكريم فحسب بل امتد في أحيان كثيرة الى الأحاديث النبوية الشريفة الشائعة، هذا ان لم نذكر عجزه عن فهم كتاب «مثنوي» لجلال الدين الرومي.

وكتاب «نحو اللغة السندية»، والذي سبق ذكره، يعتبر خاتمة ثمرات أرنست في محال اللغة السندية. ويضاهي هذا العمل كتابه «نحو الباشتو» الذي تم نشره في سنة ١٨٧٣، والذي يشكل أنموذجاً حياً لعقلية أرنست الثاقبة، وقدرته على فهم أدق دقائق نحو اللغة. هذا على الرغم من ربطه للباشتو باللغات الهندية لا بالإيرانية، وهي فكرة مردودة، عفى عليها الزمان.

وثمة حقيقة تدعو للأسف الشديد ألا وهي أن عدداً من دراساته في لغات بعض قبائل جبال الهملايا ما زال مخطوطاً ولما يخرج الى حيز الطبع بعد. ينسحب هذا القول أيضاً على بحثه في نحو اللغة النيبالية. كما أني لعلى ثقة من أنه لو تحققت له، فرصة اخراج ذلك البحث، الذي أعرب، في احدى رسائله، عن رغبته الأكيدة بالكتابة فيه، في اللهجة الإيرانية، لحظينا بأثر هو من الطرافة والقيمة بمكان كبير، ولشكل مدخلاً طيباً لدراسة لفظ اللغة الفارسية، كيف لا وهو الذي كان قد أتقنها في لهجتيها الإيرانية والهندية عن طريق الممارسة. كما قام بتدريسها، في صيف عام ١٨٧٣، في جامعة توبينغن. كما لم تكن الملاحظات التي أبداها وقتذاك علامة اللغة الفارسية خودسكو (Chodzko) حول لفظ هذه

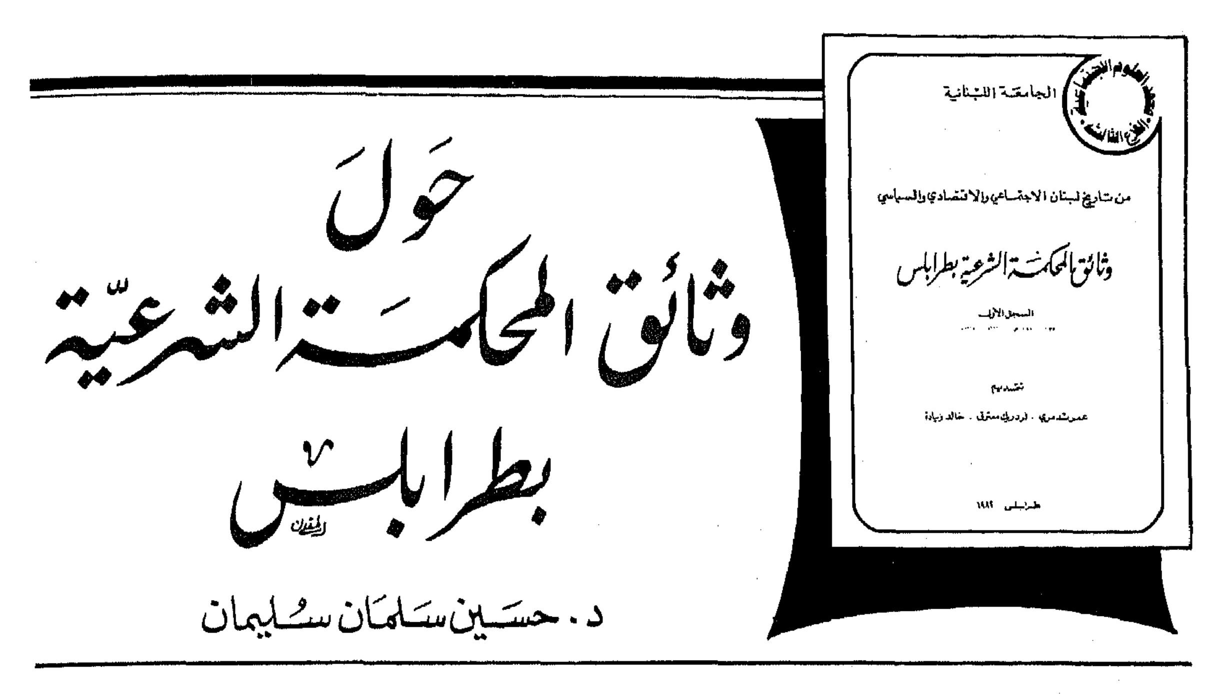


حريق ليوبولد ستراسه ١١ اكتوبر ١٨٤٨، بعد سقوط فيينا بايدي الجيش الملكي.

اللغة لتلقى قبولا أو قناعة لديه. وكان أرنست قد أعرب، في نفس الرسالة، أيضاً عن رغبته في متابعة دراسة نحو لغة البراكريت الوسيطة، أو الهندي القديم، تلك الدراسة التي كانت ستغطي منطقة شمال الهند في العصور الوسطى. وهو عمل لم يضطلع به أحد بعد، رغم مرور مئة عام على محاولة أرنست.

ولا يفوتنا، قبل أن نختتم هذه الترجمة العاجلة لحياة أرنست ترمب الأكاديمية، من أن نذكر أن الجهود التي بذلها، في السنوات الأخيرة من حياته، في دراسة اللغة الأثيوبية، لم تثمر عن نتائج فيها من ابداع وأصالة البحث ما تعودناه منه وماكان من شأن لغات الهند الحية، في منطقة باكستان الغربية على وجه التحديد.

لا ريب بأن مجال الترجمة الكاملة لحياة هذا المستشرق الكبير، والعرض النقدي الشامل لأعماله، هو غير هذا. فلقد انحصر هدفنا هنا في تقديم عرض سريع يتسنى من خلاله للقارىء المهتم التعرف وتكوين فكرة عاجلة عن أبعاد هذا العلامة المبدع، والإنسان المسؤول. لقد تفوق أرنست ترمب كعلامة لغة، ولقد زهد وتواضع في حياته كانسان كان يفضل عزلة العلم عن مخالطة الناس. هذا ولعل فيما كتبه يوم كان في ميونخ، وفي سنة ١٨٧٥ على وجه التحديد، ما يوضح لنا موقفه هذا، فهو يقول: «وحتى هنا، في ميونخ لا أخرج الى الناس ولا أختلط بأحد، وأنا لي الوقت أو القدرة العقلية لمثل ذلك...». ان من عرف عالمنا الكبير عن كثب ليؤكد لنا خصلة الخير فيه وشكيمة التواضع، فهو لم يغتر بعمله لا ولم يتردد في مساعدة المحتاج. لقد قام احساسه بالمسؤولية أصلاً على أساس من حياته الدينية وقوة ايمانه الروحي، ومن وحيها راح يتصرف. ان طبقات المثقفين في السند لن تنسى، ما حييت، فضل هذا العلامة، تماماً كما لن ينسى الهندوس فضل علامة الهندية الألماني ماكس موللر (Müller)، فاليهما يعود فضل السبق في تعريف الغرب على كنوز تراث تلك الديار.



حول وثائق المحكمة الشرعية بطرابلس

د. حسين سلمان سليمان

أحدث نشر السجل الأول «لوثائق المحكمة الشرعية في طرابلس» ضجة كبيرة في أوساط المحققين والباحثين. فاذا كانت بعض الوثائق، أو الوثائق المتصلة بحقبة من الحقب، قد نشرت من قبل، فان هذه الوثائق تتناول مرحلة طويلة من تاريخ لبنان، بل تاريخ الأقطار المحيطة، في مجالات عدة، خاصة السياسية والاجتماعية، والاقتصادية.

واذا رحب كل الباحثين والمحققين بنشر هذه الوثائق، فقد كان لبعضهم مآخذ على طريقة النشر، مما لا يتصل بجوهر مضمون الوثائق.

ننشر هنا كلمتين حول تلك الوثائق ونشرها، الأولى للدكتور حسين سلمان سليمان، والثانية للاستاذ فاروق حبلص ثم ننشر ردا للدكتور عمر تدمري. وذلك مساهمة منا في تعريف قراء «تاريخ العرب والعالم» بقيمة وثائق المحكمة الشرعية في طرابلس.

شهدت السنوات الاخيرة اهتمام الباحثين والمؤرخين بنشر المصادر الاصلية لتاريخ لبنان الحديث، ولكنه لسوء الحظ يلاحظ المدقق لتلك المصادر المنشورة، ان قلة منها قد انجزت وفقا للاسلوب العلمي لنشر الوثائق والمخطوطات. فاغلب الذين خاضوا في هذا المجال، قد اعطونا عملا مجتزأ ومشوها ومتسرعا، دون ان يكلفوا انفسهم عناء تحقيق هذه المصادر تحقيقا علميا.

فرغم ان تلك الاصول التاريخية تعود الى العصر العثماني، ويغلب عليها استخدام الفاظ واسلوب الكتابة العامية اللبنانية المختلطة بالتراكيب العربية التي كانت سائدة خلال عصر المماليك، لان العثمانيين لم يحاولوا طبع الاراضي بالطابع العثماني، بل نقلوا الاطار الاداري القديم بمصطلحاته العربية الخاصة. لم يكلف الناشرون انفسهم مشقة تفسير تلك المصطلحات الادارية الفنية الخاصة بذلك العصر، بل نشروا المخطوطات كما هي دون شرح، وانما فقط بمقابلتها على نسخ اخرى، بالرغم من اهمية تلك المخطوطات للدارس في تاريخ بلاد الشام في العصر العثماني.

وبدلا من ان يتطور نحو الافضل ــ علم نشر الاصول والوثائق، لاحظنا منذ ما يقارب السنتين

بأنه بدأ يتدهور للغاية، وصار بعض الباحثين ممن لديهم مجموعات من الوثائق، يعمدون الى نشرها كما يرغبون وليس وفقا للمنهج العلمي السليم، وانما متبعين طرائق مختلفة عجيبة. فبعضهم يعمد الى شرح المفردات ضمن قوسين في المتن بدلا من الحاشية، ودون ان يتحقق من صحة الشرح الذي غالبا ما يكون خطأ، وبدلا من ان يكتفي بتحديد الموقع الجغرافي لاسماء القرى والمدن التي ترد في النص، يتتبع اصل التسمية في اللغات القديمة وتاريخها والاثار المتبقية فيها وتطور نمو السكان، واضافة القاب التعظيم واوصاف التفخيم لبعض الشخصيات. ووصل الامر بالبعض الاخر الى تصوير الوثائق بحجمها الاصلي، رغم ان بعضها قد يكون مكتوبا في خط يصعب قراءته، ثم يعمد الى جمعها في كتاب ويضعها بين ايدي القراء.

فنشر المخطوطات والوثائق يتطلب تحقيقها، وغاية التحقيق تقديمها للقراء بحرف مطبوع وبصورة صحيحة كما وضعها مؤلفها دون شرح. وانما تكون الشروح والزيادات والمقارنات والترجمات وغيرها في الحواشي او في ملاحق خاصة، وليس في المتن نفسه، مما يساعد الباحث او القارىء على فهم النص وتقويمه في حالة الوقوع في التصحيف.

واذا لم يكن فيما مضى من اهتم بنقد هذه الاعمال، فقد اختلف الوضع الآن وصار لدينا نقاد يقيّمون كل الاعمال الفكرية، التي تطرحها المطابع في الاسواق العربية. واخر ما وصل الينا في ميدان نشر المصادر الاصلية، قيام مجموعة من اساتذة كلية العلوم الاجتماعية في الشمال، باصدار السجل الاول من سجلات وثائق محكمة طرابلس الشرعية العائدة للعصر العثماني، ويغطي هذا السجل الوثائق المدونة لسنتي ١٠٧٧ ــ ١٠٧٨/ ١٦٦٦ ـ ١٦٦٧م.

وحدد الاساتذة الاجلاء الدوافع التي حثتهم على طرح هذه السجلات قيد التداول: تسهيل وضع الوثائق التاريخية بين ايدي الباحثين، بعد ازدياد اهتمام المؤرخين العرب والاجانب ــ في السنوات الاخيرة ــ اعداد دراسات وابحاث اكاديمية على ضوء وثائق المحاكم الشرعية المتواجدة في المدن الاسلامية، الى جانب حفظ هذه الوثائق البالغة الاهمية من التلف الذي اصاب غيرها في بقية المدن الاسلامية. فعلى سبيل المثال، حاولت أثناء اعداد رسالتي للدكتوراه، العودة الى سجلات محكمة صيدا الشرعية، ولكن المسؤولين هناك أفادوني بان السجلات العائدة للفترة التاريخية السابقة لعام ١٧٧٣ قد نهبت، وبان سجلات المراحل التاريخية اللاحقة موجودة في النبطية.

وازاء صدور السجل الاول من «وثائق المحكمة الشرعية بطرابلس» اجد نفسي ملزما كباحث ان ابرز النواحي الايجابية والسلبية في هذا العمل الى جانب التعليق على ما ورد في المقدمة.

اولا ــ الناحية الايجابية: الوحيدة في هذا العمل، ان الاساتذة الاجلاء ــ ولا نقول المحققين ــ وفروا مشاق وتكاليف الاقامة في طرابلس، لاي باحث يعد دراسة او بحثا يقتضي العودة الى وثائق المحكمة الشرعية بطرابلس. ولكنه كان بامكانهم تأمين هذا الهدف لو قاموا بتصوير هذه الوثائق مكبرة ووزعوها على مكتبات الجامعات العاملة في لبنان.

ثانيا ــ النواحي السلبية:

(أ) ان الهدف الرئيسي من نشر المصادر الاصلية هو تبسيط وتوضيح وتسهيل وصول المعرفة الى اكبر قدر ممكن من القراء المهتمين بهذا النوع من الدراسات، فلا غنى للانسان باعتباره كائنا اجتماعيا من دراسة تاريخ تطوره وتاريخ اعماله واثاره، ولا يتم ذلك الا بالعودة الى ما تركه لنا الاجداد من اعمال فكرية وعمرانية. فالطريقة التي تم بها اصدار هذه الوثائق بعيدة كليا عن تحقيق هذه الغاية، ولم تجر وفقا لما تقتضي الشروط العلمية المتوجب توفرها عند نشر المصادر الاصلية. صحيح انهم ابقوا النصوص الوثائقية كما هي، ولكنه كان يتوجب عليهم ان ينشروها بحرف مطبوع، لكي تعم الفائدة الجميع فلا تبقى محصورة في فئة ضيقة للغاية، فقلة نادرة للغاية من القراء هي التي سوف تستطيع قراءة هذه الوثائق، التي لا تزال مدونة بأسلوب الكتابة الذي كان سائدا في القرن السابع عشر.

(ب) فهم النصوص التاريخية يوجب على القارىء معرفة لغة العصر الذي دونت فيه هذه النصوص، ذلك ان اللغة كائن حي ينمو ويتغير ويتطور تبعا لظروف المكان والزمان واختلاط الثقافات، فقد يدل اللفظ اللغوي على معنى محدد تماما، ومن الممكن ان يدل على معان نسبية او متغيرة او متضادة فمن اهم الواجبات الملقاة على عاتق الذين يقومون بنشر المصادر الاصلية، ان يقوموا بالكشف عن المعاني الغامضة وهو امر تجاهله الاساتذة الاجلاء، فهذه النصوص الوثائقية تعود الى ما يقارب الثلاثمئة سنة، وهي ذات ألفاظ وأسلوب في الكتابة العامية اللبنانية المختلطة بالتراكيب العربية، تخالف تماما الالفاظ والمصطلحات السائدة في الوقت الحاضر. فالقارىء ليس مضطراً العودة الى معاجم التفسير كلما استعصى عليه عبارة، فمن واجب من يقوم بنشر المصادر الاصلية ان يزيل اي غموض قد يعترض القارىء عن طريق تزويد النصوص بحواشي في اسفلها لشرح المفردات والتعابير والمصطلحات الغامضة، او على الاقل ان ينظم بها ملحقا يزود به المصدر المنشور.

(ج) خلت «وثائق المحكمة الشرعية بطرابلس»، من عناوين موجزة تشير الى محتويات النص التاريخي، فالباحث عن موضوع معين ليس مضطرا أن ينقب في محتويات مئة واربعة وخمسين صفحة، مصور عليها وثائق مدونة باسلوب كتابة لم يعد سائدا، ويتطلب الاستفادة منها الجهد والصبر والوقت، وكنا نتمنى لو قاموا بتنظيم كشاف لرؤوس موضوعات وثائق السجلات المذكورة، لكانوا بذلك قدموا للباحثين خدمات جلى واغنوا المكتبة العربية.

(د) كان من المتوجب على الاساتذة الاجلاء ان يزودوا السجل الاول المذكور بفهارس للاسماء والاماكن، وطالما يستشهُدون بمن سبقهم في هذا المجال مثل د. عبد العزيز نوار(١) ود. عادل اسماعيل فلماذا لم يحتذوا بهما؟

ثالثا — ورد في الصفحة رقم (و) من المقدمة ما يلي: «من الواضح ان الوثائق الاوروبية عامة، تعنى بالدرجة الاولى، بالمصالح الدبلوماسية، والتجارية، قبل اي شيء اخر، هذا اذا لم تشر الى نزعة العداء التي تفصح عنها هذه الوثائق».

يبدو لي من خلال ما ورد اعلاه، ان الزملاء الكرام لم يتمعنوا في دراسة «الوثائق الدبلوماسية والقنصلية» التي يقوم بنشرها الدكتور عادل اسماعيل — (صدر منها ٢٨ جزءا حتى الان). وانما اقتصرت مطالعتهم لحيز ضيق للغاية منها، واني لعلى يقين تام بانهم لم يكلفوا انفسهم بقراءة هذه المجلدات التي تتضمن التقارير الفرنسية الصادرة عن قنصلية طرابلس، والا لما اصدروا هذا الحكم عليها. ولكن لنا نظرة مخالفة لذلك تماما، فمن المتعارف عليه لدى الباحثين ان الحقيقة التي يصل اليها المؤرخ هي حقيقة صحيحة نسبيا، وكلما زادت نسبة الصدق فيها اقترب التاريخ من ان يصبح تاريخا بالمعنى الصحيح في حدود امكانه. ولا يمكن الوصول الى ذلك بالعودة الى مصدر واحد، وانما من مصادر متعددة اصلية، كلما كانت معاصرة للفترة موضوع البحث كلما ثبت صحتها وصحة معلوماتها، خاصة اذا كانت أصولاً ووثائق ومراسلات مستخرجة من دور الارشيف التاريخية، وثبت انها غير مزيفة، وان معلوماتها صحيحة، وانه لم يسبق نشرها، او على الاقل لم يسبق استخدامها بدرجة كافية. والمراسلات الدبلوماسية الصادرة عن المراكز القنصلية الفرنسية التي كانت متواجدة في بعض مدن الساحل والداخل السوري، والتي قام بنشر الجانب الاكبر منها حتى الان د. عادل اسماعيل، متابعا عمله باستمرارية ملحوظة، تنطبق عليها هذه الشروط، ولقد تحقق لنا ذلك من خلال تعاملنا لسنوات طويلة مع هذه المراسلات سواء ما نشر منها ام ما لم ينشر بعد، ومقابلتها ببقية الاصول والمصادر والمراجع، التي تغطي تاريخ بلاد الشام الجنوبية للفترة التاريخية الممتدة من مطلع القرن الثامن عشر ولغاية اواخر الربع الاول من القرن التاسع عشر، ويعود ذلك للاسباب التالية:

١ — هذه المراسلات في الاصل تقارير سرية، صادرة من المسؤولين في القنصليات الفرنسية التي كانت متواجدة في مدن الساحل والداخل السوري، الى رؤسائهم في باريس ومرسيليا. فقد كان من اهم واجبات موظفي القنصليات

المذكورة، ارسال تقارير دورية عن كل ما كان يجري في الدائرة التابعة لهم، سواء عند حالة التجارة والملاحة او الاوضاع السياسية.

٢ ـ اجادة القناصل للغة وعادات البلاد التي يعملون بها، والكثير منهم نشأ وتربى في المشرق، وتدرب على مختلف الاعمال القنصلية، وتنقل باستمرار من ولاية لاخرى لاستكمال معارفه، وحين تبرز كفاءاته كان يرشحه رؤساؤه لمنصب نائب قنصل او قنصل، وفي مكتبتي العديد من الوثائق التي تؤكد ذلك:

«... **اقترح ان يعين لولاية عكا قنصل واحد يقيم في بيروت، ارشح لهذا المنصب السيد (ديبون)، الذي يجيد لغة البلاد، وهما امران يكفيان لتسهيل اعماله، كما ادار سابقا بشكل مرض نيابة قنصلية اللاذقية...**»[٢].

«... **وصلنا تحريركم المتضمن موت والدكم فونسلوس طرابلس، وان بحسب القوانين المرتبة من جانب دولتكم ملتزمين تنوبوا بمكان والدكم وتتعاطوا وكالة القونسلية وابقيتم اخيكم في اللاذقية وكيلا بمكانكم والتمستم من طرفنا المساعدة جميع ذلك صار معلومنا...**»[٣].

٣ ـ كانت تربط القنصل الفرنسي علاقة وثيقة مع امراء جبل الدروز، مما كان يجعله على صلة دائمة بهم، فالامر يؤمن الحماية لسماسرة التجار الفرنسيين الذين كانوا يتنقلون في ارجاء الجبل لشراء محاصيل القطن والحرير من المنتجين الرئيسيين، في حين كان القنصل يستطيع بما له من نفوذ لدى سلطات الولاية، تجنيب الجبل ان امكن ويلات الحملات الحربية، حين تسوء العلاقة بين الامير الحاكم وباشاوات الولايات المتجاورة وهذا كان يتيح للقنصل معرفة كل ما يجري في الجبل وعواصم الولايات من تطورات سياسية، وفي حوزتنا الوثائق التي تثبت ذلك.

«... **الاحوال الكافية في هذه الاطراف كونها لم هي خافية مسامع سعادتكم، وان اقتضى توضيحها في ديوان سعادتكم فحضره افتخار امرا المسيحية وعمدة طايفة الفرنساوية جناب محبنا قنصل بك منصوب الدولة العلية**

في ايالت صيدا الذي هو في كمال فراسته وفهمه حاوي معرفة ساير الامور بالتدقيق ولم خافيه شيء فيقررها الى سعادتكم...»[٤].

«... **حضر الى عندي جميع نصارى كسروان لوقف الحملة التي تعد لاجتياح الجبل خشية تدمير الكنائس والاديرة في بلادهم... قمت بكل الجهود الممكنة لمنعه (اي سليمان باشا العظم والي دمشق) من تحقيق هدفه وجعل باشا صيدا يميل نحو السلم... واحاطته الامير علما عندما يسير بقواته للقاء والي دمشق...»[٥].**

٤ ــ تعطي هذه التقارير تفاصيل وافية عن كل التطورات السياسية التي شهدتها بلاد الشام، وتحدد تاريخها بدقة في اليوم والساعة احيانا «... عند الساعة التاسعة اختفى جميع خيالة الدولة الذين كانوا في السهل والجبل، واستولى ظاهر (اي العمر الزيداني) على المدافع والخيم وجميع امتعة الفارين... لم نكن نشاهد الا اناسا يفرون واخرون يطاردونهم...»[٦]، علماً بان القنصل الفرنسي كان له دور في بعضها. وطالما ان الحديث عن «الوثائق الدبلوماسية» وعن وثيقة تتحدث عن مصطفى اغا بربر، فسوف استشهد ببعض النصوص من «الوثائق» المذكورة، والتي ايضا تغطي التطورات السياسية التي رافقت تمرده في قلعة طرابلس، والتي لعب بها القنصل الفرنسي في طرابلس دورا بارزا، وفيما يلي حديث القنصل المذكور.

«... **طلب مني الباشا (اي يوسف باشا كنج والي دمشق) ان امده بخبراء مدفعية من قبرص، واسرع دينيو (قنصل فرنسا في قبرص) بارسال احدى عشر خبيرا بقيادة ضابط... علمنا من الفارين من القعلة... بانها تتلقى بدون انقطاع اعدادا كبيرة من المواشي...»[٧].**

«... **شاهدنا في السادس عشر من كانون الاول (ديسمبر) ضباطا يعلنون رحيل الباشا من المعسكر الذي اقامه على بعد سبع ساعات من طرابلس...»[٨].**

«... **وجدنا بها (اي قلعة طرابلس) مئتي برميل من البارود في حالة سليمة...»[٩].**

«... **المدافع التي نشاهدها حول الاسوار في فجوات تشبه الابواب...»[١٠].**

٥ ــ تزودنا بتفاصيل وافية عن الصراع على السلطة الذي كان ينشب بين باشاوات الولايات الشامية، والانعكاس الذي كان يتركه على عصبيات المنطقة.

«... **انتشار انباء متباينة في طرابلس بان يوسف باشا سوف تسند اليه ولاية حلب بالاضافة الى ولاية طرابلس، في حين يؤكد اخرون بان الباشا المذكور، يسعى لان تسند اليه ولاية حلب بدلا من دمشق... وبان انصار بربر وحاميه سليمان باشا يسعون لاجل ان يجمع الاخير تحت سلطته ولايتي طرابلس وصيدا...»[١١].**

٦ ــ تغطي المراسلات الدبلوماسية الفرنسية فجوة كبيرة في التاريخ الحديث لبلاد الشام الجنوبية، بسبب اختفاء الجانب الاكبر من الوثائق والحوليات والتراجم، التي كانت تغص بها مكتبات العائلات اللبنانية. سواء لاسباب سياسية امنية، او نتيجة الجهل بمقدار اهميتها فبيعت كسقط المتاع لاغراض رخيصة، او اخفيت لاسباب محلية او شخصية. وما تبقى من تلك الحوليات والتراجم ينقص اكثرها الصدق والدقة، وبعضها كتب في فترات لاحقة للمراحل التاريخية التي تروي احداثها. ويتفق اكثر الذين درسوا الحوليات اللبنانية ان مصدرها واحد، وقد نقل بعضهم عن البعض الاخر كما شبههم الدكتور عادل اسماعيل بقوله: «... داروا حول مائدة واحدة ومدوا ايديهم الى صحن واحد...»[١٢].

٧ ــ تصحح المراسلات الدبلوماسية وتكمل وتوضح اخطاء تاريخية كثيرة وردت لدى كتاب الحوليات، وسوف اكتفي بايراد بعض الامثلة على ذلك:

(أ) ارخ كتّاب الحوليات اللبنانية اسباب وتفاصيل معركة عين دارة سنة ١٧١١[١٣]، على عكس ما ورد في تقرير القنصل الفرنسي في صيدا المعاصر لهذا الحدث، كما نقرأ ذلك في المجلد الاول من سلسلة «الوثائق الدبلوماسية»[١٤].

(ب) خلاف الامير ملحم الشهابي (١٧٢٩ ــ ١٧٥٤) مع والي دمشق، اسعد باشا العظم عام ١٧٤٥، وقد ذكرها خطأ الامير حيدر

حالا والیسی اولدوغم ایالت طرابلوس شام ملحقاتندن اولان مقاطعه صافیتا ناحیه سی [illegible]

اولان عوائد قدیمه و رسومات سائره ایله [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] الواقع ١٥ شهر رمضان المبارك سنة [illegible]

الشهابي[١٥] عام ١٧٤٣ كما اخطأ ايضا في اسم الوالي.

(ج) تحالف زعماء الدروز مع الاميرين الشهابيين سيد احمد وافندي ملحم ضد شقيقهما الامير يوسف، ويؤرخ حيدر الشهابي[١٦] وكذلك طنوس الشدياق[١٧] الحادثة عام ١٧٨٢، كما يذكران السبب في هذا الخلاف هو الضريبة التي فرضها الامير يوسف الشهابي (١٧٧١ ــ ١٧٩١) على بيوض دود القز «ضريبة البزرية». وقد اتفق معهما حسين يوسف ابو شقرا[١٨] في تحديد تاريخ الحادثة وخالفهما في الاسباب، ذاكرا بانها بسبب «ضريبة الشاشية»(*). في حين نجد في «الوثائق الدبلوماسية» بان الخلاف لم يكن للاسباب التي ذكرها المؤرخون الثلاثة، وبأن هذا الخلاف بدأ في اواخر عام ١٧٨٠ وتطور عام ١٧٨١ كما اشار الى ذلك القنصل الفرنسي الشاهد المعاصر لهذه الاحداث والمتتبع اسبابها وتطوراتها[١٩].

هذه الامثلة ان هي الا نماذج بسيطة للاخطاء التي نجدها في الحوليات، والتي يقع فيها اي باحث يعتمد فقط على ما تورده هذه الحوليات والتراجم، دون الرجوع الى الوثائق التي دونها معاصرون بصرف النظر عن هوياتهم، والتي لا توفرها لنا سوى المراسلات الدبلوماسية.

٧ ــ الكتابة عن الاوضاع التعليمية المحلية او الاجنبية لا توجد في توسع كما توجد في «الوثائق الدبلوماسية».

٨ ــ المعاهدات والاتفاقات وصلتنا عن طريق التقارير الدبلوماسية بصورة خاصة، وهذه تكاد تكون معدومة في غير هذه المصادر.

٩ ــ صحيح ان للسفير او القنصل في بعض الأحيان وجهة نظر، لكنه من الضروري أن نعرف وجهة نظره، فاذا تكلم سفير او قنصل فرنسي عن النصارى وكان موقفه مناقضا لمواقفهم، فهذا يعني ان لرأيه قيمة، وان كان في بعض الاحيان يمكن اخذها بعين الحذر عند كلامه عن طوائف اخرى، وتعدد وجهات النظر امر ضروري لكتابة التاريخ.

١٠ ــ تزودنا التقارير الدبلوماسية بمعلومات عن الحالة الدينية وتوزيع الطوائف في مختلف انحاء المقاطعات الشمالية والجنوبية وقدرات كل منها.

١١ ــ تضمنت عشرات الاحصاءات عن حجم ونوع السلع المصدرة والمستوردة، وانظمة البيع والشراء، واسباب تحول السكان عن انتاج احدى السلع الزراعية الى غيرها. علما بان العديد من التقارير كانت قد دونت استجابة لاستفهام المسؤولين في باريس ومرسيليا عن شؤون استراتيجية في بلادنا، وقد حرص السفراء والقناصل على نقل الحقيقة كما لمسوها، الى حد انهم يؤكدون احيانا ما ينقلون لرؤسائهم.

واخيرا، استطيع التأكيد باننا لايمكننا الاكتفاء بسجلات المحكمة الشرعية «كمصدر شبه وحيد» لاني لا اعتقد بانها تتضمن كل شيء، فهذا ما يرفضه كل منطق، وان نشر الوثائق المحلية ــ لكن بشرط ان يتم ذلك وفقا للاسلوب العلمي ــ الى جانب الاجنبية يعطي هذا العمل مادة كاملة لاعادة كتابة تاريخ هذه البلاد.

وفي الختام، لايسعني سوى ان اوجه شكري للزملاء الكرام، راجيا ان يتسع صدرهم لهذه الملاحظات، والعمل على اعادة النظر في منهجية اسلوب هذا النشر خدمة للعلم والتاريخ. ●

※ الشاشيه: ضريبة استحدثها الأمير يوسف الشهابي على مشايخ الدروز، بأن وزع شاشات للف العمائم وفرض عليهم شرائها بالسعر الذي حدده.

الهوامش

(١) خالد زيادة، عمر تدمري، فردريك معتوق: من تاريخ لبنان الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وثائق المحكمة الشرعية بطرابلس، السجل الاول ١٠٧٧ ــ ١٠٧٨هـ/ ١٦٦٦ ــ ١٦٦٧م، منشورات الجامعة اللبنانية، طرابلس، ١٩٨٢.

(٢) ارشيف وزارة الخارجية الفرنسية، المراسلات التجارية والقنصلية مجموعة C.C.C. (Constantinomple) مجلد رقم ٨٣، تاريخ ١٣/٩/١٨٢٧، رقم ٤٥.

(٣) رسالة من سليمان باشا والي صيدا (١٨٠٥ ــ ١٨١٩) الى شارل غينر قنصل فرنسا في طرابلس، أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية مجموعة المراسلات السياسية (C.p. Turquie) مجلد رقم ٣٢ تاريخ / ٢١ شوال ١٢٢٧هـ.

(٤) رسالة من امير جبل الدروز يوسف الشهابي (١٧٧١ ــ ١٧٩١) الى ملك فرنسا لويس السادس عشر (١٧٧٤ ــ ١٧٩١) من مجموعة دار الوثائق القومية في باريس (A.E.B1)، مجلد ١٠٣٦، قنصلية صيدا.

(٥) رسالة من القنصل الفرنسي في صيدا الى رؤسائه في باريس، مترجمة من الباحث، دار الوثائق القومية في باريس مجموعة (A.E.B1 Seyde) مجلد رقم ١٠٢٤ تاريخ ١١/٢/١٧٣٧.

(٦) رسالة من القنصل الفرنسي في صيدا الى رؤسائه في باريس، مترجمة من الباحث، دار الوثائق القومية في باريس، مجموعة (A.E.B1 Seyde) مجلد رقم ١٠٣٥ تاريخ ٢٨/٦/١٧٧٢.

(٧) A.Ismail, A, Documents... t.4. pp. (162-164).

(٨) ارشيف وزارة الخارجية الفرنسية، مجموعة المراسلات التجارية والقنصلية (C.C.C. Tripoli: Le Nivose an 14 (25/12/1805))، مجلد رقم ١٣.

(٩) A. Ismail. Op.Cit., t. 4. pp. (202 et 361).

(١٠) Ibid. p. 165.

(١١) Ibid. p. 219.

(١٢) عادل اسماعيل: «تاريخ لبنان تغيرت المائدة والصحن»، جريدة النهار، تاريخ ٥/٦/١٩٧٧.

(١٣) الامير حيدر الشهابي: الغرر الحسان في أخبار ابناء الزمان، مخطوط نشره اسد رستم وفؤاد افرام البستاني تحت عنوان «لبنان في عهد الامراء الشهابيين، بيروت، الجامعة اللبنانية، ١٩٦٩ ٣ اجزاء، انظر ج ١ ص (١٣ ــ ١٤).

(١٤) A. Ismail. Op.Cit., t. 1 pp. (88-101).

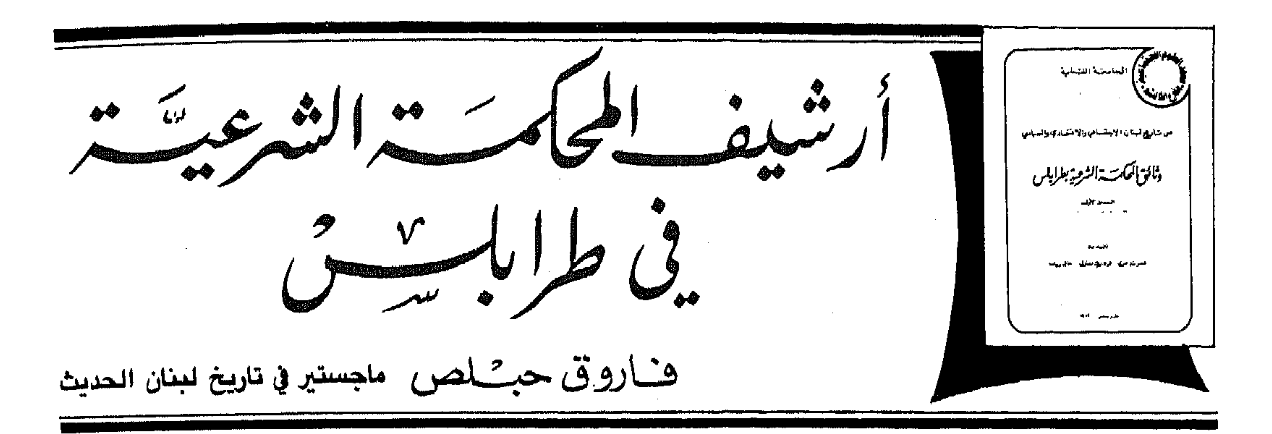
(١٥) الغرر الحسان، مصدر سابق، ص ٣٢.

(١٦) المصدر نفسه، ص (١٢٧ ــ ١٢٩).

(١٧) اخبار الاعيان في جبل لبنان، نشره فؤاد افرام البستاني، بيروت، الجامعة اللبنانية، سنة ١٩٧٠، جزءان، انظر ج ٢، ص ٣٤٠.

(١٨) الحركات في لبنان الى عهد المتصرفية، (لا.ب)، ١٩٥٢، انظر ص ٢٢.

(١٩) A. Ismail. Documents... op.cit., pp. (381-384).



أرشيف المحكمة الشرعية في طرابلس

فاروق حبلص ماجستير في تاريخ لبنان الحديث

عندما تشتدّ المحن على الأمم، تنبري أقلام المفكرين على اختلاف مذاهبهم واختصاصاتهم، لتفند أسباب المحنة، وتخط الحلول المختلفة، أملاً في الوصول إلى شاطىء الخلاص وبر الأمان. وفي الآونة الأخيرة، بدا للعديد من المؤرخين، أن تسليط الأضواء على تاريخنا الاجتماعي والاقتصادي، من شأنه الكشف عن الجذور التاريخية العميقة لمسار تطور تاريخ بلادنا، وإزاحة الستار عن خلفيات مشاكلنا ومعضلاتنا الاجتماعية المستعصية، تمهيداً لاستئصالها من جذورها وتخليص المجتمع من براثن شرورها ومضار آفاتها. ومع تزايد عدد أتباع هذه المدرسة، تزايدت عملية التفتيش عن وثائق وأصول تكون الدعامة الأساسية لآرائهم، والمصادر الرئيسية لاستقصاء مادة حديثهم وكتاباتهم. ولما كانت سجلات المحاكم الشرعية، الموروثة عن العهود العثمانية، تضم العديد المنوع من وثائق التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، فقد احتلت المركز الأول في سلم اهتمامات المؤرخين والباحثين الذين انكبوا عليها يستقرئون وثائقها لترفد أبحاثهم بدقائق الأمور وحقائق الوقائع. فظهر العديد من الدراسات التاريخية التي اعتمدت سجلات محاكم حلب ودمشق وصيدا، وكان من المبرزين في هذا المجال الدكتور انطوان عبد النور والدكتور عبد الكريم رافق.

ولم تنل محكمة طرابلس الشرعية قسطاً من الاهتمام كما نالت مثيلاتها في سائر مدن بلاد الشام، إلّا في السنوات الأربع الأخيرة، على أيدي طلبة الدراسات العليا في التاريخ. فقد قام بعض هؤلاء الطلبة باكتشاف المادة التاريخية الغزيرة التي تحويها سجلات هذه المحكمة، وتمكنوا بهدي وإرشاد الأساتذة المشرفين على رسائلهم، من رسم خطة واضحة لكيفية الاستفادة من هذه السجلات، فأتت أبحاثهم ناجحة، ونالت تقدير الجامعة اللبنانية التي منحتهم الشهادات العلمية نتيجة عملهم هذا. وأذكر في هذا المجال دراستي: «تاريخ طرابلس الاجتماعي والاقتصادي ١٨٩٠ ــ ١٩١٤»، ودراسة قاسم الصمد: «تاريخ الضنية»، ودراسة أنيس الأبيض: «الحركة العلمية في طرابلس»، ودراسة محمد جابر حسين: «مرفأ طرابلس في النصف الأول من القرن الثامن عشر». وتجدر الاشارة هنا، إلى أن سجلات المحكمة الشرعية في طرابلس، لفتت اهتمام الدكتور أسد رستم، فأخذ صوراً عن السجل ٤٨ وأودعها مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت، وهي لا تزال محفوظة فيها تحت رقم (Ms. 956. 9BLLLbA)؛ كما أن أغناطيوس الخوري قد اطلع على جزء يسير من هذه السجلات إبان كتابته تاريخ بربر آغا متسلم مدينة طرابلس (١٨٠٠ ــ ١٨٣٣م).

وعندما كنت عام ١٩٧٩ بصدد تحضير شهادة الماجستير حول تاريخ مدينة طرابلس، طلب مني الدكتور المشرف آنذاك، سمير الصيقلي، الذهاب إلى المحكمة الشرعية في المدينة، والتنقيب في سجلاتها القديمة العثمانية. فلبيت الطلب، وأطلعت على السجلات ولمست تردي حالتها، ورأيت وجوب العمل على انقاذها، لما وجدت فيها من معلومات تاريخية قيمة. فرأيت في الحاج فضل المقدم، الرجل المقدام لمثل هذه

المهمة، وبادرته الحديث بشأنها، فأبدى الغيرة والهمة اللازمتين، فرصد قيمة ألف ليرة لبنانية، ووعد بمبالغ أخرى يجمعها من ذوي الغيرة لتغطية نفقات المشروع. ثم تباحث مع رئيس المحكمة الشرعية فضيلة الشيخ ناصر بصفته المسؤول الأول عن السجلات، وبدوري طرحت عليه الفكرة، فأظهر اهتماماً واستعداداً للمشاركة في تأمين مستلزمات المشروع. وأخيراً عمل الحاج فضل ياسين المقدم على تشكيل رابطة إحياء التراث الفكري في مدينة طرابلس، للعمل على انجاز المشروع، وكانت له رئاستها، وللأساتذة د. عمر تدمري؛ وفريديريك معتوق ود. خالد زيادة عضويتها. فباشرت العمل في الصيف الماضي، وأنجزت تصوير قسم لابأس به من السجلات. وبعد ذلك تولى معهد العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية الفرع الثالث، مهمة نشر مئات النسخ عن مصور السجل الأول، على شكل مجلد يضم مقدمة من وضع الدكاترة الثلاثة المذكورين، ووثائق السجل رقم ١. إلا ان هذا العمل لم يأت بالنتيجة المتوخاة؛ ونظراً لافتقاره إلى التدبير والتخطيط والاطلاع المسبق على محتويات السجلات، فقد اقتصر فقط على تصوير الوثائق وتجليدها على نحو ما هي عليه في السجلات الأساسية، حتى دون فهرستها. فالسجلات تحتاج إلى المزيد من الترتيب، حيث تتيسر الاستفادة منها على غرار ما نجده في سائر دوائر المحفوظات والأراشيف. فهي تنتظر قيام الذين عمقوا إطلاعهم في وثائقها بتصنيفها مجدداً بصورة مختلفة عما هي عليه، ولكن دون إلحاق الضرر بتسلسلها التاريخي. فتعطي كل فرمان مثلاً عنواناً يحمل اسم موضوعه، ثم تصنف الفرمانات والبيورلديات(1) الواردة في كل سجل في جزء واحد يحمل رقم هذا السجل، وتجمع الأجزاء كلها في مجلد واحد يأخذ إسم (مجلد الفرمانات والبيورلديات)، ثم يختتم المجلد بفهرسته للموضوعات. وهكذا يصار إلى العمل بشأن الحجج الأخرى، فتتضح المعلومات الواردة في هذه السجلات، ويسهل على الباحث الوصول إليها بالسرعة اللازمة والاستفادة منها، وإلا ما فائدة تصويرها؟. وكذلك يصار إلى شرح المفردات العامية التي ترد في وثائق هذه السجلات، وإعطائها مدلولاتها الحاضرة، حتى لا يقع الذين ينوون الاطلاع عليها في إشكالات تفسيرها.

ولكن ما هي محتويات أرشيف المحكمة الشرعية في طرابلس، وماذا تضم من مادة تاريخية لتمثل هذه الأهمية لدى المؤرخين والباحثين؟

كان أرشيف المحكمة الشرعية في طرابلس يحفظ كامل السجلات العائدة لفترة الحكم العثماني والمتعلقة بالمدينة وملحقاتها. إلا ان القسم الأكبر منها قد التهمته ألسنة اللهب أثناء حريق السراي الحكومي عام ١٩٧٦، فلم يبق منها إلا النذر القليل. وقد ذكر لي الشيخ عبد اللطيف الرفاعي، أحد موظفي المحكمة الشرعية في طرابلس، أن عدد سجلاتها قبل حريقها كان يفوق الحصر؛ كما شاهدت بأم عيني قسما كبيرا من السجلات المحروقة. وبفضل المولى عز وجل، استطاع بعض موظفي المحكمة الشرعية الغيورين، إنقاذ قسم كبير منها، فساهموا بذلك بأعظم ما يمكن أن يقوم به المحافظون على التراث، ونالوا التقدير والشكر والاكبار من طلبة العلم.

وسوف نسلط الأضواء على ما تبقى من هذه السجلات. فقد بقي منها (١٠٤) سجلات تغطي معظم مراحل تاريخ المدينة في المرحلة الممتدة بين الأعوام (١٠٧٧ ـ ١٣٣٩هـ) ـ (١٦٦٦ ـ ١٩١٨م)؛ هذا بالاضافة إلى سجل اعلامات الطلاق والدعاوي العائلية لسنة ١٣٢٧هـ ـ ١٩٠٩م وسجل الإذنامات الشرعية للأعوام ١٣٣٤ ـ ١٣٤١هـ. تتضمن هذه السجلات حججاً متفرقة متنوعة تتعلق برعايا الدولة العثمانية في طرابلس على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم، وتشرح أمور الطلاق والميراث والزواج والتوكيل والوقفيات وايجارات الأملاك المبنية والعقارات الزراعية والقسمة والافراز والبيع، هذا بالاضافة إلى ما تتضمنه من فرمانات وبيورلديات، وهي عبارة عن قوانين ومراسيم صادرة عن الباب العالي والمشيخة الاسلامية وولاة طرابلس. كما نجد فيها فرمانات تعيين الموظفين على اختلاف فئاتهم ورتبهم. وقد جاءت هذه الوثائق على تنوعها مبعثرة بين صحائف

السجلات دون أي ترتيب أو تصنيف. فقد نجد حجة إبراء فحجة بيع فحجة قسمة فحجة بيع، فحجة طلاق فحجة تحرير تركة، وقد يتوسط هذه الحجج حجة التزام أو فرمان أو ببورلدي. كما نجد هذه الحجج مذيلة بامضاء أصحاب العلاقة وبتصديق الشهود، مما يدل على أنها كانت تدون تباعاً، ولدى صدورها مباشرة، خاصة، وأنها احتفظت بأرقام تسلسلها في السجلات. فلو كان تدوينها يتم في وقت لاحق لصدورها، لوجدناها مصنفة على الأقل[٢]. وقد نجد أحياناً فرماناً صادراً بتاريخ معين ومدونا في السجل بعد حجج لاحقة لتاريخ صدوره، لكن ذلك لا يعزى إلى تأخر مقصود في تدوينه، بقدر ما يمكن رده إلى تأخر وصوله الى طرابلس، نظراً لبعد المسافة وبطء المواصلات بينها وبين اسطنبول. وقد يتعذر أحياناً على الوالي دخول المدينة أثناء الثورات والانتفاضات، فيضطر عندها الى تدوين البيورلديات التي أصدرها والفرمانات التي تلقاها من الباب العالي أثناء غيابه عن المدينة في تواريخ لاحقة لتواريخ اصدارها.

وعلى الرغم من ذلك كله، تبقى هذه السجلات المصدر الأساسي الذي يحوي وثائق هامة تمكن الباحث المؤرخ بفضل غناها وشموليتها من أن يستخلص التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لمدينة طرابلس ابان القرون الثلاثة الأخيرة من مراحل الحكم العثماني فيها. فنلاحظ مثلا من خلال السجلات العلاقة التي ربطت ولاية طرابلس مع سائر ولايات بلاد الشام وخاصة ولايتي صيدا ودمشق. فقد ظلت طرابلس طيلة القرن الثامن عشر[٣] تشكل ولاية مستقلة[٤]. وعلى إثر وفاة واليها حسن باشا عام ١٧٩٤م، ارتبطت طرابلس بولاية صيدا، بعد أن قام أحمد باشا الجزار ببسط نفوذه عليها وطلب من وجهائها اختيار متسلم عليها من قبله[٥]. ثم ظلت تتأرجح في تبعيتها بين صيدا ودمشق طيلة الربع الأول من القرن التاسع عشر[٦] عندما عادت عام ١٨٢٤ لتشكل ولاية مستقلة تولى عليها علي باشا الأسعد[٧]، وظلت كذلك حتى عودة بربر آغا متسلماً عليها مع مجيء الحملة المصرية عام ١٨٣١[٨]. وبعد عام ١٨٤٠ عادت طرابلس تتبع ولاية صيدا[٩] حتى عام ١٨٦٤ حيث ألحقت بولاية سورية[١٠]. وفي عام ١٨٧٨ أنشئت ولاية بيروت وكانت طرابلس تشكل إحدى ملحقاتها[١١]، وظلت كذلك على تبعيتها لولاية بيروت حتى خروج العثمانيين من سوريا عام ١٩١٨م.

بالاضافة الى ذلك تقدم هذه السجلات مادة تاريخية غزيرة تمكن الباحث من اجراء دراسات في النواحي التالية:

١ ــ دراسة من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية لمدينة طرابلس.

٢ ــ دراسة مناطق البترون وجبيل واللاذقية وطرطوس وحذور والشعرا وتلكلخ وجبة بشري والزاوية والكورة من النواحي الادارية ومن حيث تطبيق نظامي الالتزام والاقطاع في هذه المناطق وبناءً على حجج التزام ضرائبها التي نجدها مدونة في سجلات المحكمة الشرعية. أما النواحي البشرية والاقتصادية والاجتماعية في هذه المناطق، فلا يمكن دراستها من سجلات طرابلس[١٢]؛ وذلك أنه منذ البداية كان للاذقية وطرطوس محاكمها الشرعية حيث تقاضى سكانها في أمورهم الشرعية، وحيث كانت تدون حجج الطلاق والميراث والقسمة والقضايا المدنية. وكذلك كان سكان جبيل والبترون وبشري والكورة والزاوية لا يتقاضون في طرابلس إلا نادراً، بل يكتفون بالتقاضي لدى مشايخهم ورجال الدين في مناطقهم. ولكن ارتباط هذه البلاد بطرابلس، مركز الولاية، يلقي الضوء على إدارتها وسياسة حكامها الذين كانوا يحصلون على بيورلديات تعيينهم في وظائفهم من واليها. أما الضنية وعكار، فقد ظلت السجلات تعكس أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية حتى منتصف القرن التاسع عشر عندما أصبح لكل منها محكمة شرعية كما يتضح من السجلات عينها[١٣].

٣ ــ أوضاع الزراعة عامة واختلاف أنواع المزروعات حسب مراحل التاريخ وأماكن انتشارها في مناطق عكار وطرابلس والضنية فقط.

٤ ــ الدخل اليومي للفرد وتوزيع الثروات الاقتصادية.

٥ ــ نشوء وتطور أشكال الملكيات الزراعية.

٦ ــ نشوء ونمو وانحطاط نفوذ بعض

العائلات في طرابلس وعكار والضنية.

٧ ــ الأوضاع القانونية والاجتماعية والاقتصادية لمختلف الطوائف في طرابلس وعكار والضنية.

٨ ــ إعطاء إحصاء تقريبي عن التوزيع الطائفي في طرابلس وعكار والضنية وعن أعداد السكان والعلاقة المتبادلة بين هذه الطوائف.

٩ ــ علاقة طرابلس مع التجار الأجانب، وعلاقاتها التجارية مع مصر وحلب ودمشق بصورة خاصة.

١٠ ــ النشاط الاقتصادي لرعايا الدول الأجنبية في طرابلس وخاصة الفرنسيين والبريطانيين.

١١ ــ علاقة بعض العائلات الطرابلسية مع جوار مدينتهم في جبل لبنان وخاصة ابان فترة حكم بربر آغا في طرابلس والأمير بشير الثاني في الجبل.

١٢ ــ إعطاء فكرة واضحة عن التوزيع الفئوي والعلاقة المتبادلة بين مختلف فئات السكان.

١٣ ــ إعطاء فكرة واضحة عن النشاطات الحرفية في طرابلس وكيفية تنظيم كل حرفة.

١٤ ــ إعطاء فكرة عن التطبيق العملي للقوانين والتنظيمات العثمانية، والوقوف على مقدار تمتع الفرد بحقوقه المشروعة وقسطه من العدالة والحرية والمساواة في هذه المناطق ابان الحكم العثماني.

وفي سبيل الاستفادة من هذه السجلات والتمكن من كتابة هذه المواضيع، يتوجب على المؤرخ الباحث أن يتبع منهجاً سليماً للتعامل مع ما ورد فيها من وثائق، مع الأخذ بعين الاعتبار الأمور التالية:

ــ تسلسل وثائقها من حيث تواريخها اليومية مما يساعده على ضبط تواريخ الظواهر والأحداث

التي يدرسها. إلا ان خطأ ترقيم السجلات يضطر الباحث الى اهمال أرقامها والاهتمام فقط بتواريخ صحائفها حتى لا يقع بإشكال تاريخي.

— إن وثائقها تتضمن التاريخ الخام وتقدم مادة تاريخية لا ريب بنزاهتها وخلوها من التزوير. وتبقى هذه الايجابيات مفيدة للمؤرخ شرط ابقائها في إطار حجمها حتى لا تقوده إلى التسليم المسبق بكل ما يرد في هذه الوثائق؛ فعليه التدقيق في الوثيقة قبل الاقرار بصحة ما يرد فيها، مع الأخذ بعين الاعتبار ثقافة كاتبها ومقصده، ووضع كلماتها في مدلولاتها التاريخية التي يمكن أن تخالف مدلولاتها الحاضرة. فنجد على سبيل المثال وثيقة في أحد هذه السجلات تأتي على ذكر «العونيات» و«زقاق الحمص» على انها محلات من طرابلس[١٤]، وقد تبنى البعض هذا التصنيف على علاته دون تحقيق ولا تدقيق[١٥]. وهنا أرجح أن كاتب الوثيقة وقع في خطأ لا يجب أن يقودنا إليه، فزقاق الحمص والعونيات هي أحياء أو حارات من محلة الحدادين، وليست محلات قائمة بذاتها، إنما أوردها كاتب الوثيقة على انها أماكن ومحلات يختص كل منها بحرفة معينة.

تبقى إشارة أخيرة لابد من التوقف عندها ولو قليلاً. فهذه السجلات تمكن الباحث بما ورد فيها من وقائع وأحداث لا ريب بدقتها وصحتها، من تمثل الواقع المعاش آنذاك، ومن تلافي تحوير الحقائق والوقائع التي وردت عند بعض المؤرخين وكتبة المذكرات. إلا انها لا تكفي وحدها لمعرفة الخفايا المؤثرة في تاريخ المدينة، فهنالك مخططات الولاة والوجهاء والمتنفذين من أبناء المدينة، وهناك المؤامرات والدسائس التي حاكها ممثلو الدول الاوروبية في طرابلس، وغيرها من الأمور التي لا نجدها في السجلات، وإن وجد بعضها فهو لا يتعدى التلميح والاشارة العابرة. لذلك يجب علينا، لكي يأتي بحثنا محيطاً وشاملاً لجميع النواحي، البحث عن هذه الخفايا التي

تمكننا من تفهم ما ورد في السجلات، في مذكرات ذوي المكانة والمعرفة لمجريات عصرهم، الذين تمكنوا بطبيعة عملهم كموظفين كبار، من معرفة هذه الخفايا، كنوفل نوفل الطرابلسي مثلا الذي وضع مخطوطا بعنوان «كشف اللثام عن محيا الحكومة والحكام».. حيث أسهب في ذكر أحداث عصره. وكذلك علينا اللجوء إلى المحفوظات الملكية التي وضعها أسد رستم، والتي تحفل بذكر أحداث طرابلس طيلة مراحل الحكم المصري فيها. أما أقوال ومراسلات قناصل الدول الأجنبية في طرابلس، فهي حافلة بأحداث المدينة، وتمكن به الباحث، بما فيها من تعليلات، من الوقوف على وجهة نظر كل من الدول الغربية، فرنسا وروسيا وايطاليا وبريطانيا، في تاريخ طرابلس وسكانها. وقد قام الدكتور عادل إسماعيل بنشر جزء لابأس به من وثائق قناصل الدولة الفرنسية في سوريا بمصنف يضم واحداً وعشرين مجلداً تتحدث أغلبها عن مدينة طرابلس[١٦]، وتساعد الباحث بما تضم من احصائيات وجداول بأعداد السكان وأنواع المنتجات الزراعية والصناعية وبما تحوي من جداول بأنواع الصادرات والواردات من وإلى مرفأ طرابلس[١٧]. ●

الهوامش

(١) الفرمان يصدر عن السلطان وهو بمثابة مرسوم في يومنا الحاضر، أما البيورلدي فهو يصدر عن الوالي وهو بمثابة قرار في يومنا الحاضر.

(٢) ورد في مقدمة المصدر الأول لوثائق المحكمة الشرعية في طرابلس منشورات الجامعة اللبنانية معهد العلوم الاجتماعية الفرع الثالث، طرابلس ١٩٨٢، أن هذه الوثائق كانت تدون في وقت لاحق لصدورها ومتأخر عنه. ينظر الصفحة (ج) من هذا المصدر.

(٣) ورد في مقدمة المصدر الآنف الذكر أن طرابلس أصبحت في مطلع القرن الثامن عشر تابعة لولاية دمشق. ينظر الصفحة (أ) من المصدر عينه.

(٤) سجلات المحكمة الشرعية في طرابلس: سجل ٥ صفحة ٢٧ وسجل ٦ صفحة ١٧٥ وسجل ٧ صفحة ٨٧ وصفحة ٢٨٨ وسجل ٨ صفحة ١ وصفحة ٢١٦ وصفحة ٢٧٣ وسجل ٩ صفحة ١٦٢ وسجل ١٠ صفحة ٨٣ وسجل ١١ صفحة ٢٣٦ وسجل ١٣ صفحة ٣٠٨ وصفحة ٣ وصفحة ١١٠ وسجل ١٤ صفحة ١٣٠ وسجل ١٥ صفحة ٢٥ وسجل ١٩ صفحة ١٦٧ وسجل ٢٠ صفحة ٥٣ وسجل ٢٣ صفحة ١ وسجل ٢٥ صفحة ٣٠ وسجل ٢٦ صفحة ١٤ وسجل ٢٧ صفحة ١٥٣ وسجل ٣١ صفحة ٧٧ وسجل ٣٢ صفحة ١٢٥ وصفحة ١٢٦ وسجل ٣٣ صفحة ٢٠٠.

(٥) سنة ١٢٠٩هـ ـ ١٧٩٤م بعد وفاة حسن باشا والي طرابلس بسط الجزار نفوذه عليها وطلب من أبنائها أن يختاروا واحدا منهم ينصبونه متسلما عليها من قبل الجزار. السجل ٣٤ صفحة ١٦٦.

(٦) في عام ١٢١٦هـ ـ ١٨٠١م بسط عبد الله باشا والي الشام نفوذه على طرابلس. سجل ٣٦ صفحة ٣٢. ثم عادت طرابلس في عام ١٢١٨هـ ـ ١٨٠٣م لتتبع والي صيدا أحمد باشا الجزار. سجل ٣٦ صفحة ١٤.

(٧) سجل ٤٩ صفحة ٥٨. وأغناطيوس الخوري: مصطفى آغا بربر، مطبعة الرهبانيات المارونية، بيروت ١٩٥٧ صفحة ١٩٢.

(٨) سجل ٥٩ صفحة ١٠.

(٩) سجل ٥٦ صفحة ٣٠ وسجل ٥٨ صفحة ١٧١ وسجل ٦٩ صفحة ٣٥١.

(١٠) سجل ٧٢ صفحة ١٣١.

(١١) عبد العزيز عوض الادارة العثمانية في ولاية سوريا. دار المعارف بمصر، صفحة ٦١ ـ ٦٦.

(١٢) ورد في مقدمة المصدر الأول الآنف الذكر أن سجلات المحكمة الشرعية في طرابلس تمكننا من دراسة النواحي الاجتماعية والاقتصادية. ينظر الصفحة (ب) من هذا المصدر.

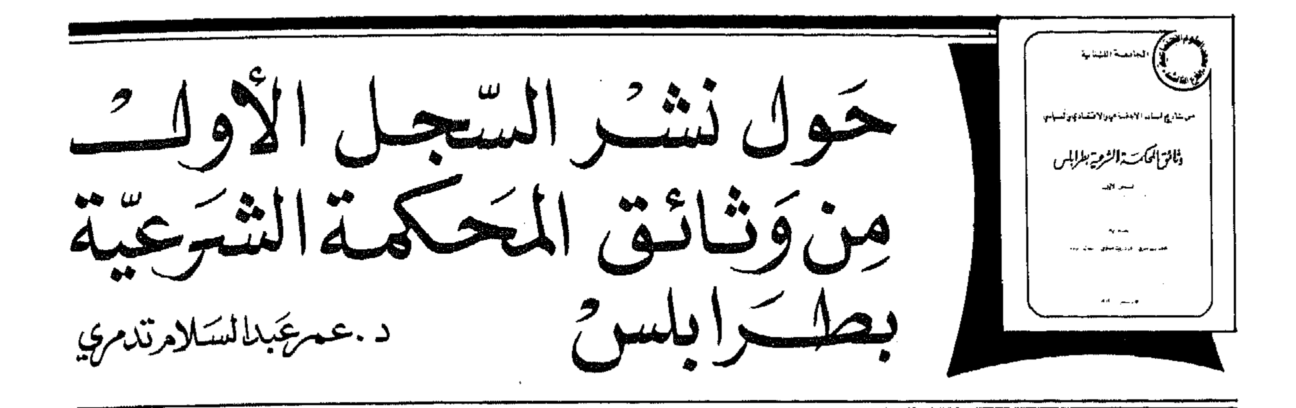
(١٣) سجل ٦٦ صفحة ٣٠٩ وسجل ٧٧ صفحة ٢٥٩ وصفحة ٣٥٥.

(١٤) سجل ٢ صفحة ٧٢.

(١٥) ورد في مقدمة المصدر الآنف الذكر أن العونيات وزقاق الحمص هي محلات: ينظر الصفحة (ب) من هذا المصدر.

(١٦) ورد في مقدمة المصدر الآنف الذكر أن مجلدات وثائق القنصلية الفرنسية التي جمعها عادل اسماعيل لا تتحدث جميعها عن طرابلس، بل ان المجلدات الثالث والرابع والخامس فقط تتحدث عن المدينة في مرحلة القرن التاسع عشر. أما المجلدات التي تتناول تواريخ سابقة لهذا الزمن فلا تتحدث عن طرابلس على حد زعم واضعي المقدمة. ينظر الصفحة (و) من هذا المصدر.

(١٧) Adel Ismail: Documents Diplomatiques et Consulaires Rélatifs à L'histoires du Liban. Beyrouth 1976. Tomes: 3- 4- 5- 6- 7- 8- 9- 10- 15- 16- 17- 19- 20.



حول نشر السّجل الأول من وثائق المحكمة الشرعيّة بطرابلس

د. عمر عبد السلام تدمري



منذ ان اصدر «معهد العلوم الاجتماعية ــ الفرع الثالث» في الجامعة اللبنانية، السجل الاول من سجلات محكمة طرابلس بعنوان «وثائق المحكمة الشرعية بطرابلس» في اواخر السنة المنصرمة ١٩٨٢، بدأت التعليقات وردود الفعل تظهر عند الباحثين المهتمين بهذا النوع من الوثائق، ولم تنته بعد، فالتوقعات كثيرة، والمجال مفتوح لكل الناقدين والمنظرين والمحققين والباحثين. ومهما كانت ردود الفعل، سلبية كانت ام ايجابية، فان هذا يعني ان العمل وجه اليه الانظار، وهذه ظاهرة صحية ولا ريب، والمنطق يقول ان من يعمل عليه ان يتوقع النقد والثناء معا، ومن لا يعمل يظل قابعا خاملا في زوايا النسيان.

ولست هنا في معرض الرد والتعقيب على ما تفضل وادلى به السادة الباحثون والمهتمون بالدراسات الوثائقية، كتابة او مشافهة، حول نشر السجل الاول فلكل رأيه الذي احترمه، ولكن اود ان اشير الى النقطتين التاليتين:

١ ــ ان ناشري السجل لم يدعوا لانفسهم شرف «تحقيق ودراسة» السجل، بل قاموا بالـ«تقديم» بين يدي السجل المصور بمقدمة متواضعة لاعطاء فكرة عن اهمية وثائق المحكمة الشرعية بطرابلس، ولذا لم يكن متوجبا عليهم التعريف بمعنى «تاسومه» و«منتان»!!

كما لم يدع الناشرون انهم سينشرون اكثر من مائة سجل ــ وليس سبعين سجلا ــ دون تحقيق، لا في وقت قريب او بعيد.

٢ ــ ان عملية نشر السجل الاول مصورا دون تحقيق، والتي اعتبرها السادة الناقدون خطأ، ليست جرما خطيرا يرتكب ضد التراث، ولا بدعة انفرد بها الناشرون. فقد سبق لهيئات علمية معروفة، ولكثير من كبار المستشرقين ان نشروا كتبا تراثية مصورة هي اقدم تاريخا من سجلات محكمة طرابلس دون اي تحقيق، اذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر: «كتاب الانساب» للسمعاني المتوفي سنة ٥٦٢هـ، نشره المستشرق «مرجليوث» مصورا عن النسخة الخطية دون اي تحقيق، رغم رداءة خطوطها، وهو كتاب متداول بين أيدي الباحثين يرجعون اليه كمصدر أساس في هذا الفن. وكتاب «تاريخ دمشق» لابن عساكر المتوفي سنة ٥٧١هـ، الذي نشر منه مجمع اللغة العربية بدمشق مجلدا كاملا في سنة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٨م. وجاء في كلمة رئيس المجمع الدكتور حسني سَبَح التي صدر بها المجلد المصور ما يلي نصه:

«... فقد عزم مجمع اللغة العربية على ان ينشر، بطريقة التصوير، بعض المخطوطات العربية القيمة. وقد اختار لذلك طائفة من مخطوطات دار الكتب الظاهرية، ومما تحويه خزانته من مصورات كتب التراث الادبي والعلمي، الجيدة الخط.

... ويرجو المجمع، وهو يلبي الحاجة الماسة الى تداول كتب التراث ان يكون هذا الاسلوب في النشر، سببا من اسباب الاقبال على التحقيق، وتيسير وسائله بين ايدي المهتمين بالثقافة العربية دراسة وتحقيقا. وهو بعد ذلك، وسيلة من افضل الوسائل للتعرف الى طريقة الكتابة العربية، وما التزمه المؤلفون والنساخ العرب في مؤلفاتهم وكتبهم من ضروب النقط والشكل، لضبط

النصوص وسلامتها من التحريف والتصحيف، مما يمهد امام الناشئة العربية صلة بكتب التراث اوثق واشمل». (انتهى).

كتاب «القول المُسْتَظْرَف في سفر مولانا الملك الاشرف» لابن أبي الجيعان، المتوفي سنة ٩٠٢هـ. وقد نشره المستشرق «ريو دلفو لانتزونه» في تورينو بايطالية سنة ١٨٧٨ مصورا عن النسخة الخطية مع مقدمة دون اي تحقيق...

ومثل ذلك كثير.

بقي ان اتوجه الى السادة الناقدين والمنظرين، لمجرد النقد والتنظير، ممن استفادوا من سجلات المحكمة بطرابلس في تحضير رسائلهم الجامعية في السنوات الاخيرة، وابقوا عليها مهملة معرضة للتلف والتشويه والضياع، للتخفيف من لهجة نقدهم وتحاملهم على الاساتذة ناشري السجل الاول، ولعدم التسرع في اتهامهم جزافا بانهم قاموا بتصوير بعض السجلات في فترة قصيرة دون دراسة او معرفة ما تحتويه من مادة علمية، اذ يكفي مدير معهد العلوم الاجتماعية في طرابلس الدكتور فردريك معتوق، والدكتور خالد زيادة الاستاذ في المعهد المذكور انهما تجنّدا في صيف الغزو الاسرائيلي للبنان، وعملا يوميا وطيلة شهرين على تصوير الثُّلث الاقدم والاهم من سجلات محكمة طرابلس، دون الاستعانة بأحد كذلك يكفي معهد العلوم الاجتماعية بشخص مديره، وكلية الاداب والعلوم الانسانية في طرابلس بشخص مديرها الدكتور عبد المجيد نعنعي أنهما أسهما في تحمل معظم الاعباء المالية، مع رابطة احياء التراث الفكري في طرابلس بشخص رئيسها واعضائها المؤسسين لتغطية هذا العمل الذي لم يتحرك احد لانجازه منذ وقت طويل.

اما القول بان الناشرين لم يدرسوا السجلات دراسة وافية قبل عملية التصوير الاخيرة، فاحيل قائله الى كتابنا «تاريخ واثار مساجد ومدارس طرابلس في عصر المماليك» فقد كنا اول من درس «من الجامعيين» تلك السجلات ولفت انظار الباحثين اليها في سنة ١٩٧٢. ●

انفجار مُدمّرة كِتشِنر

عمليّة خيانة أم حادث طبيعي!

شذا عدرة



سكابا فلو، الخامس من حزيران ١٩١٦. الرياح شديدة، والمياه مضطربة. الساعة السادسة عشرة والدقيقة ٤٥، ظهرت البارجة هامبشاير والمدمرتان فيكتور وأونيتي. ضاعفت العاصفة من شدتها. واهتزت المدمرتان اهتزازا قويا لم تستطيعا معه متابعة الرحلة، فرجعتا الى قاعدتهما. اما البارجة فتابعت ابحارها الساعة ١٩ و ٤٠ دقيقة، اصطدمت بلغم واختفت خلال دقائق، تحت امواج بحر الشمال. بين القتلى الفيلد مارشال كيتشنر وزير الحربية. وقد اذهل النبأ الرأي العام البريطاني، الذي كان يعتبر كيتشنر بطلا قوميا. ثم سرت شائعات لم تكذب حتى الساعة، تقول ان كارثة البارجة هامبشاير ليست نتيجة صدفة من صدف الحرب، وانما هي عمل مدبر.

قبل كيتشنر، مع بداية عام ١٩١٦ ان يذهب الى روسيا، فقد كان مرهقا، وصارح بذلك الاميرال جلّيكو، ساعة صعوده الى البارجة. كان عمره ٦٦ عاما، وكان الطقس البريطاني يؤذيه، خاصة وانه مصاب بأدوار ملاريا وان جراحه القديمة تؤلمه. كما ان الصراع على السلطة كان يبدد قواه. لذلك كان بحاجة الى الراحة قبل ان يعود الى الصراع داخل مجلس الوزراء، وفي الواقع كان على كيتشنر أن يسترد هيبته التي أضاعها في مجالس الحكم.

كانت مهمة الذهاب الى روسيا سر مهرجين. فسفير الولايات المتحدة يبرق الى واشنطن: «ثمة امل هنا بان كيتشنر لن يعود من روسيا». فهل كان السفير يعلم اكثر مما ذكر في بريده



«بلادك تناديك» ملصق عليه صورة كيتشنر، استغلته الحكومة البريطانية لتشجيع الشباب للالتحاق بالجيش

الدبلوماسي؟ ومن كان في لندن يتمنى ألا يعود كيتشنر من روسيا؟

السين فين اولا (Le Sinn Fein)، فالمتطرفون الأيرلنديون، الذين كانوا يتعاونون مع الالمان، كان يعنيهم ان يقتل كيتشنر. كانت السين فين تعمل جاهدة على جمع مقتطفات من مذكرات خاصة، تزعم ان كيتشنر كان شاذا جنسيا. وكان

الهدف خلق ازمة وزارية تقسم البلاد، وتؤذي جهود الحكومة الحربية.

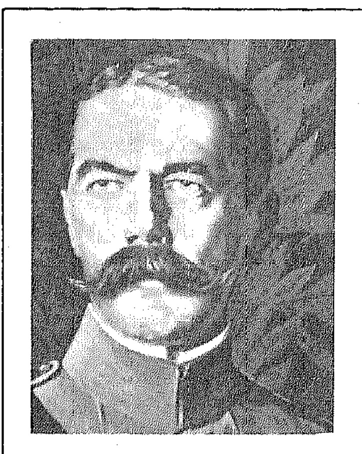
ولكن سكوتلنديارد افسدت اللعبة، وكانت تشرف، عن كثب، على الحمام اللندني، حيث يجتمع الجواسيس الالمان والايرلنديون، وهناك نقل احد عملاء السين فين الى جاسوس الماني نبأ المهمة الروسية، اي مهمة كيتشنر، محددا التاريخ ومكان الرحيل. كانت سكوتلانديارد على علم بالمسألة. وقد استجوب السير بازيل تومبسون العميل الذي حمل النبأ... ولكن، من اين كانت السين فين تستقي معلوماتها؟ حلفاؤها الالمان حاسمون في هذا المجال. وهم يؤكدون ان المصدر هو محيط لويد جورج.

كان دافيد لويد جورج يأمل في التخلص من كيتشنر، وان لا يعود من روسيا، فالرجلان اللذان لا يلتقيان على شيء، يكره بعضهما الاخر كرها شديدا. وكان لويد جورج يقود المعارضة ضد كيتشنر في قلب الحكومة. وكان قد حل محله في وزارة التسلح، ويطمح ال[illegible]كزه في وزارة الحربية، ويتطلع الى ان يخلف الو[illegible] الاول في ١٠ داوننغ ستريت. وذاك مالم يكن ليحدث ما دام كيتشنر حيا.

كان كيتشنر رمز ارادة الصراع لدى الشعب البريطاني، وكان ضروريا لكل تشكيلة وزارية، ولم يكن يقبل ان يدع مركزه للويد جورج، ولا أن يشترك في وزارة يرئسها، ومادام حيا فلا أمل للويد جورج ان يبلغ مركز السلطة.

من هنا كان الظن ان لويد جورج اسلم طوعا كيتشنر للالمان. مع العلم ان الوثائق الثبوتية غير ممكنة في هذا المجال، والتخمين من خلال الظواهر، هو الطريق الى الاتهام.

وكان لويد جورج، بطبيعة عمله في الوزارة، يعرف الكثير ولم يكن جديرا بكتمان الاسرار. وكان كيتشنر يقول عنه: «كل الوزراء يروون كل شيء لزوجاتهم، وللويد جورج العديد من النساء!». ولئن لم يكن ممكنا اتهام لويد جورج بمقتل كيتشنر فان من الواقع ان نقول انه لا يحفظ سرا.



من هو كيتشنر

هو هوراس هيربرت كيتشنر، ولد عام ١٨٥٠ قرب كيري في ايرلندا. درس في الكلية الفرنسية في جنيف، ثم التحق بكلية الهندسة الحربية في وولويش. كان الى جانب عائلته يوم اندلعت حرب ١٨٧٠، ومارس نشاطه العسكري الاول في فرقة الشواطىء الشمالية تحت امرة الفرنسيين.

جعل منه عمله كضابط متخصصا بالمعلومات المتصلة بالشرق الاوسط. عام ١٨٩٢ عين سيردارا، اي قائدا اعلى للجيش المصري. وكان عمره اثنتين واربعين سنة. ولم يكن هذا الجيش موجودا الا عى الورق. وكان لا بد من انشائه بكل جزء من اجزائه. وقد قاده الى السودان لينتقم لمقتل غوردن باشا، الذي قتل في الخرطوم وهو يحارب المهدي. وانتهت الحملة بانتصار ام درمان الذي جعل من كيتشنر ابرز رجل جماهيري في بريطانيا.

كان يكره الاوساط السياسية، ويحب العزلة. حارب البوير في افريقيا الجنوبية، واعاد تشكيل جيش الهند، وشكل الجيش الاوسترالي، واصبح حاكم مصر.

عين ١٩١٤، وزيرا للحربية لم يكن الجيش البريطاني مستعدا للحرب العالمية الأولى. وخلال ثلاثة أشهر تطوع لديه اكثر من مليوني بريطاني، وبذل جهودا مضنية لجعل هذه الكمية من الرجال فاعلة، مزودة بالسلاح الضروري. وكان كيتشنر يصطدم كثيرا بالسياسيين الذين لم يغفروا له برودته، وحقه في السرية. وتوصلوا الى نزع وزارة التسلح منه، ومهام رئاسة الاركان، فكر في تقديم استقالته، ولكنه افهم انها سترفض.

كان طويلا نحيلا، حنطي اللون، وكان لون عينيه ازرق فاتحا، وكان شارباه كثين ضخمين، يعرف بهما من بين المئات.

لفتة بطولية في حي مستر كنغ

الاحد، الرابع من حزيران، ذهب كيتشنر إلى «كنغ كروس» ليركب القطار الى ثورسو، التي سيبحر منها الى سكابافلو. وقد تلقى موظف وزارة الخارجية، الذي كان سيسلمه رقما سريا، الامر، بالهاتف، ان يذهب الى مار يبلبون، حيث لن يجد احدا حتما. وفي وقت الانتظار، كان كيتشنر يتسلق الرصيف بين جمهور المسافرين. اريد جعل رحلته مكشوفة، وقد تبين فيما بعد، أن السين فين هي التي تلفنت لموظف الخارجية.

وحين صعد كيتشنر الى سطح الايرون ديوك، تغدى مع السير جون جليكو، اميرال الاسطول. اقترح عليه السير جون تأجيل السفر الى اليوم التالي. ولما كان البحر شديد الاضطراب فان الذين يلقون الالغام في البحر لم يتح لهم القاؤها، لأنهم لم يستطيعوا الابحار. ولم تحرس مخارج سكابافلو. وكفت اثنتا عشرة ساعة لفتح الممرات. رفض كيتشنر الاقتراح.

مع ذلك، التقط الالمان اشارة، كررت ثلاث مرات، تعلم الاميرالية في لندن، ان الممر غربي الاوركاد نظف تماما، وكان ذلك غير صحيح. من الملفت هنا ان تلك الاشارة الروتينية المحضة ــ فالممر تعبره سفن الشحن، وهو عادة محروس باستمرار ــ قد نقلت الى لندن وكررت ثلاث مرات. فهل القصد ان يلتقطها الالمان؟

ولا يستبعد ان البحرية الملكية جربت بذلك ان توحي بان الهمبشاير ستتجه غربا. والواقع ان جيليكو كان يفضل الممر الشرقي، ولكن كيتشنر كان يتألم اشد الالم من دوار البحر. والممر الغربي محمي اكثر من الرياح، والابحار فيه اكثر راحة. وفي اللحظة الاخيرة غير الاميرال الاتجاه واختار الممر الغربي.

في عرض الهارويك هيد، اصطدمت الهامبشاير بلغم. دمرت غرفة الآلات، واشتعلت النار في البارجة. وخاطر المسؤول عن الدفة، فقبض على المقود، ووجه البارجة بحيث تغمر المياه مكان حفظ البارود حتى لا ينفجر. وكان الوقت كافيا لاخلاء البارجة من ركابها. وفيما كان الركاب يستعدون لمغادرة البارجة، كان ثلاثة يلبسون الكاكي، يصعدون الى جسر البارجة. كانوا: كتشنر ومساعده الكولونيل فتزجرالد والمترجم العسكري، الليوتنان ماك فرسون.

كان كيتشنر هادئا جدا، ولكنه كان متعبا ومريضا.

لم يجب الضباط الثلاثة على نداءات البحارة الذين كانوا يضعون المراكب في الماء لتكون تحت تصرف الركاب. ويقال ان كيتشنر تذكر البصارة التي قالت له يوم كان صغيرا: «ستموت غرقا». فهل كان يفضل الموت بين عباب البحر، على انتظار الموت البطيء. لم يوجد جسد كيتشنر ابدا، ولكن فرانك بور، بعد عشر سنوات، زعم ان جثة كيتشنر موجودة في تابوت في النروج. واحضر النعش الى لندن، فلما فتح وجد فارغا.

لقد غرقت هامبشاير على بعد كيلومترين من السواحل الاوركادية، وقد ابلغ المسؤول عن الانقاذ جورج تومبسون ساعة حدوث الكارثة، وكان في مدينة سرومنس، اقرب مدينة الى مكان الحادث. اتصل بسكابافلو، فقيل له ان يعني بقضاياه الخاصة. الخ، فاغلقت القاعدة خط الهاتف في وجهه. اسرع تومبسون الى سكابافلو ليرى قائد القاعدة، الكابتن ووكر. حدق ووكر فيه، وافهمه ان حركة البواخر الحربية تظل دائما سرية. وحتى لو غرقت بارجة فالمدنيون لا حق لهم في معرفة ذلك، او التدخل. وهدد بوضع تومبسون في السجن.

خلال هذا الوقت، كان اوركاديون يتوجهون الى مسرح الكارثة رغبة في التقاط الناجين ممن يستطيعون بلوغ الشاطيء رغم العاصفة القوية. ولكن جنودا بريطانيين كانوا هناك والسلاح في ايديهم ليمنعوهم المرور. فقد كان مع الجنود امر باطلاق النار على كل من يخرج الى ظهر البحر. وهكذا مات عدد من الناجين من البرد والتعب، لانعدام محاولات الانقاذ.

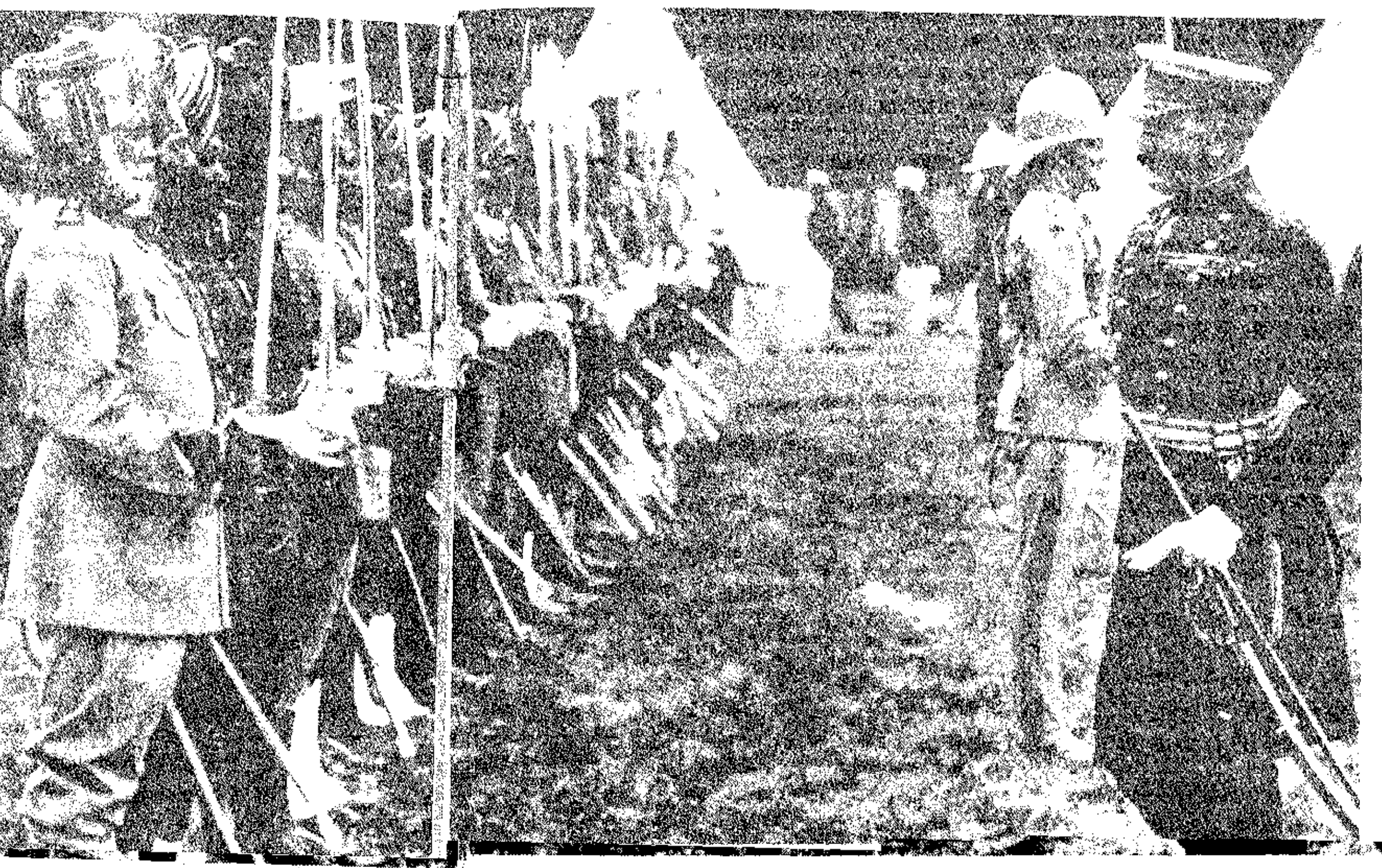
اذن، لم تنظم اية محاولة انقاذ. وجرى كل شيء كما لو كانت السلطات البحرية والعسكرية راغبة في التأكد من عدم بقاء احد على قيد الحياة.

عدم الجدارة... ام خيانة؟

ما زالت الاميرالية حتى اليوم تحتفظ بصمت مطبق حول كل ما يمس اخر رحلة لكيتشنر. اما



العدوان اللدودان لويد جورج وكيتشنر



كيتشنر يستعرض الجيش الذي جنده من الهنود، وزجه في الحرب العالمية الاولى، وكانت الهند مستعمرة بريطانية

الكتاب الابيض الذي وضع عام ١٩٢٦، ردا على بعض الحملات الصحفية التي قادها فرانك بور، فيتجنب المسائل الحقيقية. مع ذلك فالمسائل باقية، وهي الى ذلك مزعجة.

بماذا فكر السفير الاميركي حين كتب ان في لندن «املا، بل شعورا» بأن كيتشنر لن يعود من روسيا؟

كانت سكوتلنديارد تعلم تماما ان الالمان على علم بالامر، فلماذا لم تتدخل؟

لماذا تلقن السين فين لتأخير رحلة الكينغ كروس؟

كيف نفسر الاشارة التي بحسبها كان المعبر الغـربي منظفـا، في وقت لم يكن فيـه كـذلك. وما تعني ردود الفعل لدى السلطات البحـرية والجنود حين علموا بكارثة الهامبشاير.

تسري شائعة تقول ان السير جليكو، بعد برقيته الاولى التي اعلنت عن الكارثة، ارسل برقية أخرى عامرة بالتفاصيل التي لم تنشر ابدا على الملأ. والاميـرالية لا تنكـر ولا تؤكـد هذه الشائعات، لماذا؟

ثمة افتراضان متعارضـان: اما ان تكـون الكارثة حادثا، واما ان تكون خيانة.

الافتراض الاول يعني أنها كانت عملا حربيا عاديا، ووجود كيتشنر على ظهر البارجة محض صدفة. وبالتالي فان العدو كان يعلم ان كيتشنر سيسافر ذلك النهار، ولكنه لم يكن يعلم ولا يستطيع ان يتنبأ ان بارجته ستمر غربا لان القرار بالاتجاه اتخـذ في اخر لحـظة. والاشارة تغيـير حربي مفاجيء من اجل اعطاء معلومات خاطئة مضللة، وهـو امـر يفعله الاعـداء عـادة. وقد خـدعت سكوتلنديارد، خدعها جاسوس مزدوج. ويمكن تفسير موقف السفير بفظاظة كيتشنر التي اشتهر بها، مع كل زملائه من الوزراء. وكانت السين فين تصطاد في الماء العكر. ولما كان البشر يحبون نشر الغسيـل الوسـخ، فقـد قـررت الاميـرالية وسكوتلنديارد طمس الحادث نهائيا، أضف الى ذلك ان الالمان لم يدعوا القيام بالحادثة.

اما الافتراض الثاني، وهو ان الحادثة من تدبير الخيانة، فلها مبرراتها كذلك.

ولم يكن شيء يمنـع الالمان من ادعـاء قتل كيتشنر، وصمتهم لا يثبت شيئا. ولعل ادعاء قتله كان يمكن ان يكشف عملاءهم، ويعرقل نشاطهم.

جدار من الصمت

كذلك، لا يبرهن اختيار الم... الغربي المتأخر عن شيء. فلو كانت الها... ير اتجهت شرقا، فهل كانت ستجد ... حرا؟ من يستطيع ان يبرهن ان مخارج سكابافلو لم تكن مراقبة؟

اذا صح هذا الافتراض فان لويـد جورج او احدا من محيطه قد اعطى سر الرحلة الى السين فين، وهو على علم انها ستنقله الى الالمان. كان على لويد جورج نفسه ان يرحل الى روسيا، ولكنه اعتذر في اخر لحظة! هل كان السفـير الاميركي على علم بالمؤامرة، ولم يفصح عنها الا بطريقة مغلفة؟ وهل كانت سكوتلانديارد تعلم، ولكن الاوامر صدرت اليها بان تتـرك الامور تجري بطبيعتها، وحسب ما رسم لهـا، فنقلت عميلها الذي كان يعلم الكثير. كان الكابتن ووكر ينفذ الاوامر التي صدرت اليه من اعلى مستوى، هل كان الهدف احاطة المسألة بالفراغ؟ وهل قضى المسؤولون على الخيانة البرقية الثانية التي ارسلها السير جون جليكو؟

الافتراضان ينقصهما البراهين الحسية. ثمة ظلال كثيرة تعمّي على الحقيقة. ولكن من المؤكد ان السلطات البريطانية لا يعنيها كشف الحقائق، بل هي معنية بطمس كل المعلومات عن الكارثة.

اذن العناصر تنقصنا لكشف سبب الصمت، فهل سببه التستر على خيانة، او على عدم كفاءة؟ الواقع ان الوجهين مذلان ومخجلان بالقياس الى الاميرالية وسكوتلانديارد.

على كل حال، لقد عاش كيتشنر لغزا في سلوكه وحياته الخاصة، ومات كذلك لغزا.

●

مِن تاريخ المسألة الشرقيّة

العلاقات بين فخر الدّين الثاني وتوسكانا

غادة المقدّم عدرة



ولد الامير فخر الدين الثاني نحو عام ١٥٧٢ وتوفي عام ١٦٣٥م، حكم الامير سنة ١٥٩٠ ــ ١٦٣٣، وكان اهتمامه الاكبر استقلال لبنان، فشرع اولا بضم الامراء اليه، فحالف يوسف سيفا في الشمال، والشهابيين في وادي التيم، واخضع آل حرفوش في البقاع، والزعيم علي الجنبلاط، ثم احتل كسروان ومدينتي بيروت وصيدا، وبذلك امتدت امارته حتى بلغت صفد وعجلون.

جمع فخر الدين مالا كثيرا فصرفه على تعزيز الجند وبناء الحصون وتجهيزها بالمؤن والذخائر مما خوّف الاتراك منه وبدأ الباب العالي ينسق لمحاربته فكانت مواجهة بينه وبين والي دمشق سنة ١٦٠٦ استطاع فخر الدين ان يهزمه بها. الا ان الباب العالي لم يصبر على وضع الطريق البرية بين مصر والجزيرة من جهة والاستانة من جهة اخرى تحت رحمة امير الجبل. هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى هذه التطورات اعطت الدول الاجنبية فرصة للتدخل وبصورة خاصة الدول التي تمسكت بالحروب الصليبية بشكلها التقليدي، مثل فلورنسا والفاتيكان، ولكن فخر الدين لم يتلق منها مساعدات فعلية لذلك آثر ان يغادر لبنان الى فلورنسا سنة ١٦١٣.

استقبل الامير في توسكانا بحفاوة بالغة ولكن التوسكانيين الحوا عليه بتغيير دينه، اذا أراد الحصول على معونة. هنا ادرك الامير كم كانت السياسة الاوروبية مغرضة، لذا فضّل الاتصال بالباب العالي وطلب العفو. ثم عاد ليتسلم امارته في سنة ١٦١٨ وقد استفاد من رحلته باطلاعه على الفنون والعلوم والافكار البناءة، وادرك حاجة اوروبا للحرير اللبناني فاهتم بتصديره اليها فدرت عليه ربحا كبيرا.

والامير فخر الدين رجل من التاريخ. ولمعرفة حقيقة تاريخه، يتحتم علينا الرجوع الى الوثائق التي تتعلق بعهده. فالتاريخ من صنع الوثائق، والوثائق هي الآثار التي تحمل افكار الرجال السابقين واعمالهم.

لذا فكل فكرة او حدث او عمل لم يترك اثرا مباشرا او غير مباشر سواء اختفت اثاره المنظورة والحسية هو ضياع للتاريخ وكأنه لم يحدث.

وبفقدان العديد من الوثائق تركت حقبات كبرى من ماضي الانسانية مبهما، وغير معروف، لانه غير مثبت بالوثائق، وامحت آثاره، لذا يمكننا القول: لا وثائق، لا تاريخ. وتجدر الاشارة الى ان فخر الدين كان مثالا للتسامح الديني وقد حاولت كل الطوائف ارجاع نسبه اليها.

انطلاقا من هذه الفكرة، عمدت الى نشر بعض الوثائق المحفوظة في فلورنسا (Florence) بايطاليا والمتعلقة برحلة الامير فخر الدين المعني الثاني.

وعلى الرغم مما كتب عن تلك الحقبة ورغم ان الامير فخر الدين رجل دولة دون منازع واصلاحي من الطراز الاول، ورجل عمران ودهاء... لم يختلف المؤرخون في اعطائه حقه، رغم التناقض الكبير في سرد حياته وبصورة خاصة فيما يتعلق بعلاقاته واقامته في ايطاليا.

ولدى مطالعتي لأهم المراجع والكتب التاريخية لتلك الحقبة خاصة، ومنها على سبيل الذكر لا الحصر:

ــ كتاب اخبار الاعيان في جبل لبنان، للشدياق.
ــ تاريخ الأزمنة، للدويهي.
ــ لبنان في عهد الامير فخر الدين المعني الثاني، للصفدي (تحقيق د. أ. رستم، والبستاني).
ــ لبنان تاريخ شعب، د. عادل اسماعيل.
ــ اضواء توضيحية على تاريخ الموارنة، د. زكي النقاش.
ــ مختصر تاريخ سورية ولبنان، بقلم احد الاباء اليسوعيين.
ــ مؤرخو لبنان في الموارنة، كمال الصليبي.

هذه المراجع وغيرها مما درس هذه الحقبة لم تتفق على طبيعة رحلة فخر الدين لايطاليا واهدافها.

لذلك، عمدت الى نشر بعض الوثائق منها ما نشر سابقا، ومنها ما ينشر للمرة الاولى، واكتفي بنشرها دون الخوض في ابعادها تاركة للمؤرخين اعادة تركيبها.

الوثيقة الاولى

رسالة من روما ٨ آذار ١٦١٤ من اوراتسيو منتشيني للامير فخر الدين

١ ــ اسره ايطالية عريقة (واوراتسيو منتشيني) عمل لدى الكاردينال كرافا. الذي كان له الفضل في تمويل المدرسة المارونية في روما التي تأسست سنة ١٥٨٤ وقد أنشأها البابا غريغوريوس الثالث عشر لتعليم رجال الدين الموارنة ليعودوا للعمل بين طائفتهم، ومن أهم تلامذتها جبرايل الصهيوني الاهدني (١٥٧٧ ــ ١٦٤٨) ويوحنا الحصروني. (ت ١٦٢٦) وابراهيم الحاقلاني (١٦٠٤ ــ ١٦٦٥) وكذلك نصر الله سلق العاقوري (المتوفي ١٦٣٥) استاذ العربية والسريانية في كلية الحكمة في روما ومدير المطبعة العربية فيها.

تولى اوراتسيو مهمة كسب فخر الدين الثاني الى جانب الدول الاوروبية في عمل مشترك ضد الدولة العثمانية. وحاول جاهدا توطيد علاقته مع ملك فرنسا.

Lettera da Roma, 8 Adar 1614
Orazio Mancini al Emir Fachraldin

ايها السيد المعظم الامير الشريف [illegible]

من قبل سنين كثيرة على زمان سيدي المرحوم الكردينال كرافا بلغني من عند اساقفة ومطارين
لبنان كثير عن حكمة حضرتكم الشريفة وعزها وقوتها وعن حبها وجود خاطرها من جهة [illegible]
النصارى وخدمتهم بكلما استطعتم. ولذلك دايما طلبت لحضرتكم العز والنعم ولم [illegible]
بذلك بكل توفيق ليس فقط عند سيدي سلطان اسبانيا بل وايضا عند قدس سيدنا ال[illegible]
كما اظن ان حضرتكم خبير بذلك على يد الاساقفة والمطارين الموارنة المذكوره الذين رجعوا [illegible]
لي بلاد سوريا. ويشهد لي بذلك القران فوكا فرديناندو المرحوم الذي كنت دايم اخبره بجود [illegible]
وفضلها الجزيل. وعارفين ايضا بذلك نصر الله وجبرايل الموارنة الذين من اجل جودهم وفضايلهم
عندي كاولادي. فلذلك لا تتعجب حضرتكم الشريفة ان كنت انا بسبب مجي السينيور كاباليري
مانشيني حامل الاحرف وكاتب الكردينال جيوسا القاطن في بلاد فرنسا بعثت بهذه الرسالة
اقبل اياديكم. واطلب لي حضرتكم الشريفة بانها تبعث تامرني بهذه المدينة عند الاكابر لانني
مشتهي غاية الاشتهاء اخدم حضرتكم على الراس والعين كما يخبركم الكاوالير المذكور وهو من ناس اكابر
تصل كلما تنظر حضرتكم من الخطاب معه. وهو ايضا يشرح لكم بالطول عن جميع الاحوال. و[illegible]
المذكور عزيز جدا عند اسياده يمكن انه يخدمكم في بعض الامور ببلاد فرنسا. وبهذا اكتم قولي [illegible]
لحضرتكم الشريفة من الله تعالى بانه يرزقكم جميع ما في خاطركم بكل خير وسعد كمثل ما انتم مستحقين
كتب ذلك بمدينة رومية بثامن يوم من شهر اذار سنة الف وستماية واربعة عشر مسيحية على يد عبدكم
الحقير اوراتسيو منتشيني

824

الوثيقة الثانية

الامير المكرم فخر الدين اشتها يقعد في بلدان الامير المعظم وتحت حمايته الشريفة مع حرمته وبنته وجوارها[١] وولدين صغار يخدموا الباب وستة أم سبعة من خدامه والحاج كيوان[٢] مع باقي أرفاقه[٣] الأوخار[٤] الموجودين معه الآن يرجعوا لبلادهم ليعلموا ويخبروا أهله انه جالس في بلاد النصارى ليسعى بواسطة الامير المعظم معونة وقوة من البابا وباقي سلاطين النصارى ويرجع لبلاده بعمارة[٥] قوية ولذلك طلب من حضرة الامير المعظم ينعم عليه بمهما يعتازه بذلك.

أما الأمير المعظم، اذ فهم خاطر الامير المكرم المذكور أراد يكمل طيبة خاطره معه انه بكل الأشياء الممكنة يقنعه ورضي بذلك وسهل احواله في كل بلدانه وبيريد يعطيه مساكن لايقة في مدينة فلورنسيا[٦] وعربة لخدمته وخيل من خيله ومونة وعلوفة من شأنه ومن شأن جماعته النياقرش فلورنتية كل عام ولايمان ذلك ثبت ذلك بخط يده وختمه بمهره وعلمه بخط يا صجيه[٧] نهار الثاني عشر من ايار سنة الف وستماية واربعة عشر مسيحية في مدينة بيسا[٨].

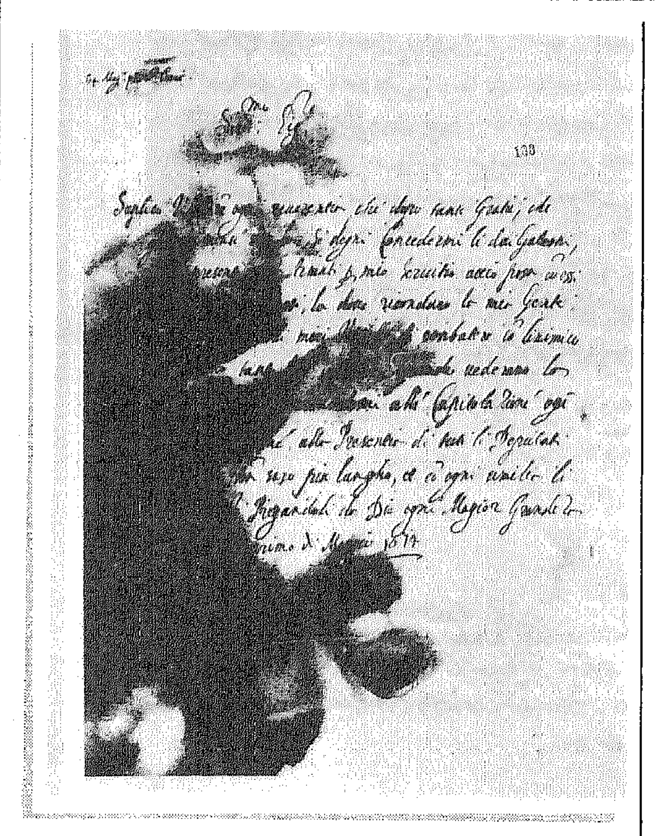
ختم الامير فخر الدين ابن معن

الهوامش

(١) جواريها.
(٢) الحاج كيوان نعمه قتله فخر الدين ١٦٢٣.
(٣) رفاقه.
(٤) الآخرين.
(٥) سفن بحرية.
(٦) فلورنسة.
(٧) كاتبه.
(٨) المشهورة ببرجها العجائبي.

الوثيقة الثالثة

أول أيار ١٦١٧



وملخصها:

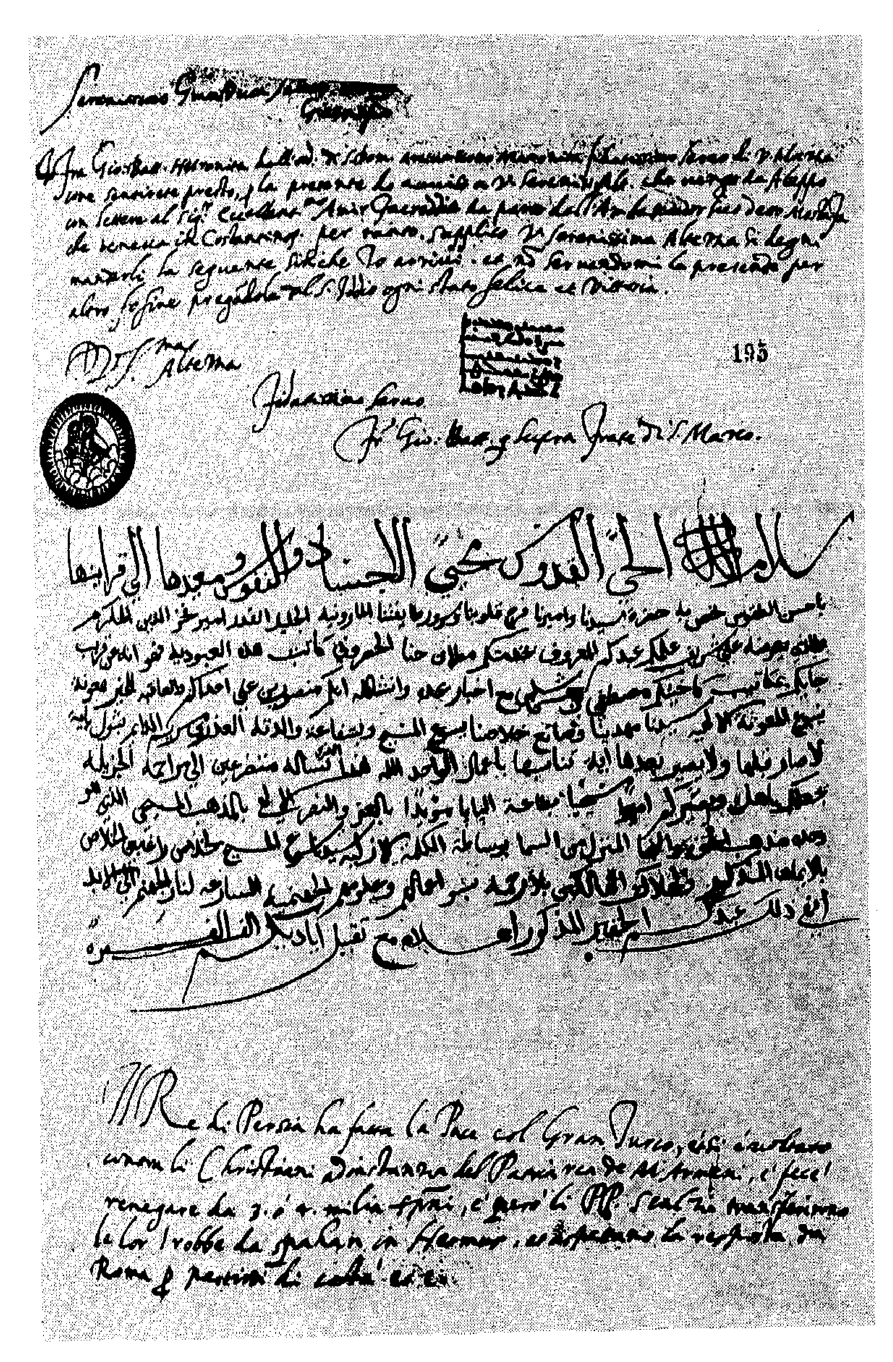
يرجو فيها الأمير فخر الدين اعطاؤه سفن بحرية مزودة بالسلاح بهدف الذهاب لبلاده حيث يراها رعاياه ولإذكاء الروح القتالية لديهم وخصوصا عندما يروا شخص الأمير... وفي النهاية وبكل احترام يقبل ثياب الدوق ويدعو الله الشكر الجزيل.

ليفرنو ١٠/ أيار ١٦١٧

الوثيقة الرابعة

رسالة من المطران حنا الحصروني يخبره برسائل من معاونه مصطفى بن حسن شلبي يتمنى له النصر على اعدائه بمعونة السيدة العذراء ويطلب من الله أن يصبح الامير اميرا مسيحيا بطاعة البابا مؤيدا بالعز والنصر الإلهي بالمذهب المسيحي الذي هو وحده مذهب الحق.

في ذيل الوثيقة كتب باللغة الايطالية القديمة وبدايتها ان ملك الفرس قد وقع الصلح مع الاتراك...



الوثيقة الخامسة

في سنة ١٦١٨، عاد فخر الدين الثاني من ايطالية فكان نشاطه واسعا اذ استقدم من ايطاليا الخباز والبناء والمهندس والحكيم والحلاق فنشطت التجارة وتحسنت الاحوال الاقتصادية في امارته فدرت له مالًا كثيرا أودع قسما منه مصرف جبل الرحمة باسمه واسم اولاده تحسبا لتقلبات الزمن. ومن المعروف أن حيدر الشهابي حفيد الأمير فخر الدين الذي طالب بتركة جده متخليا عن ثلثها لمجمع انتشار الايمان (Propagauda Christiana).

الوثيقة

في ربيع الثاني سنة ١٠٤٢هـ ١٦٣٢م.
ابراهيم الموراني: هو ابراهيم الحاقلاني مر ذكره.
اليسر: حب المسابح.
البربير: الحلاق.
معلم الجسر: المهندس الذي أتى به فخر الدين من ايطاليا.

خادمكم

فخر الدين بن معن

الوثيقة السادسة

الى حضرة سنيور قان دوكا(١) وسنيورامراما(٢) حفظهم الله تعالى مرادنا منكم تأخذوا ثمن اليسرا من ابراهيم الموراني الذي في بلادنا من جبل لبنان فنخاف(٣) ان الدراهم اذا ضلوا(٤) معه في يد ابراهيم الموراني يضيعهم علينا اذا اخذتم الدراهم منه وصاروا عندكم بيطيب خاطرنا والحكيم والخباز والبنا اعطيناهم اجرتهم على قدر ما عينتم لنا في الزمن الذي قعدوه عندنا على قدر استحقاقهم على يد القنصل الذي كان عندنا من جماعتكم ونحن وأولادنا بخير يبوسو ايديكم ونحن اليوم في تعب قلب كثير الله يعيننا. كتب نهار الثلاثا يوم عشرين في محرم سنة ثلاثة وأربعين الف محمدية على صاحبها الصلاة والسلام.

سربتور(٥)

فخر الدين بن معن

(١) كران دوق.

(٢) السيدة زوجته.

(٣) نخاف.

(٤) ظلوا.

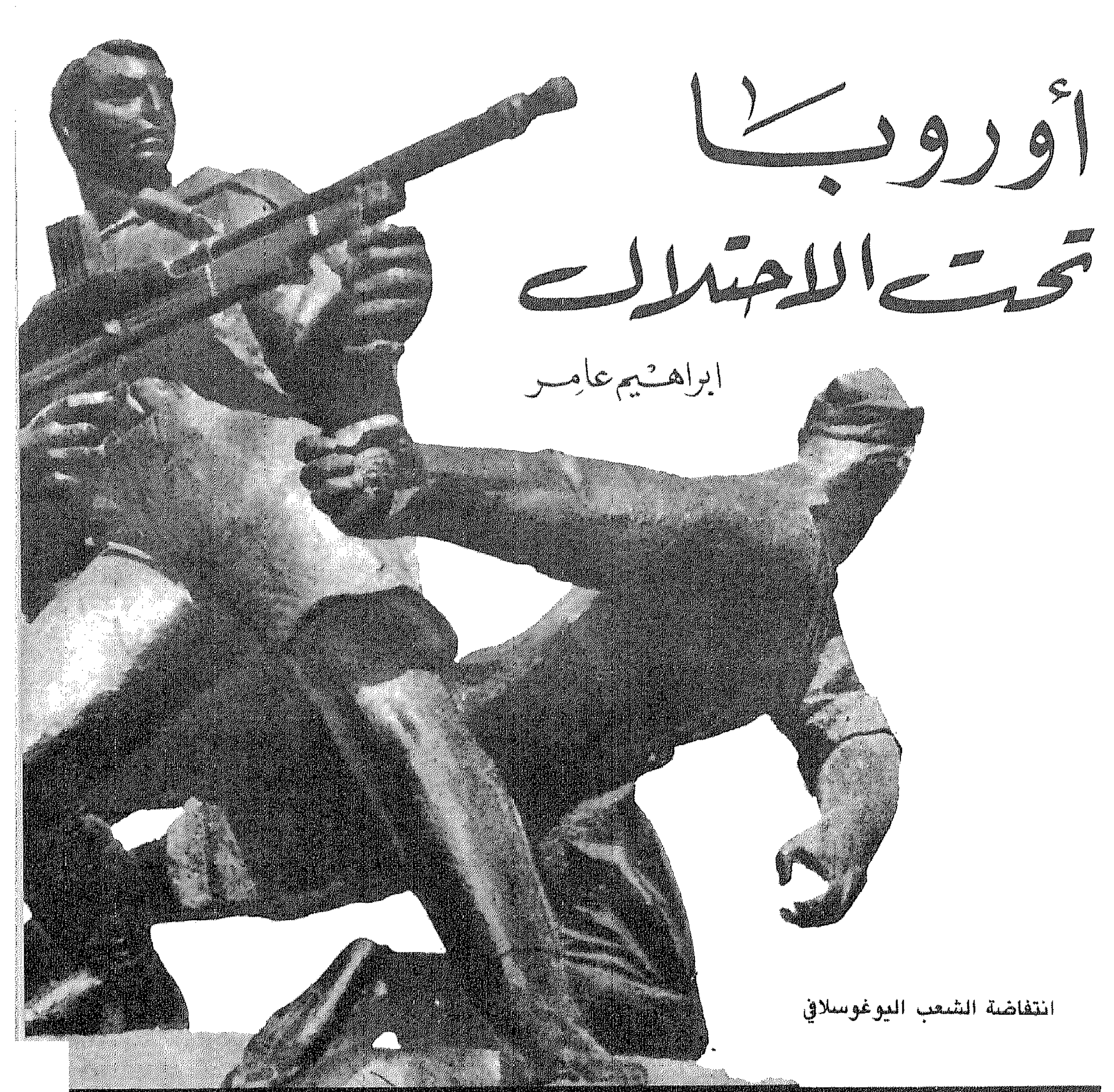
(٥) خادمكم.

□ جميع الوثائق هي من أرشيف:

Archivio di Stato Fereze Mediceo de principato, No. 4276.

أوروبا تحت الاحتلال

ابراهيم عامر



انتفاضة الشعب اليوغوسلافي

على طول سنوات الحرب العالمية الثانية، شهدت جميع دول اوروبا حركات المقاومة ضد العدوان النازي، وهي حركات لعبت ادوارا لا يمكن انكارها او تجاهلها في التعجيل بيوم النصر النهائي، وانشأت تراثا غنيا في تاريخ الانسان المعاصر لاساليب ووسائل وقوف الشعوب للدفاع عن كيانها وحريتها، كما كشفت عن مختلف الابعاد الوطنية والعقائدية والسياسية والاجتماعية والنفسية للمقاومة، ذلك ان المقاومة هي ـ في وقت واحد ـ موقف وطني ونضال عقائدي وصراع سياسي. وهذه الحوافز الثلاثة للمقاومة تختلف في اهميتها باختلاف الزمان والمكان، وبالتالي فان اساليب المقاومة ووسائلها تختلف باختلاف هذه الاهمية. لكن المحك النهائي لنوعية المقاومة ومعناها يتوقف على موقف كل فرد وكل فئة وكل طبقة، اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وفكريا من العدو، كما يتوقف على نوع العدو ومدى قدراتها في كل مرحلة من مراحل النضال ضده.

وفي الواقع، فان أوروبا عرفت المقاومة قبل الحرب العالمية الثانية، في الحركات المعادية للفاشية في ايطاليا منذ عام ١٩٢٢، وفي الحركات المعادية للنازية في المانيا منذ عام ١٩٣٤، وفي النمسا منذ ضمها الى المانيا في عام ١٩٣٨، وفي تشيكوسلوفاكيا منذ مارس ١٩٣٩.

وعندما بدأ الغزو الهتلري لاوروبا في سبتمبر ١٩٣٩، بدأت تتشكل حركات مقاومة في الأراضي المحتلة، وهي تحمل أسماء مختلفة ولكنها تقوم بمهمة واحدة هي: رفض الاستسلام والمساومة مع المعتدين والعمل لانزال الهزيمة بهم، ومساعدة القوات المسلحة النظامية على النصر النهائي. وأصبح الاختبار المطروح أمام كل مواطن في أوروبا — بصفته الفردية أولا وبصفته الاجتماعية ثانيا — هو: المقاومة أم الاستسلام؟

وفي البداية تقبل كثيرون من الناس في أوروبا هزيمتهم العسكرية أمام جحافل النازيين كأمر واقع. وظهر منهم من يدعو الى التعاون مع الغزاة او الوصول معهم الى حلول وسط. وكان البعض لا يرى في الحرب التي تجري من حوله الا مصدرا لبعض المضايقات، مثل نقص التموين وتوزيعه بالبطاقات، ومثل الافتقار الى بعض المواد المعتادة والكمالية، ومثل الاضطرار بسبب الحرب الى الانفصال عن الابن او الأب الذي في الميدان، او عن الأقارب والأحباب.

وكان كثيرون يدعون بصراحة الى موقف الانتظار والتروي، بل وقد غرتهم في البداية أساليب التعقل والتأدب التي تظاهر بها العدو وقواته في معاملاته وتصرفاته، او أثرت فيهم دعايات النازية عن قوة المانيا الهائلة، وحسن تدريب جنودها وضباطها، وحتمية انتصار أسلوب حياة «اوروبا الجديدة» في النهاية.

لكن ما ان مرت الأيام بعد الصدمة الأولى حتى تبين الكثيرون أبعاد المؤامرة النازية، وحتى أدركوا ان «أوروبا الجديدة» الهتلرية ليست سوى اوروبا المحرومة من الحرية، بل والمحرومة من حق الوجود، ولم يكن أمامهم سوى أن يقاوموا العدوان الهتلري عليهم بجميع الوسائل المتاحة، وان يطوروا مقاومتهم، حتى بلغت مبلغ التجربة التاريخية الشاملة التي يؤرخ لها المؤرخون حتى أيامنا هذه.

ويتضمن «تاريخ الحرب العالمية الثانية» الذي صدر في بريطانيا، فصولا كاملة من تاريخ المقاومة بمختلف أساليبها، نقدم منها — هنا — تلخيصاً جديراً بالدراسة والتفكير فيه والاستفادة منه.

السرية المطلقة

أول ما تلاحظه على حركات المقاومة الاوروبية، في ظل الاحتلال النازي، هو السرية، والسرية المطلقة.

وبعد ذلك نلاحظ ان المقاومة تبدأ بالكراهية السلبية للعدو، ثم تتطور إلى العداء النشط المنظم، ثم تبلغ ذروتها في النضال اليومي الدائب لكل مواطن ولكل فئة ولكل جماعة.

والحد الأدنى من المقاومة هو المقاومة السلبية.

وتتخذ المقاومة السلبية شكل ردود فعل فردية سلبية، أو شكل ردود فعل جماعية. وميزتها هي انها نوع من المقاومة المأمونة العواقب والتي يستطيعها كل فرد دون أن يتعرض لخطر جسيم.

وفي اوروبا، وفي بداية الغزو النازي، اتخذت المقاومة السلبية عدة أشكال منها أبطاء الموظفين عمدا في اداء مهام وظائفهم، ووقوع المهندسين والعمال عمدا في أخطاء وعيوب أثناء عملية الانتاج وبدون ان يصل الأمر الى حد التخريب، والتكاسل والبلادة أو الحماس الأجوف الزائد على الحد، أو مجرد الغياب عن العمل، أو الامتناع من سماع دعايات العدو.

وإلى جانب المقاومة السلبية، توجد المقاومة النشيطة، أي المقاومة باستخدام جميع الأسلحة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والنفسية.

ومن أساليب المقاومة النشيطة التي عرفتها اوروبا في ظل الاحتلال النازي، توزيع المنشورات والصحف السرية، والاستماع الى الاذاعات المعادية للعدو، ونشر كلمة «المقاومة» وضرورتها بين الناس، وتجميع المعلومات عن تحركات العدو وأعماله، ومساعدة الفدائيين الذين يتسللون إلى الأراضي المحتلة للقيام بعمليات التخريب والغارات المسلحة.

ولقد دلت تجربة المقاومة في اوروبا المحتلة على أن رجل المقاومة هو مثل الطيار: فكما ان الطيار يحتاج الى مساعدات أرضية متعددة، فان رجل المقاومة يحتاج الى كثيرين يساعدونه من وراء خط المقاومة.

على أن الهدف النهائي لجميع أشكال المقاومة السلبية والنشيطة كان دائماً — في اوروبا المحتلة — هو الوصول الى مرحلة المقاومة المسلحة الشعبية واعداد الأرض لعمليات القوات المسلحة النظامية في جهودها لانزال الهزيمة العسكرية النهائية بالعدو.

تجارب هامة

وإذا استعرضنا على هذا الأساس العام أهم سمات حركات المقاومة في مختلف البلاد الاوروبية فاننا نلاحظ:

في هولندا:

كانت المقاومة في البداية مقاومة فئات اجتماعية مختلفة: رجال الدين — الطلبة —



الفتيات والفتيان اشتركوا في تحرير باريس من الاحتلال الالماني

الأطباء ـ الشيوعيون. واتخذت المقاومة اساسا شكل الاضرابات العمالية، والمقاطعة الادارية، وأعمال المخابرات، وتوزيع المنشورات والصحف السرية، وذلك لصعوبة القيام بأعمال مقاومة مسلحة واسعة النطاق نتيجة لأن هولندا بلد سهل، والمواصلات بها عديدة، وكانت أبرز قوى المقاومة في صفوف الطبقة العاملة.

في فرنسا:

كانت شبكة المقاومة ممتدة شديدة التعقيد بسبب وجود منطقة غير محتلة عرفت باسم «منطقة حكومة فيشي الحرة» وكانت حكومة هذه المنطقة تساوم ضد المقاومة مستغلة بذلك سمعة الماريشال بيتان، كما كانت تستغل الكراهية التقليدية للفرنسيين تجاه الانجليز وخاصة بعد هجومهم على «المرسى الكبير».

لكن معظم الفرنسيين كانوا غاضبين على الجمهورية الثالثة. واستجابوا على الفور لنداء الجنرال ديجول بالمقاومة الذي أذاعه من لندن في ١٨ يونيو (حزيران) ١٩٤٠ واشتركت في حركة المقاومة الفرنسية أحزاب سياسية مختلفة: ديجوليون، وشيوعيون، وراديكاليون، واشتراكيون، وجمهوريون ومستقلون.

وكان من أبرز القوى المشتركة في المقاومة الطلبة الذين نظموا الاضرابات المتتالية، والعمال وخاصة عمال السكك الحديدية الذين شنوا على العدو حرباً خفية عرفت بعد ذلك باسم «حرب البيانات» حينما كانوا يقومون بوضع بيانات خاطئة على الصناديق الالمانية المشحونة بالقطار، فأحدثوا بلبلة وعرقلة ملموسة للمجهود الحربي الالماني. كما كانت فرق المقاومة المختلفة تقوم باغتيال الجنود الألمان واعدام من يتعاون معهم.

في بلجيكا:

أثرت سرعة الهزيمة العسكرية في مايو (أيار) ١٩٤٠ على البلجيكيين، فأصابت الكثيرين منهم بالبلبلة، كما تظاهر العدو بالتصرف المهذب تجاه الأهالي، ونجح في التأثير على عقول الكثيرين بزعمه أنه المنتصر.

وساعد على ذلك أيضاً وجود خلافات قومية بين البلجيكيين أنفسهم، وبقاء الملك ليوبولد في البلاد وتعاونه مع الالمان.

ومع هذا، فقد استطاع الشيوعيون البلجيكيون أن يكونوا جيش تحرير من مجموعة صغيرة كرست نفسها للمقاومة، واستيقظت في قلوب البلجيكيين روح التقاليد الوطنية العميقة الجذور، ودخلت قوى وطنية عديدة ميدان المقاومة، تخرب وتصدر الصحافة السرية وتقوم بأعمال المخابرات ضد العدو، كما ظهرت مقاومة مدنية في الجامعات والبيوت.

ونظراً لكل هذه الظروف، لم تنجح جميع الجهود التي بذلت في توحيد فرق ومجموعات المقاومة في بلجيكا حتى انتهاء الحرب.

في الدانمرك:

لم تعرف الدانمرك مقاومة للغزو النازي، إلا في شكل أعمال محدودة من أعمال المخابرات، وذلك بسبب نجاح الألمان في بلبلة الأفكار بحجج قانونية عن استقلال الدانمرك واستمرار نظامها الملكي.

في النرويج:

عرفت النرويج رئيسا للوزراء متعاملاً وعميلاً للالمان أصبح اسمه في التاريخ علما على كل خائن لوطنه وهو «كويسلنج» وقد قام كويسلنج هذا بضرب كل حركة مقاومة ظهرت، وبتحذير الشعب النرويجي لكي يتقبل نظام هتلر «الجديد».

مع هذا، فقد نشأت حركة مقاومة نرويجية صغيرة وسرية جدا، ألفها ـ اساساً ـ العسكريون، وقررت أن تتجنب الدخول في أي صدام عسكري مع العدو قبل الأوان، لكنها ساعدت ـ سراً ـ الغارات التي كانت تقوم بها قوات «الكوماندو» البريطانية على مراكز العدو المتطرفة.

في تشيكوسلوفاكيا:

بدأت المقاومة عقب اتفاقية ميونيخ التي عقدت في سبتمبر (أيلول) ١٩٣٨. وتميزت بوحدة الأحزاب اليمينية والشيوعيين، تحت قيادة الرئيس بنيش الذي كان موجوداً في لندن. كما تكونت حركة المقاومة من الضباط أساساً، وضمت سياسيين ومثقفين وعمالا.



فتاة هولندية تخفي آلة تصوير في حقيبتها، بينما وقفت زميلتها تراقب الطريق



ديغول

وكان أسلوب المقاومة في تشيكوسلوفاكيا هو أسلوب الاضرابات، والمنشورات والصحف السرية، واجتماعات التوعية الجماهيرية.

في البانيا واليونان:

اتخذت المقاومة في البانيا أسلوب التخريب، وعمليات «الانصار» اللاجئين في الجبال.

أما في اليونان، فقد عانت المقاومة من الانقسام الشديد في الرأي العام الوطني، ومن استمرار حدة الصدام داخل صفوف المقاومة بين الاتجاهات السياسة والعقائدية المختلفة.

في يوغوسلافيا:

كانت المقاومة معقدة بسبب تعقد قضية القوميات اليوغوسلافية: الصرب، والكروات، والسلوقيون، والمونتجريون، والمقدونيون، وبسبب



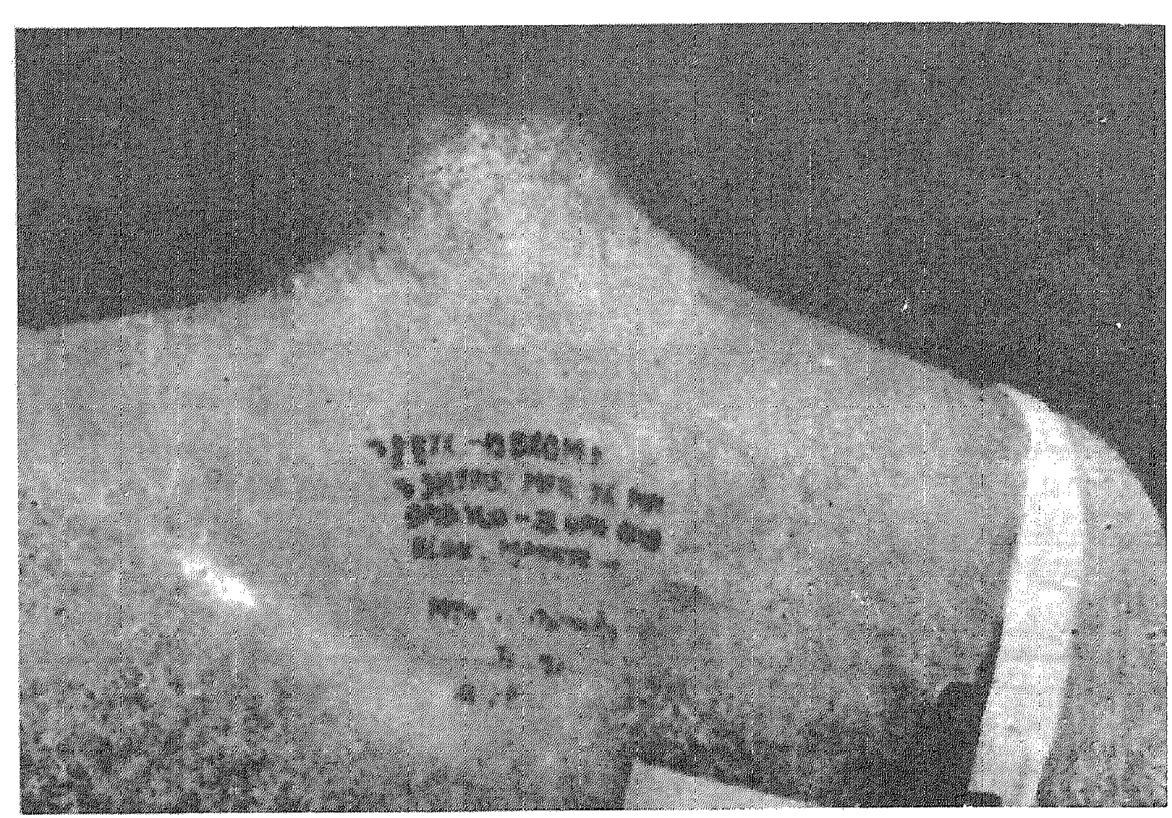
تيتو

تعدد قوى الاحتلال: الالمان والايطاليون والبلغاريون والمجريون، وبسبب قيام حكومتين «مستقلتين» عميلتين في كرواتيا وصربيا ـ الاوستاش والتشتنيك ـ وبسبب وقوف الفلاحين موقف سياسة الانتظار.

ومع هذا، فقد استطاعت حركة المقاومة، بقيادة جوزيف بروز، الذي أصبح معروفاً باسم «تيتو» ان تنمو، وان تخلص البلاد من الاحتلال الأجنبي.

في بولندا:

لم تضع بولندا وقتا في تنظيم المقاومة، إذ سرعان ما ظهرت فيها مقاومة تلقائية نشيطة جماعية لأن شعب بولندا قد اعتاد منذ قرون طويلة على النضال من أجل حريته، وتعتبر حركات المقاومة السرية احد تقاليده الوطنية



شفرة بالحبر السري على ظهر احدى المشتركات في المقاومة السرية

التليدة. ولم تكن هناك ضرورة لاستثارة أي حوافز في صفوف شعب بولندا لكي يهب للنضال عن كيانه وحريته.

وضمت المقاومة جميع الطبقات والفئات في وحدة رائعة. وساعد على النجاح ضعف المواصلات، وكثرة الغابات والمستنقعات، وانضمام المثقفين والموظفين إلى حركة المقاومة، وعدم ظهور أي «كويسلنج» أو خائن.

ولم تكن قوات المقاومة في اوروبا المحتلة تحمل اسما واحدا. فلقد كانت هناك حركات «الجويريللا» وهو الاسم الذي أطلقته حركة المقاومة الاسبانية ضد غزو نابليون على نفسها. وكانت هناك فرق «البارتيزان» أو الأنصار. وكانت هناك فرق «الماكي». ثم كانت هناك فرق «الكوماندو».

وكانت فرق «الكوماندو» مجموعات صغيرة، لا يزيد عدد أفراد كل منها على مائة جندي نظامي، وجنودها مدربون.

وقد تميز جنود «الكوماندو» بالشجاعة، وشدة التحمل البدني، وروح المبادرة، ودقة الأحكام، والنشاط، والاعتماد على النفس، وروح الكراهية ضد العدو، والتخلص من كل خوف من الحرب أو الموت، والقدرة على العمل لساعات أطول وفي مهام أشق وبفترات راحة أقصر، مع خبرة واسعة في الاستطلاع من ملاحظة وتخف، والقدرة على الحركة فوق أي نوع من أنواع الأرض بالليل أو النهار.

وهكذا، فان حركات المقاومة، تحتل اليوم مكانة بارزة وجوهرية في تاريخ الشعوب في نضالها الدائب من أجل الدفاع عن كيانها وحريتها. وهي تمثل ـ على حد قول مؤرخي الحرب العالمية الثانية ـ أعظم مهمة يمكن أن يقوم بها المواطن والجندي، بدون روتين مكتبي، وبدون انتظار لعلاوة أو ترقية أو بدل. والنجاح في عمليات المقاومة يعتمد فقط على النفس وعلى الذين يشاركون فيها.

وكما يقول الدكتور جان ـ ليون شارل، في تاريخه للمقاومة الاوروبية، فان المقاومة ضد العدوان الأجنبي هي ذروة الثورية في كل زمان ومكان. ●

التنقيب في مليحة

في إمارة الشارقة

دولة الامارات العربية المتحدة

قسم التوثيق والأبحاث

موقع مليحة، الحارة الأولى اثناء بدء التنقيب.

تقع مليحة على بعد ٢٠ كيلومترا الى الجنوب من منطقة الذيد التي تبعد ٥٠ كيلومترا الى الشرق من الشارقة ومنطقة مليحة من المناطق الصحراوية التي تكثر فيها روابي الرمال وأخاديد الوديان. وتحدها من الجهة الشرقية سلسلة جبال وعرة تمتد من الجنوب حتى تنتهي برؤوس الجبال الى الشمال من رأس الخيمة (جلفار). أما من الجهة الغربية فتحدها سلسلة جبلية ممتدة من الشمال الى الجنوب بطول عشرة كيلومترات تقريبا. وهذه السلسلة غنية بخامات الحديد وبالمواقع الدفاعية. ان عموم منطقة مليحة ترتبط ارتباطا وثيقا مع منطقة أثرية هامة تقع على بعد ١٢كم الى الجنوب وتسمى الدام. وهذه الاراضي تكون سهلا ممتدا من الشمال الى الجنوب تكثر فيه النخيل والأشجار المثمرة والأشجار الطبيعية كالسمر اضافة الى الشجيرات. ان توفر المياه وخصوبة التربة وكذلك وجود خامات الحديد ساعدت على استيطان هذه المنطقة منذ أقدم العصور ووجود الروابي الأثرية العديدة ما هي إلا شاهد على ذلك.

يتكون هذا الموقع من امتدادات استيطانية متفرقة تتألف من روابي تنتشر فوقها بقايا أثرية يستدل عليها من الكسر الفخارية وقطع الحديد على شكل خامات وأجزاء لقطع مصنوعة بشكل سيوف ورؤوس حراب. ويمكن تقدير المساحة الكلية لهذا الموقع بصورة تقريبية، وذلك بحصرها في دائرة قطرها كيلومتر ونصف.

التنقيب

قامت البعثة العراقية الموفدة الى دولة الامارات العربية المتحدة والتي تولت التنقيب في موقع مليحة بعد أن درست ملتقطاته السطحية، باختيار نقاط متعددة من الموقع فعملت فيها مجسات اركيلوجية حيث تمكنت بهذه الوسيلة من اختيار أربع حارات للتنقيب. وفيما يلي أهم النتائج التي توصلت اليها البعثة خلال موسمها الأول لعام ١٩٧٣.

الحارة الأولى:

فتح في هذه الحارة الواقعة بالقرب من الطريق الترابي الواصل بين مزرعة مليحة ومقر المكائن الكهربائية حفرة مساحتها ١٠ × ١٠م ظهرت فيها بقايا غرف مشيدة باللبن لم يتبق منها سوى الأسس حيث اندثرت الأجزاء الأخرى. استعمل اللبن غير المنتظم والمعمول من طينة ممزوجة بفتات الكلس في بناء هذه الغرف ويقدر سمك كل لبنة بـ ١٥ سم تقريبا. لقد أقيمت أسس هذه الأبنية فوق الرمال مباشرة حيث أن عوامل التعرية من أمطار ورياح سببت في إزالة أقسام كبيرة منها.

أما أهم اللقى الأثرية المكتشفة في هذا الجزء من التنقيب فلا تتعدى كسر الفخار حيث لم يعثر على نماذج كاملة منها إلا ان أشكالها معروفة في

الفترة الهلنستية وهي الفترة التي امتزجت بها الحضارة اليونانية بالحضارات الشرقية، وكان ذلك في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد. وقد كان مثل هذه الفخاريات المكتشفة مستعملا للطبخ وخزن السوائل والحبوب.

الحارة الثانية:

تقع هذه الحارة شرق الحارة الأولى وهي عبارة عن رابية صغيرة قطرها ١٤ متر تقريبا وارتفاعها متران. فتح في هذه الرابية خندقا بعرض مترين ممتدا من الغرب الى الشرق. وقد أثبت الحفر هنا بأن هذه الرابية تتألف من مواد كلسية منقولة من مكان آخر استفيد منها في أغراض الدفاع. ومن الجدير ذكره بأن هذه الرابية خالية من المكتشفات الأثرية.

الحارة الثالثة:

تقع هذه الحارة الى الشرق من الحارة السالفة الذكر، وقد كشف فيها عن قبر مربع الشكل (٣,٦٥ × ٣,٦٥ مترا) ذو جدران بسمك ٧٥سم مشيدة بالطابوق المربع المصنوع من الجص ٤٥ × ٤٥ × ١٢ سم. اما جدران هذا القبر فتغور الى عمق ٣,٥م ويبدو بأنه كان ظاهرا بارتفاع مترين فوق سطح الأرض. وللمكتشفات الأثرية التي عثر عليها في هذا القبر أهمية كبيرة، فقد عثر على ثلاث كسر لمقابض جرار من الفخار على أحداها طبعة ختم منبسط تتوسطه زهرة اللوتس محاطة بكتابة يونانية. أما الكسرتان الأخريان فعليهما كتابة يونانية أيضا تعود الى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد. ومن المكتشفات الأخرى مجموعة كبيرة من بقايا السيوف والسهام الحديدية وكذلك أجزاء من جرار فخارية مزججة وجدت مبعثرة في أماكن مختلفة من القبر.

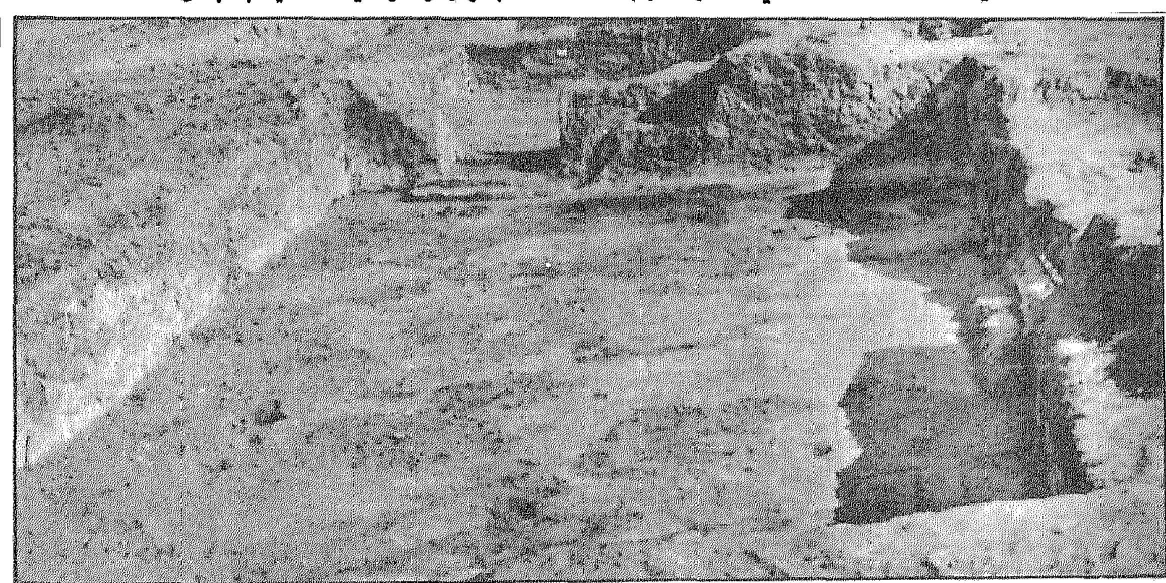
أما أرضية القبر فقد كشفت على عمق ٣,٥م عن مستوى سطح الأرض وكشف في هذه الأرضية عن حفرة مستطيلة طولها ١,٢٥ وعرضها ١/٢ متر وعمقها ١/٢ متر كذلك. وقد عثر داخل هذه الحفرة على بقايا لكأس من النحاس وآخر من الزجاج مع بعض السهام ولم يعثر على أية بقايا عظمية إذ من المحتمل أن يكون قبراً رمزياً. ومن الجدير ذكره أن القبر كان قد تعرض إلى أعمال السرقة والتخريب. ومن المحتمل أن يكون السقف الذي لم يبق منه شيئاً يذكر بشكل مقبب أومسنم على غرار القبور الأخمينية واليونانية.

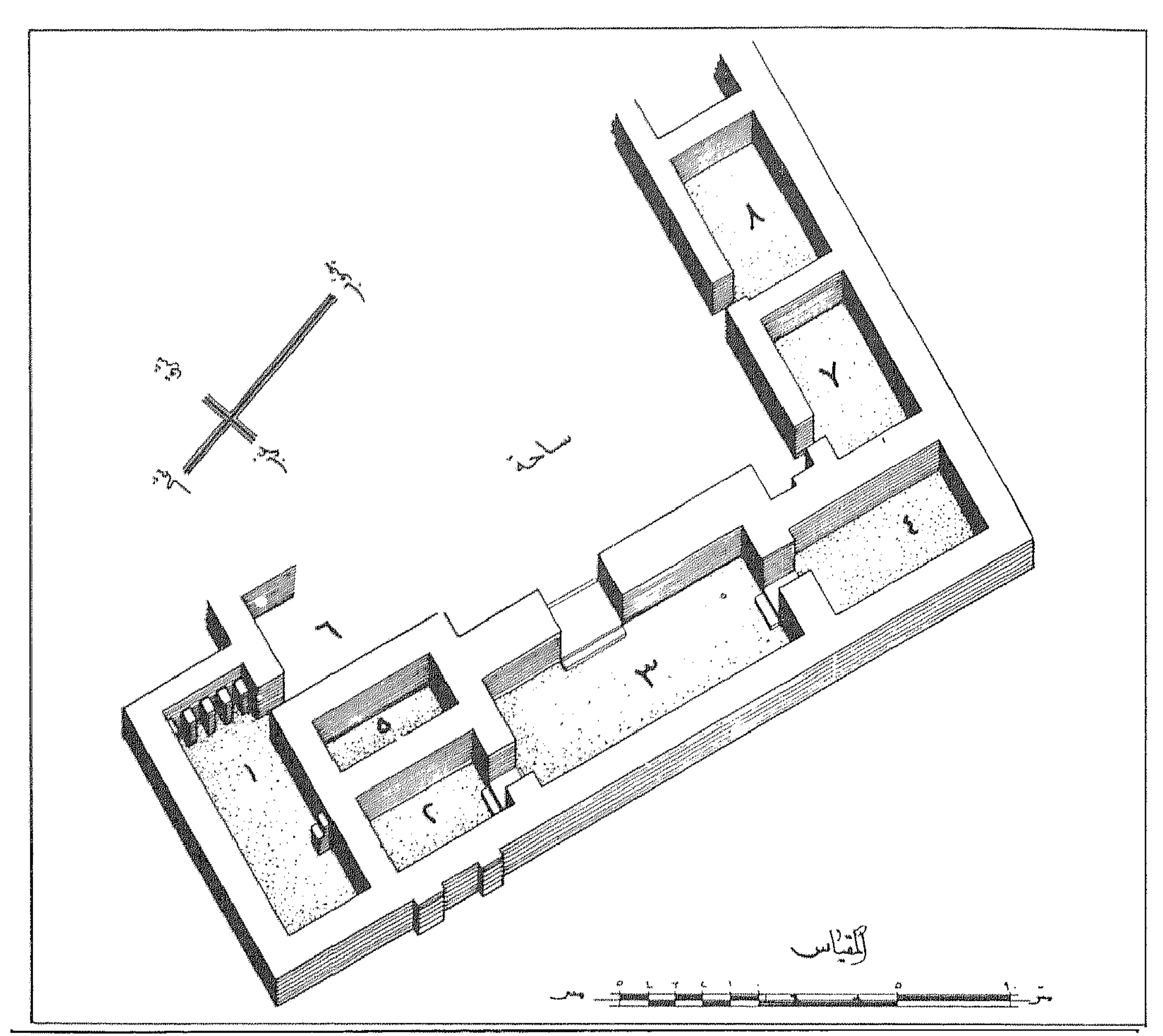
الحارة الرابعة:

تقع بين الحارتين الثانية والثالثة وتعتبر من أكبر الحارات المنقبة. وهي عبارة عن مستوطن منبسط ترتفع أرضيته قليلاً عن مستوى الأرض



مليحة، قاعات اكتشفت في الحارة الرابعة، لاحظ الجدران والأرضية المطلية بالجص.





حفريات البعثة العراقية، منظور من الجو لمخطط البناء المكتشف في حفريات مليحة، الشارقة، دولة الامارات العربية المتحدة، الحارة الرابعة ١٩٧٣.

المجاورة، تنتشر عليه لقى أثرية متنوعة كالفخار والزجاج والحديد.

كشف في هذه الحارة عن قصر كبير يتألف من غرف ومرافق متعددة مشيدة باللبن كسيت أرضيتها بطبقة من الجص. لقد أصاب هذا البناء حريق كبير حدث في الأزمنة القديمة حيث أن جميع الجدران والأرضيات وجدت محروقة بشدة.

وقد كشف التنقيب في الموسم الأول عن ثمان غرف ولا تزال غرف أخرى تنتظر يد المنقبين. وهذه الغرف تختلف من حيث السعة والاستعمال ويختلف سمك جدرانها من ٧٥ سم ــ ١,٧٠ م. وأكبر هذه الغرف رقم (٣) وتبلغ مساحتها ١٠,٨م × ٤,٤٠م ولها ثلاثة مداخل ذات عتبات. أما المدخل الرئيسي فيبلغ عرضه مترين ويقع في الضلع الشرقي من القاعة وينفذ إلى ساحة خارجية وقد أغلق هذا المدخل في أدوار متأخرة بواسطة أحجار غير مهندمة. أما المدخلان الآخران فهما جانبيان كل منهما ينفذ إلى غرفة احداها بقياس ٥ × ٣م والأخرى ٦,٣٠ × ٣م. وقد عثر في القاعة الكبيرة رقم (٣) على كثير من المواد الأثرية المحروقة منها كميات من الأطعمة كالتمر والحبوب. ويظهر بأن هذه المواد الغذائية كانت مخزونة بسلال من جريد النخل حيث عثر على نماذج منها. وقد عثر كذلك على كسر من الأخشاب والزجاج والعاج ووجدت بعض قطع القماش المحروق وكسر عديدة من أواني الفخار العادي والمزجج.

تلي القاعة رقم (٣) من حيث السعة القاعة رقم (١) فمساحتها ٨,٥٥ × ٣,٤٥م كشف في ضلعها الشرقي أربع كوات للخزن، وقد عثر في احدى هذه الكوات على جرة خزن متوسطة الحجم وفي الكوة الثانية عثر على مجرمة من الحديد. أما الضلع الجنوبي من هذه القاعة فقد أقيمت في منتصفه دكة من اللبن ذات درجتين وجد فوق السفلى منها وعاء حجري ربما كان مسندا لجرة من الفخار. ومن الآثار البارزة التي عثر عليها في هذه القاعة جرة كروية من الفخار مزججة من الداخل والخارج ذات قبضة واحدة، إضافة إلى صحنين غير كاملين من الفخار وكأس صغير من النحاس.

أما الغرفة رقم (٥) فطولها ٤,٨٠م وعرضها ٢,١٠م عثر فيها على موقد للنار. أما الغرفتان ٧ و٨ فمتشابهتان من حيث الحجم إذ يبلغ طول كل واحدة ٥,٧٠م وعرضها ٣,٢٥م لكل منهما مدخل يطل على الساحة وعثر في داخل الغرفة رقم (٨) على مجموعة من كسر الزجاج وعدد من الخرز المعمول من الأحجار الكريمة وبعض العاجيات



مليحة. قاعة كبيرة من قاعات الحارة الرابعة. لاحظ كوات الخزن في نهاية القاعة

مليحة. مدخل لاحدى القاعات المكتشفة في الحارة الرابعة. لاحظ الدكة عند بداية المدخل

والصدف. أما الغرفة رقم (٧) فعثر بداخلها على سوار من الزجاج. وقد عثر في الغرفة رقم (٤) على نقد نحاسي تالف. أما الساحة التي تتوسط البناء فقد عثر فيها على صحن من الحجر ذو ثلاثة أرجل مع وعاء فخاري ذو قبضة شبيهة بقبضات السلال.

وختاما يجب أن نذكر بأن اللقى الأثرية التي عثر عليها في الحارة الرابعة تعود الى العهد المعروف بالهلنستي والذي امتد كما يبدو الى منطقة الخليج ابان فتوحات الاسكندر الكبير التي بدأت في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد ويجب أن لا ننسى كذلك الصلات الحضارية لهذه المنطقة مع كل من الهند وبلاد وادي الرافدين في ذلك العهد.

●

□ اعتمدنا في مقالنا عن مليحة على التقارير الشهرية المقدمة من قبل بعثة الآثار العراقية التي نقبت في مليحة وكذلك على مقالة الدكتور طارق مظلوم رئيس البعثة والمنشورة في مجلة سومر لسنة ١٩٧٣. وقد اعدنا نشر قسم من المخططات، لمزيد من التفصيل يراجع العدد المذكور من سومر.

الخطة العلمية لعام ١٩٨٢ - ١٩٨٣

جامعة البصرة - مركز دراسات الخليج العربي

يقوم مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، بجهود مشكورة في مجال التخطيط العلمي، وقد قام مؤخرا مجلس المركز العلمي بوضع خطط علمية، ودراسات اقتصادية وسياسية واستراتيجية ولغوية وادبية، واجتماعية وفولكلورية، سيحاول المركز بمختلف شعبه تنفيذها خلال العام الدراسي، ١٩٨٢ ــ ١٩٨٣.

وقد تكرم المركز فبعث الينا بملخص لكل الدراسات والخطط الموضوعة، ونحن في المجلة اذ نشكر هذا الجهد، نقدم هنا ملخص خطة شعبة الدراسات الاقتصادية.



تحاول شعبة الدراسات الاقتصادية ان تنفذ خطتها العلمية للعام الدراسي ١٩٨٢/١٩٨٣ وذلك من خلال قسم الاقتصاد بكلية الادارة والاقتصاد/ جامعة البصرة وبالتعاون مع الاقتصاديين في المراكز والجامعات العراقية والخليجية.

تتناول الخطة ما يلي:

أولاً ــ البحوث والترجمة والاصدارات:

١ ــ اعداد كتاب عن مشاكل اقتصاديات الخليج العربي يتناول كل فصل منه موضوعا اقتصاديا عن قطر من أقطار الخليج العربي أو المنطقة يجري الاتفاق بين مشرف الشعبة الاقتصادية وباحثين من قسم الاقتصاد بجامعة البصرة والأقسام الناظرة في جامعات الخليج العربي لاختيار الموضوع والقطر (او المنطقة) على ان تكون من الموضوعات التي لم تطرق كثيرا من قبل الباحثين. سيحتوي الكتاب على ١٠ ــ ١٥ بحثا أصيلا بموضوعات مختلفة.

٢ ــ تأليف كتاب عن المنجزات الاقتصادية لثورة ١٧ ــ ٣٠ تموز الظافرة دراسة مقارنة لفترتي ما قبل الثورة وبعدها. من أجل إصدار الكتاب بصفة جهد علمي متميز سيشارك في التأليف ٢ ــ ٣ اقتصاديين من قسم الاقتصاد بجامعة البصرة من ذوي الكفاءة العلمية المتطلبة وباختصاصات مكملة لبعضها البعض.

٣ ــ اعداد كتاب عن اقتصاديات الخليج العربي قبل ظهور النفط يتناول كل قطر على حده مع دراسة شاملة للمنطقة جميعها ويتضمن تحليلاً لهيكل الاقتصاد والقطاعات الاقتصادية مع تحليل العلاقات بين القطاعات في القطر الواحد وبين القطاعات المتناظرة في الأقطار الخليجية.

٤ ــ تسهيلا لعمل الباحثين في الشؤون الاقتصادية لأقطار الخليج العربي تروم الشعبة أعداد فهرس البحوث الاقتصادية في الدوريات العلمية التي تتناول منطقة الخليج العربي أو أحد أقطارها. يتضمن الفهرس البحوث المنشورة في المجلات العلمية ذات الطابع التحليلي الأكاديمي يشمل الفهرس فترة الخمس سنوات ١٩٧٨ ــ ١٩٨٢ سينظم الفهرس حسب الموضوعات والأقطار مع نبذة مختصرة (٥ ــ ١٠) أسطر عن كل بحث لتعريف الباحثين بالبحث وموضوعه. ويعاد ترتيب البحوث (بدون

النبذة) حسب الحروف الأبجدية لأسماء الباحثين.

٥ ــ اعداد كراس يحوي جميع الاحصاءات الخاصة بأقطار الخليج العربي التي يحتاجها الباحث الاقتصاديي. تغطي الاحصاءات فترة ١٥ سنة تنتهي بعام ١٩٨١. يقسم الكراس الى فصول يتناول كل منها موضوعاً اقتصادياً مثل احصاءات الدخل القومي: الزراعة، الصناعة، الأيدي العاملة.. الخ. تستخدم الأرقام المطلقة بالعملات المحلية لكل قطر، مع إضافة أرقام قياسية للاحصاءات الرئيسية.

ثانياً ــ المشاركة في الكتابة بمجلة الخليج العربي والدوريات والصحف:

ستحاول الشعبة الاقتصادية حث الباحثين في قسم الاقتصاد بجامعة البصرة على الاشتراك بما لا يقل عن بحث وعرض لكتاب وغيرها من الاسهامات بمجلة (الخليج العربي) الصادرة عن المركز، ومتابعتهم باستمرار. كما تحاول الشعبة بالتعاون مع قسم الاقتصاد تشجيع الباحثين بالقسم في الكتابة بالصحف المحلية والخليجية حول المسائل الاقتصادية الآنية.

ثالثاً ــ الحلقات العلمية:

الاشتراك في الحلقات العلمية التي ينظمها قسم الاقتصاد بجامعة البصرة لتعريف أعضاء القسم بنشاط الشعبة الاقتصادية ومشاريعها العلمية من أجل حثهم على المساهمة بهذه النشاطات والاتفاق مع القسم المذكور لتخصيص بعض حلقاته العلمية لموضوعات خطة الشعبة التي سيساهم بها أعضاء القسم.

رابعاً ــ الزيارات العلمية:

ستقوم الشعبة بدعوة شخصية أو أكثر من الشخصيات الاقتصادية المرموقة في منطقة الخليج العربي لالقاء محاضرات من خلال التعاون مع قسم الاقتصاد بكلية الادارة والاقتصاد لجامعة البصرة. تنسق الدعوة مع القسم المذكور.

خامساً ــ الاتفاقيات العلمية:

الاستفادة من بنود الاتفاقيات المعقودة بين المركز والجهات العلمية بما يخص عمل الشعبة وتحقيق أهدافها العلمية وتعريف تلك الجهات بنشاط الشعبة من جهة والتعرف على أنشطة تلك المؤسسات والحصول على نتاجاتها العلمية واستغلال بنود بعض الاتفاقيات فيما يخص الزيارات المتبادلة من أجل اشتراك أعضاء قسم الأقتصاد باعتبارهم باحثين مهتمين بنشاطات الشعبة الاقتصادية للمركز.

سادساً ــ المكتبة:

تنوي الشعبة الاقتصادية إقامة جرد شامل للكتب والدوريات الاقتصادية باللغة العربية واللغات الأخرى بقصد جعلها متكاملة قدر الامكان عن طريق طلب الكتب والدوريات غير الموجودة في مكتبة المركز والتي تتناول الموضوعات الاقتصادية عن الخليج العربي وأقطاره. سيقوم مشرف الشعبة الاقتصادية ومساعدوه في الشعبة بجرد المصادر الموجودة في فهارس الكتب والأبحاث للوقوف على ما صدر وغير متوفر بمكتبة المركز.

●

❁❁❁

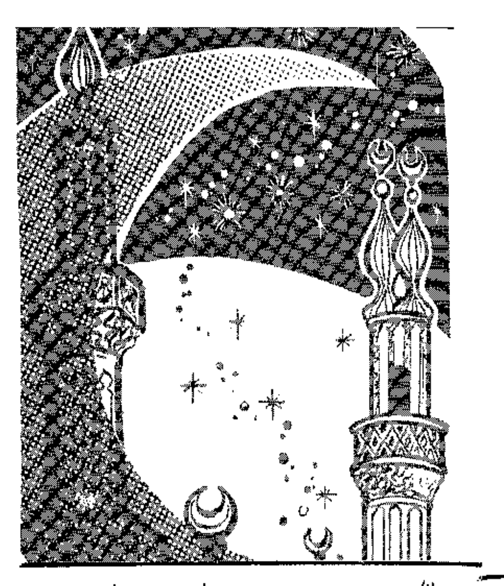
بين طاغية وامرأة

□ كانت امرأة تسمى الشجاء من الخوارج، فجيء بها الى زياد والي الكوفة، فقال لها: ما تقولين في أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه؟ قالت: ماذا أقول في رجل أنت خطيئة من خطاياه؟! قال بعض جلسائه: أيها الأمير أحرقها بالنار؛ وقال بعضهم: اقطع يديها ورجليها؛ وقال بعضهم: اسمل عينيها. فضحكت وقالت: عليكم لعنة الله! فقال لها زياد: مم تضحكين؟ قالت: كان جلساء فرعون خيراً من هؤلاء. قال لها: ولم؟ قالت: استشارهم في موسى فقالوا أرجه وأخاه، وهؤلاء يقولون: اقطع يديها ورجليها واقتلها؟. فضحك منها وخلى سبيلها.

رسائل الدكتوراه والماجستير

استجابة لرغبة المجلة في تعريف العرب بتاريخهم عبر دراسات علمية ومسؤولة، واستجابة لدعوتها الأساتذة والمؤرخين وطلاب الدراسات العليا لنشر موجز عن رسائلهم الجامعية، فقد وصلنا من الأستاذ «منجد مصطفى بهجة» عرض لرسالته للدكتوراه «الاتجاه الاسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين». ونحن في فتحنا هذا الباب نتمنى أن نزيد من اطلاع قرائنا على نتاج باحثينا مؤملين سد ثغرة في مكتبتنا العربية وفهارسها المعتمدة، لما يفيد الجميع.

الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين



- رسالة دكتوراه — قسم الأدب والنقد، كلية اللغة العربية جامعة الأزهر، ٢٠/١/١٩٨٢.
- منحتها اللجنة المؤلفة من المشرف الدكتور عبد السلام أبي النجا سرحان مرتبة «الشرف الثانية».

منجد مصطفى بهجة



جاءت الرسالة في مقدمة وتمهيد وثلاثة ابواب، وتضمنت ثلاثة عشر فصلا.

جعل التمهيد في فقرتين، الاولى عن عهدي ملوك الطوائف والمرابطين، في ابرز معالمهما السياسية والاجتماعية والثقافية والادبية، وتناولت الثانية دراسة الاتجاه الاسلامي قبل هذين العهدين.

والباب الأول، في اربعة فصول تناولت روافد الاتجاه الاسلامي الاربعة، جاء الاول عن القرآن الكريم وعلومه، واما الثاني فعن الرافد الثاني وهو الحديث الشريف والمذاهب الفقهية، واما الثالث فتحدث عن السياسة والاضطرابات الداخلية، وانتهى الى الرافد الرابع الذي هو حركة الجهاد ومقاومة الفرنجة.

وجاء الباب الثاني اوسع أبواب الرسالة فتناول: الاغراض الاسلامية في الشعر الاندلسي، وكانت على التوالي: شعر الزهد والتصوف، وشعر الآداب والاخلاق الاسلامية، وشعر الجهاد والمعارك الاسلامية، وشعر رثاء المدن والممالك، وشعر النقد الاجتماعي، وأما الفصل السادس والاخير فقد خصص لشعر الاغراض التقليدية، وعني بغرضين مهمين هما شعر المديح وشعر الغزل.

كان الباب الثالث، مفردا لدراسة الخصائص الفنية للشعر الاسلامي، وهو في ثلاثة فصول، تناول الاول منها الحديث عن الشعر الاندلسي بين نوازع الدنيا والدين، واما الثاني فقد عرضت فيه النزعة الاسلامية في النقد الاندلسي، وتناول في الثالث ابرز الملامح الفنية في القصيدة الاسلامية مجملة في اربع قضايا تتصل بالقصيدة العربية، هي: الافكار والمعاني، وشكل القصيدة واسلوبها والاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف، والتجربة الشعرية، وخلصت الرسالة الى عشر نتائج وردت في اخر الرسالة نذكر بعضها على سبيل الاختصار:

ان الرسالة جلت واوضحت غنى الاتجاه الاسلامي وثراءه، وكثرة شعرائه، وكانت المعالم

الاسلامية مباشرة في كثير من الاحيان، وغير مباشرة في قليل منها على نحو ما فصلناه في فصول الباب الثاني، وحاولت الرسالة أن تستكمل صورة الشعر الأندلسي من خلال أضخم العينات الشعرية التي تفرقت في مصادر الأدب الاندلسي وتاريخه.

لقد خلصت الرسالة الى تحديد مفهوم واضح للشعر الاسلامي، وشجَبَت ما زعم من النفور والتناقض — المفتعل — بين الفن والدين لأن كليهما يلتقيان بالنفس ويتوحدان في «فطرة الله التي فطر الناس عليها».

كان الشعر الاندلسي غنيا بالافكار ولم يكن فقيرا، فالمعاني الاسلامية شائعة في طوايا الشعر الاندلسي ممتزجة به، وشعر الزهد والتصوف تمثل — في اكثره — لدى شعراء مقلين لم يتفرغوا لقول الشعر، او تمثل الشعر في مرحلة من مراحل حياتهم، وتجلى في اشعار شعراء الزهد، التصور الاسلامي للحياة والموت والآخرة.

واستطاع الشعر الاندلسي ان ينحو منحى فريدا ومتميزا في تهذيب عاطفة الحب والارتقاء بها، إذ كان الاسلام اقوى العوامل في ظهور الغزل العفيف.

وانتهت الرسالة الى تحديد المعالم الشكلية للقصيدة الاسلامية في الشعر الاندلسي فقد تفاوتت القصيدة في تعداد أبياتها بين القصر والطول، وفق موضوعاتها، ولم تتميز بمنهج خاص في جزئيات القصيدة، وجاءت على درجة عالية في أساليبها، وصوغها وعاطفتها وخيالها.

وقد تنوعت مصادر الرسالة ومراجعها، وفق تنوع مناحي البحث والدراسة، فنافت على خمسين ومئتي مصدر ومرجع.

ان الشعراء الذين عَرَضت لهم الرسالة ولاشعارهم بالدراسة، اكثر من مائة شاعر في القرن الخامس الهجري والنصف الاول من القرن السادس، فضلا عن الشعراء الذين تناولتهم الرسالة في التمهيد.

والحمد لله اولا واخرا والصلاة والسلام على نبيه الكريم. ●

بريد القراء

شَجَرَة الدُّر



جارية اشتراها الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكانت ترافقه في معتقله بالكرك يوم أسره الناصر داود وقد شاطرته آلام المحنة والاعتقال بشجاعة وصبر، فما لبثت هذه الجارية ان غدت ملكة مرهوبة الجانب عظيمة الشأن.

لقد كانت جارية مغمورة لم يعرف المؤرخون لها نسباً، بل لم يستطيعوا التأكيد بأنها تركية أو أرمنية أو رومية..

وإن الملك الصالح نجم الدين أيوب لم يكد يتولى العرش حتى تألق نجم جاريته، فتبوأت في البلاط المكان الأسمى، وغدت مصدر النهي والأمر.

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب حين جلس على عرش مصر في الرابعة والثلاثين من عمره، وكانت شجرة الدر على ما توحي به سيرتها في حدود الخامسة والعشرين. وكان يحبها حباً عظيماً وقد رأى من سطوع مواهبها وما اشتهرت به من عفة وفضيلة، انها خليقة بأن تكون زوجة له، فأعتقها وتزوجها، فاكتسب نفوذها بذلك صفة شرعية، وأنشأت تسهم بنصيب أوفر في شؤون الدولة واعمال البر.

بلغت الحملة الصليبية السابعة المياه المصرية بل دمياط بالذات في أوائل حزيران (يونيه) سنة ١٢٤٩م ربيع الأول ٦٤٧هـ وعلى رأسها لويس التاسع بن لويس الثامن وحفيد فيليب اوغسطس (١٢٢٦ ــ ١٢٧٠). وكانت مع الحمله ايضاً زوجته الشابة. مرغريت دي بروفانس، وأخواه روبير دي أرتوا وشارل دي أنجو وعدد من الأمراء والفرسان، وكانت هذه الحملة فرنسية محضة. واشتركت انجلترة فيها بفرقة رمزية بقيادة وليم طويل السيف حاكم مقاطعة سالسبوري. وكان عدد وحدات البحرية لهذه الحملة نحو ألف وثمانمائة ١٨٠٠ قطعة، تحمل نحو خمسين ألف ٥٠,٠٠٠ مقاتل من مشاة وفرسان بكامل معداتهم وسلاحهم ومؤنهم وخيولهم، وبلغ من كثرة السفن انها كست البحر حتى لم يعد يُرى سوى الساريات وهي تعلو وتهبط فوق سطح الماء.

لما بلغت الحملة الصليبية السابعة المياه المصرية، وأرسل القديس لويس التاسع الى الملك الصالح نجم الدين ايوب يبلغه انه جاء بعسكر بعدد الحصى، ويحذره من المقاومة العقيمة، وينصحه بالخضوع والتسليم، كان الملك يعاني وطأة المرض، فتولته الحيرة والاضطراب، وجعل يقرأ الكتاب وعيناه مغرورقتان بالدمع، إلا أن شجرة الدر وقفت الى جانبه تبث فيه روح العزيمة والاباء، وتحضه على المقاومة المستميتة فتذرع بالشجاعة، وأجاب على كتاب القديس لويس التاسع بكتاب أنشأه كاتبه قاضي القضاة الشاعر بهاء الدين زهير.

وكذلك وقفت شجرة الدر الى جانب زوجها الملك الصالح نجم الدين ايوب خلال مرضه المقعد بعد سقوط دمياط وانتقاله الى المنصورة، تسهر عليه، وتقوي من عزيمته، وتسهم معه في تحصين المدينة، وحشد القوى، حتى اشتدت عليه وطأة المرض فمات في ١٥ شعبان سنة ٦٤٧هـ ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٢٤٩، وأوصى بالعرش لولده الملك العظيم تورانشاه نائبه في البلاد الشرقية، وكان يومئذ في حصن كيفا بديار بكر، فأرسلت شجرة الدر

فارس الدين اقطاي كبير المماليك البحرية ليأتي به.

وما كاد السلطان يلفظ أنفاسه الأخيرة، حتى كفكفت دمعها وحبست نواحها، ونهضت من تحت نير الألم لتستدعي الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ وجمال الدين محسن رئيس الخصيان، وهما كبيرا رجال الحاشية، وتوصيهما بكتمان وفاة الملك حتى يصل تورانشاه من حصن كيفا بديار بكر اتقاء للفتنة. فعمل الرجلان باشارتها.

وجمعت شجرة الدر امراء الجيش ورجال الدولة في اليوم التالي لوفاة السلطان وأبلغتهم مشيئته بأن يحلفوا له ولابنه الملك المعظم تورانشاه من بعده وللأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ بقيادة الجيش وتدبير امور المملكة ففعلوا ما أمر به السلطان.

ثم أرسلت الى الأمير حسام الدين محمد نائب السلطان في القاهرة امراً ممهوراً بتوقيعه ليقوم بتحليف أكابر الدولة ومقدمي الجند على ما تقدم فأطاع حسام الدين امر الملك، وبدأ خطباء الجوامع يدعون لتورانشاه بعد الدعاء لأبيه.

ويبدو ان بعض الجند قد تهامس بموت السلطان، وان قادة الحملة الصليبية قد عرفوا بهذا النبأ، وأرادوا انتهاز الفرصة التي يتيحها لهم للقضاء على الجيش المصري قبل وصول تورانشاه. ثم كانت موقعة المنصورة.وبعد عشرة ايام، فأعلنت وفاة الملك الصالح للمرة الأولى، وتسلم ولي العهد مقاليد الملك، وكان في الخامسة والعشرين من عمره، وفيه صلابة وصلف وكبرياء.

وكان عهد تورانشاه في الحكم قصيراً جداً، لم يزد على خمسة أسابيع، ولكنه شهد انتصاراً عظيماً احرزه المسلمون على الفرنجة، ولم يسبق لهم ان احرزوا مثيلاً له منذ اثنين وستين عاما اي منذ انتصار حطين عام ١١٨٧م بقيادة صلاح الدين الأيوبي.

وكان لويس التاسع نفسه في عداد الأسرى، فحمل الى المنصورة حيث اعتقل مع شقيقه كونت انجو وكونت بواتيه في دار كاتب الانشاء القاضي فخر الدين بن لقمان وعهد بحراستهم الى الطواشي صبيح المعظمي.

هذا ما كان في عهد تورانشاه. أما ما كان منه فالبطش والبغي واللهو والسرف والتنكر لزوجة أبيه شجرة الدر التي صانت البلاد، وحفظت الملك، وأخذت العهد له تمهيداً لجلوسه على العرش.

وأرسل السلطان الى شجرة الدر يطالبها بتركة ابيه الراحل الملك الصالح ويسألها ان ترد اليه ما تحت يدها من جواهر ومال،ويهددها بالقتل ان هي تأخرت في اداء الحساب فكتبت الى زعماء المماليك تشكو امرها اليهم وتطلب حمايتهم.

وقيل ان المماليك كانوا يشعرون بأن السلطان يضمر لهم الكيد والغدر، وانه كان اذا سكر يصف الشموع امامه ويأخذ السيف بيده ويضرب به تلك الشموع وهو يقول: (هكذا أفعل بالمماليك البحرية.. هكذا افعل بفلان وفلان!..) فلما بلغ مماليك أبيه ذلك أضمروا له السوء، واتفقوا على قتله قبل ان يفتك بهم. وليس هناك ما يدل على ان شجرة الدر هي التي حرضتهم على ارتكاب هذه الجريمة، وانها اشتركت معهم في تدبيرها، على ان مجرد شكايتها اليهم واستنجادها بهم قد يعد تحريضا لهم.

وبعد مقتل تورانشاه على يد اثنين من زعماء المماليك البحرية هما بيبرس البندقداري وفارس الدين اقطاي في مساء يوم الاثنين ٢٧ محرم سنة ٦٤٨هـ ١٢٥٠م، أي بعد هزيمة الفرنج بنحو ثلاثة اسابيع، اجتمع زعماء المماليك وامراء الجيش ورجال الدولة واتفقوا على ان تكون شجرة الدر ملكة لمصر، وان تخرج التواقيع السلطانية باسمها، وأخذت البيعة لها في اليوم العاشر من صفر ٦٤٨هـ ١٢٥٠م ونقش اسمها على النقود: (المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين) وكان يخطب لها على منابر مصر بهذا الدعاء: (واحفظ اللهم الجهة الصالحية، ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، ذات الحجاب الجميل والستر الجليل، والدة المرحوم خليل، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب).

وكانت اول امرأة تتبوأ العرش في مملكة اسلامية، وقد انتهت بتورانشاه دولة الأيوبيين في مصر، وبدأت بشجرة الدر دولة المماليك.

وقد قوبل اعتلاء شجرة الدر عرش المملكة المصرية بكثير من الدهش والاستنكار. فنعى

الخليفة العباسي السابع والثلاثون وآخرهم (المستعصم بالله بن المستظهر) على مصر ان تجلس عل عرشها امرأة وأرسل الى بلاط مصر يقول: (إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فاعلمونا حتى نسير اليكم رجالاً).

وأبى الأمير جمال الدين بن يغمور نائب السلطنة في دمشق وكثير من الأمراء ان يقدموا الطاعة للملكة وأن يكونوا تحت سلطانها، وأرسلوا الى صاحب حلب الملك الناصر بن يوسف حفيد صلاح الدين يطلبون اليه القدوم الى دمشق لتسلم المدينة فجاء اليها وتسلمها. وجزعت شجرة الدر لهذه الأنباء، وعزّ عليها ان تكون سبباً لتمزيق المملكة التي عملت كثيراً لدعم قوتها ووحدتها، واعتقدت انها ان تزوجت الأمير عز الدين ايبك احد امراء جيشها، قوت مركزها وصانت سمعتها، ولم تلبث ان حققت هذه الفكرة أو هذه الرغبة، واتخذت الأمير عز الدين زوجاً لها في ١٩ ربيع الثاني سنة ٦٤٨هـ ـ ١٢٥٠م.

ولكن ذلك لم يغير من نظرة الناس اليها، ولم يخفف من حملتهم عليها. فعمدت حينئذ الى الحل الوحيد الذي بقي لها، وتنازلت عن عرشها لزوجها الذي لقب بالمعز في آخر ربيع الثاني سنة ٦٤٨هـ ـ ١٢٥٠م.

وقد دامت سلطنة شجرة الدر ثمانين يوماً، وكان ابرز الأعمال التي قامت بها اجلاء الفرنج نهائياً عن الأراضي المصرية.

لقد استيقظت في شجرة الدر، وهي في تلك السن التي جاوزت الأربعين، عاطفة الكبرياء على أقوى ما تعصف في نفس ملكة، وعاطفة الغيرة على أعنف ما تجيش في صدر امرأة.. فما هي الا سنوات قليلة حتى اخذت تخاصم زوجها الملك المعز لأتفه الأسباب ورانت على حبها المطامع وغشيته أهواء السياسة والمنافسة حتى تحولت حياتهما الى جحيم لا يطاق. وخطب المعز بنت الملك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وكانت صبية رائعة الحسن. ثم قبض ذات يوم على عدد من المماليك، وساقهم الى القلعة لاعتقالهم في الجب. فلما وصلوا الى تحت النافذة التي تجلس فيها شجرة الدر، انحنى كبيرهم احتراماً وقال لها بالتركية انه لا ذنب له ورفاقه سوى انهم عاتبوا السلطان لأنه خطب ابنة صاحب الموصل، اذ لم يهن عليهم وهم خدمها الذين نشأوا في ظل نعمتها ان يتزوج من امرأة اخرى.

فأشارت اليه شجرة الدر اشارة تعني انها فهمت ما يريد أن يقول.. وقال الرجل لأصحابه (ان كان المعز قد حبسنا فاننا قتلناه!).

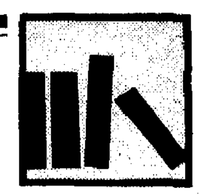
والواقع ان هذه الكلمات قد قتلت الملك المعز.. اذ ما لبثت شجرة الدر ان أرسلت اليه تلاطفه وتصالحه وتدعوه لزيارتها، فأمن لها ولبى دعوتها، فاستقبلته مرحبة باسمه، وقادته الى الحمام ليغتسل ولكنه ما كاد يخلع ثيابه حتى انقض عليه غلمانها وخنقوه تنفيذاً لخطتها.

ويقال ان المعز لما أحاط به الخدم وفي أيديهم السيوف، استغاث بشجرة الدر، فأدركتها رقة الأنثى حين سمعته يهتف باسمها، فأشارت لهم أن يتركوه، فأغلظ لها احدهم في الجواب وقال: (ان تركناه حيا فهو لا يبقي عليك ولا علينا). وهكذا قتل الملك المعز يوم الأربعاء في ١٥ ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ ـ ١٢٥٧م على تلك الصورة المروعة. بعد أن جلس على عرش مصر سبع سنين، وكان قد أشرف على الستين من عمره.

وأرسلت شجرة الدر الى عدد من امراء المماليك تعرض عليهم الملك فرفضوه كلهم مخافة كيدها. ولما تنفس الصبح وذاع النبأ المروع، ساد الذعر في القاهرة، وتولى العرش الملك المنصور علي بن الملك المعز وهو صبي لم يبلغ الحلم، وقام على أمره سيف الدين قطز، مملوك أبيه، فما لبث أن اعتقل شجرة الدر وسجنها في برج منيع.. ثم أمر بغلمانها فصلبوا على باب القلعة، وجيء بها الى ضرتها ام الملك المنصور التي كانت تطالب بدم الملك القتيل، وكان المعز قد طلقها ارضاء لشجرة الدر، فضربها جواريها بالقباقيب حتى ماتت، وألقينها من سور القلعة الى الخندق وليس عليها سوى سراويل وقميص، فبقيت في الخندق أياماً.. ثم حملت في قفة ودفنت في تربة كانت قد اعدتها لنفسها بجوار بيت الحلفاء.

على هذه الصورة المفجعة الرهيبة قضت تلك المرأة (شجرة الدر) التي حكمت مصر ثمانية عشر عاماً، وجمعت في نفسها اشتات التناقضات.

عبد الله محمد حاج عبدو



الكتب المهداة إلى مجلة «تاريخ العرب والعالم»

□ **من تاريخ لبنان الاجتماعي والاقتصادي والسياسي**
وثائق المحكمة الشرعية بطرابلس ــ السجل الأول ١٩٨٢
١٠٧٧ ــ ١٠٧٨هـ، ١٦٦٦ ــ ١٦٦٧م ...... تقديم: عمر تدمري ــ فردريك معتوق ــ خالد زيادة

□ **ابحاث في ندوة المدينة العربية**
خصائصها وتراثها الحضاري الاسلامي
عقدت بالمدينة المنورة من ٢٤ ــ ٢٩ ربيع الثاني ١٤٠١هـ
الموافق ٢٨ فبراير ــ ٥ مارس ١٩٨١م ــ
«المعهد العربي لانماء المدن» .... اسماعيل سراج الدين وسمير الصادق

□ **The ARAB CITY**
Its character and Islamic Cultural Heritage
Proceeding of a Symposium Medina, Kingdom of Saudi Arabia: 24-29 Rabi II, 1401AH 28 Feb.-5Mar, 1981 AD.
The Arab Urban Development Institute.
Edited by: Ismail Serageldin, Samir EL-Sadek

□ **فلسطين في طوابع البريد (١٨٦٥ ــ ١٩٨١)**
دار الفتى العربي ــ الورشة التجريبية العربية
لكتب الأطفال (١٩٨١) ....

□ **معارك العرب وما اشبه الليلة بالبارحة**
دار النهار للنشر ....أحمد الشقيري

□ **اغنيات الصمت والاغتراب**
شعر، ١٩٨٢ ....محمود فضيل التل

□ **مؤتمر الساحل والأقضية الاربعة (١٩٣٦)**
الدار الجامعية للطباعة والنشر..............................الدكتور حسان علي حلّاق

□ **التطور التاريخي للانظمة النقدية في الاقطار العربية**
مركز دراسات الوحدة العربية .... الدكتور عبد المنعم السيد علي

□ **كتب ومقالات: تعريفات ومستخلصات**
العدد الأول ــ نوفمبر ــ تشرين الثاني ١٩٨١
معهد الانماء العربي ــ وحدة التوثيق والتحرير..............................علي ذو الفقار شاكر

□ **كتب ومقالات: تعريفات ومستخلصات**
العدد الثاني ــ فبراير ــ شباط ١٩٨٢
معهد الانماء العربي ــ وحدة التوثيق والتحرير..............................علي ذو الفقار شاكر

□ **كتب ومقالات: تعريفات ومستخلصات**
العدد الثالث ــ نوفمبر ــ تشرين الثاني
معهد الانماء العربي ــ وحدة التوثيق والتحرير .... علي ذو الفقار شاكر

مراجعة كتاب

مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم لعروة بن الزبير

جمعه وحققه وقدم له: د. محمد مصطفى الأعظمي

إن من الأهداف الرئيسية التي أنشىء مكتب التربية العربي لدول الخليج من أجلها، العناية بالثقافة العربية الإسلامية، والمشاركة في نشر التراث العربي الإسلامي.

لذلك انصرفت وجهته صوب العناية بهذه الأهداف، وصولاً إلى خدمة الأمة العربية من خلال خدمة تراثها الخالد، فكانت من أولى خطاه نشر بعض الآثار التي تعنى بالفكر العربي الإسلامي، مشاركة منه في الاحتفاء بحلول القرن الخامس عشر الهجري، فتقدم إلى طائفة إلى الباحثين ليعضدوا خطوته هذه بتقديم ما لديهم من أصول في هذا الباب، فكان ممن حظي المكتب بنشر نتاجهم الدكتور محمد مصطفى الأعظمي، أستاذ علم الحديث الشريف في الرياض وأحد المشتغلين بخدمة السيرة والحديث النبويين الشريفين، وقد سبق أن قام بنشر جملة من الدراسات واحياء بعض النصوص الحديثة، مؤرخاً لها ودارساً حيث أفاد المكتبة العربية الإسلامية بهذه الدراسات والنصوص، ومن جهوده المباركة التي تبناها مكتب التربية العربي لدول الخليج، ومشاركة منه بهذا الحدث الإسلامي الجليل، ...كتاب يضم «مغازي» رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم)، تأليف التابعي الجليل عروة بن الزبير المتوفي في سنة/ ٩٤هـ.

ويقوم عمل الدكتور الأعظمي على التقاط شذرات هذه المغازي،...

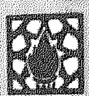
وأطلق على عمله: «مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم» لعروة بن الزبير، النسخة المستخرجة، وقد تلقف هذه النصوص من كتب السير والمغازي وبعض كتب الحديث، وجعل عمله هذا يدور في ثلاثة أقسام رئيسية هي:

١ ـ دراسة عامة للقرآن الكريم وأثره في النظرة التاريخية، ثم واقع الدراسة التاريخية في القرآن ودراسة السيرة ودور الصحابة فيه، ثم دور التابعين من بعدهم.. وأثر عروة بن الزبير في التأليف في السيرة والمغازي، ثم عرض لحياته وأخباره.. ثم «لمغازيه» ولمن رواه.. فعرض ترجمة أبي الأسود المعروف بيتيم عروة: محمد بن عبد الرحمن بن لهيعة بن عقبة الخضرمي (ت ـ ١٧٤ هـ).. حيث أن مصادر هذه المغازي جاءت عن طريق رواية ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة..

٢ ـ الملاحق، وضمنها: كتابات عروة بن الزبير إلى عبد الملك، والوليد وغيرهما من رجالات بني أمية، والمتعلقة بالمغازي، .. وأسماء أهل (بدر) الذين لم يذكرهم عروة في مغازيه.. أو بالأحرى لم يستوفهم ابن حجر الهيثمي في «مجمع الزوائد» ونشر صفحة من: «سير أعلام النبلاء» وفيها ترجمة ابن الزبير وأبي الأسود.. علماً أن سير أعلام النبلاء «أحد الموسوعات التاريخية التي وضعها مؤرخ الإسلام الذهبي شمس الدين» (ت ـ ٧٤٨ هـ). ونشر منها ثلاث مجلدات.. في القاهرة ثم توقف الطبع.. ومن هذا العرض الوجيز، تبين الجهد الطيب الذي قدمه الدكتور محمد مصطفى الأعظمي «أستاذ الحديث الشريف في جامعة الرياض» إلى عشاق التراث المحمدي.. حيث قد أضاف لبنة جديدة إلى صرح مكتبة «المغازي والسير» وهو عمل حميد، يذكر له فيشكر عليه.. ●

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي



صدر العدد الأول في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨
تصدر في منتصف كل شهر عن « دار النشر العربية »
صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير



الاشتراكات

- للأفراد في لبنان .... ١٠٠ ل.ل.
- للأفراد في الوطن العربي .... ١٢٥ ل.ل.
- للأفراد في دول العالم الأخرى ... ١٥٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في لبنان .... ٢٥٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في الوطن العربي .... ٧٥ دولارا
- للمؤسسات والدوائر الحكومية خارج الوطن العربي .... ١٠٠ دولار

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير

بناية ابو هليل - شارع السادات - بيروت - لبنان - ص . ب . / ٥٩٠٥ / هاتف : ٨٠٠٧٨٣

أبو سفيان عند هرقل*

قال أبو سفيان[1] بن حرب:

كنا قوماً تجاراً، وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا. فلما كانت الهدنة ــ هدنة الحديبية ــ بيننا وبين رسول الله، صلى الله عليه وسلم، خرجت في نفر من قريش الى الشام، وكان وجه متجرنا منه غزة، فقدمناها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من الفرس، فأخرجهم منها، وانتزع منهم صليبه الأعظم، وكانوا قد استلبوه إياه.

فلما بلغه ذلك منهم وبلغه أن صليبه قد استنقذ منهم، وكانت حمص منزله، خرج منها يمشي على قدميه شكراً لله حين رد عليه ما رد، ليصلي في بيت المقدس، تبسط له البسط وتلقى عليها الرياحين.

فلما انتهى الى ايلياء فقضى فيها صلاته، وكان معه بطارقته وأشراف الروم، أصبح ذات غدوة مهموماً يقلب طرفه الى السماء. فقال له بطارقته: والله لكأنك أصبحت الغداة مهموماً.

فقال: أجل! رأيت البارحة أن ملك الختان ظاهر. فقالوا: أيها الملك، ما نعلم أمة تختتن إلا اليهود، وهم في سلطانك وتحت يدك، فابعث الى كل من لك عليه سلطان في بلادك فمره فليضرب أعناق من تحت يدك منهم من يهود، واسترح من هذا الهم.

فوالله إنهم لفي ذلك من رأيهم يدبرونه إذا أتاه رسول صاحب بصرى[2] برجل من العرب يقوده ــ وكانت الملوك تتهادى الأخبار بينهم ــ فقال: أيها الملك؛ إن هذا رجل من العرب من أهل الشاء والابل يحدث عن أمر حدث فاسأله.

فلما انتهى به الى هرقل رسول صاحب بصرى؛ قال هرقل لمن جاء به: سله عن هذا الحديث الذي كان ببلده، فسأله، فقال: خرج بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبي، وقد اتبعه ناس فصدقوه وخالفه آخرون، وقد كانت ملاحم في مواطن كثيرة وتركتهم على ذلك!

فلما أخبره الخبر قال: جردوه؛ فإذا هو مختون. فقال: هذا والله النبي الذي رأيت، لا ما تقولون؛ أعطوه ثيابه وينطلق، ثم دعا صاحب شرطته فقال له: اقلب الشام ظهراً لبطن حتى تأتيني برجل من قوم هذا الرجل.

فإنا لبغزة إذ هجم علينا صاحب شرطته فقال: أنتم من قوم الحجاز؟ قلنا: نعم، قال: انطلقوا إلى الملك، فانطلقوا بنا. فلما انتهينا إليه قال: أنتم من رهط هذا الرجل الذي بالحجاز؟ قلنا: نعم. قال: فأيكم أمس به رحماً؟ قال أبو سفيان: قلت: أنا، قال: ادن، ثم أقعدني بين يديه وأقعد أصحابي خلفي، وقال لهم: إني سأسأله، فان كذب فردوا عليه.

قال: فوالله لقد علمت أن لو كذبت ما ردوا عليَّ، ولكني كنت أمرأ سيداً أتبرم من الكذب، وعرفت أن أيسر ما في ذلك إن أنا كذبته أن يحفظوه عليَّ؛ ثم يحدثوا به عني، فلم أكذبه.

وقال: أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم يدعى ما يدعي. فجعلت أزهد له شأنه وأصغر له أمره، وأقول له: أيها الملك، ما يهمك من شأنه! إن أمره دون ما بلغك. فجعل لا يلتفت الى ذلك مني. ثم قال: أنبئني فيما أسألك عنه من شأنه. قلت: سل عما بدا لك.

قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: محض، هو أوسطنا[3] نسباً. قال: أخبرني، هل كان أحد من أهل بيته يقول ما يقول فهو يتشبه به؟ قلت: لا. قال: هل كان له فيكم ملك فسلبتموه إياه، فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه؟ قلت: لا. قال: أخبرني عن أتباعه منكم من هم؟ قلت: الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء، فأما ذوو الأسنان من الأشراف من

قومه فلم يتبعه منهم أحد. قال: أخبرني عمن يتبعه أيحبه ويلزمه، أم يقليه[٤] ويفارقه؟ قلت: قلما يتبعه أحد فيفارقه. قال: فأخبرني كيف الحرب بينكم وبينه؟ قلت: سجال يدال علينا وندال عليه[٥].

قال: فأخبرني هل يغدر؛ فلم أجد شيئاً أغتمز فيه غيرها؛ فقلت: لا، ونحن منه في مدته[٦] ولا نأمن غدره. قال: فوالله ما التفت إليها مني.

ثم كرر الحديث فقال: سألتك عن نسبه فيكم؛ فزعمت أنه محض من أوسطكم نسباً فكذلك يأخذ الله النبي لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسباً، وسألتك: هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل قوله فهو يتشبه به؟ فزعمت أن لا. وسألتك: هل كان له ملك فيكم فسلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب ملكه؟ فزعمت أن لا. وسألتك عن أتباعه، فزعمت أنهم الضعفاء والأحداث والمساكين والنساء، وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان. وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه؟ فزعمت أنه لا يتبعه أحد فيفارقه، فكذلك حلاوة الايمان لا تدخل قلب رجل فتخرج منه.

وسألتك عن الحرب بينكم وبينه، فزعمت أنها سجال تدالون عليه ويدال عليكم، وكذلك حرب الأنبياء، ولهم تكون العاقبة. وسألتك: هل يغدر؟ فزعمت أن لا: فلئن كنت صدقتني عنه فليغلبن على ما تحت قدمي هاتين، ولو ددت أني عنده فأغسل قدميه! انطلق لشأنك.

فقمت من عنده وأنا أضرب بإحدى يدي على الأخرى وأقول: يا لعباد الله! لقد أمر[٧] أمر ابن أبي كبشة[٨]! أصبحت ملوك بني الأصفر[٩] يهابونه في ملكهم وسلطانهم!

الهوامش

(*) الأغاني: ٦ ــ ٣٤٥.

(١) هو صخر بن حرب، من سادات قريش في الجاهلية، كان من رؤساء المشركين يوم الأحزاب ويوم أحد. وأسلم يوم فتح مكة سنة ٨هـ. وتوفي سنة ٣١هـ.

(٢) بلد من أعمال دمشق.

(٣) أي خيرنا وأفضلنا نسباً.

(٤) يبغضه.

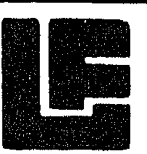
(٥) يدال علينا وندال عليه: أي نغلبه مرة ويغلبنا أخرى.

(٦) في مدة: يعني بها مدة صلح الحديبية.

(٧) أمر: عظم.

(٨) أبو كبشة: رجل من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأوثان، وعبد الشعري العبور، فسمى المشركون النبي، صلى الله عليه وسلم، ابن أبي كبشة لخلافه إياهم إلى عبادة الله تعالى، تشبيهاً له بأبي كبشة الذي خالفهم إلى عبادة الشعر.

(٩) بنو الأصفر: لقب ملوك الروم.



البنك اللبناني الفرنسي ش.م.ل.

شركة مساهمة لبنانية ○ راسمالها ١٥،٠٠٠،٠٠٠ ليرة لبنانية مدفوع بكامله ○ السجل التجاري بيروت ١٩٦١٨
لائحة المصارف رقم ١٠

الميزانية المؤقتة بتاريخ ٣١ كانون الأول ١٩٨٢

الموجودات	ل.ل.
الصندوق والمصارف وسندات الخزينة	٢٠٩٢ ٧٣٥ ١١٧,٠٨
محفظة السندات التجارية	٣٧ ٦٢٦ ٥٢٦,٢٠
تسليفات وحسابات مدينة	١ ٥٩٧ ٠٨٦ ٦٧٧,٠١
محفظة السندات المالية	٤٧ ٦٥٢ ٢٨٦,٢٢
عقارات واثاث	١٩ ١٠٣ ٥٩٢,١٨
الحسابات النظامية وحسابات التسوية	٢٣ ١٨٩ ١٠١,٤٧
المجموع	٣ ٨١٧ ٣٩٣ ٣٠٠,١٦

المطلوبات		ل.ل.
الودائع		٣ ٢٣١ ٣٩٤ ٨٤١,٦٥
المصارف والعملاء		٢٨٥ ٦٤٥ ٢٤٩,٧٦
دائنون مختلفون		١٢٠ ٢٥٣ ٢٧٩,٢٩
الحسابات النظامية وحسابات التسوية		٥٥ ٩٥٩ ٠٣٥,٩٢
الاموال الخاصة		١٢٤ ١٤٠ ٨٩٣,٥٤
• راس المال	١٥ ٠٠٠ ٠٠٠	
• اموال احتياطية	٧٨ ٩٠٢ ٩٩٧	
• ارباح مدورة	٢٣٧ ٨٩٦	
• اموال احتياطية اخرى	٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠	
المجموع		٣ ٨١٧ ٣٩٣ ٣٠٠,١٦

خارج الميزانية	ل.ل.
سندات تجارية محسومة متداولة ومظهرة من قبلنا	-
قيم برسم القبض	١٥٢ ٦٤٦ ٢٤٨,٨٧
تعهدات بقبولات	-
تعهدات بكفالات وتكفلات	٤٨٦ ٨٣٤ ٩٧٦,٢٨
اعتمادات مثبتة مفتوحة	٢٠٦ ٧٨٦ ٢٤٢,٢٦
أسهم ضمانة اعضاء مجلس الادارة	٢٢٥ ٠٠٠,--



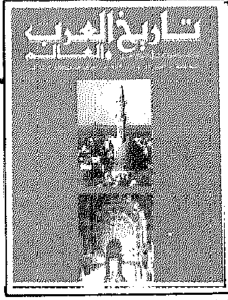
FILIALE EN FRANCE

BANQUE LIBANO-FRANÇAISE (France)

SIEGE SOCIAL: 33, RUE DE MONCEAU, 75008 PARIS
AGENCE A NICE: 5, Promenade des Anglais
AGENCE A MONTE CARLO (PRINCIPAUTE DE MONACO):39, Avenue de la Princesse Grace
société anonyme française - capital 40.000.000 francs français entièrement versé

السوق القديم بطرابلس، لبنان

الغلاف الأول

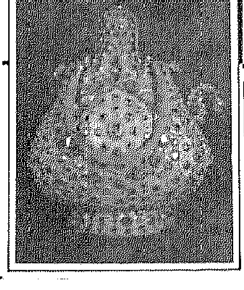


القبة الخضراء — المسجد النبوي الشريف

مسجد الرسول من الداخل
كتاب «أبحاث من ندوة المدينة العربية»

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

الغلاف الأخير



قارورة ماء مرصعة بالجواهر — العهد العثماني، النصف الثاني من القرن السادس عشر

